

الشعراء الشاميون

تأليف

خليل مردم بلت

رئيس المجمع العلمي العربي بدمشق

١٨٩٥ - ١٩٥٩

حقوق المخطوطة وقدم لها

عدنان مردم بلت

دار صادر

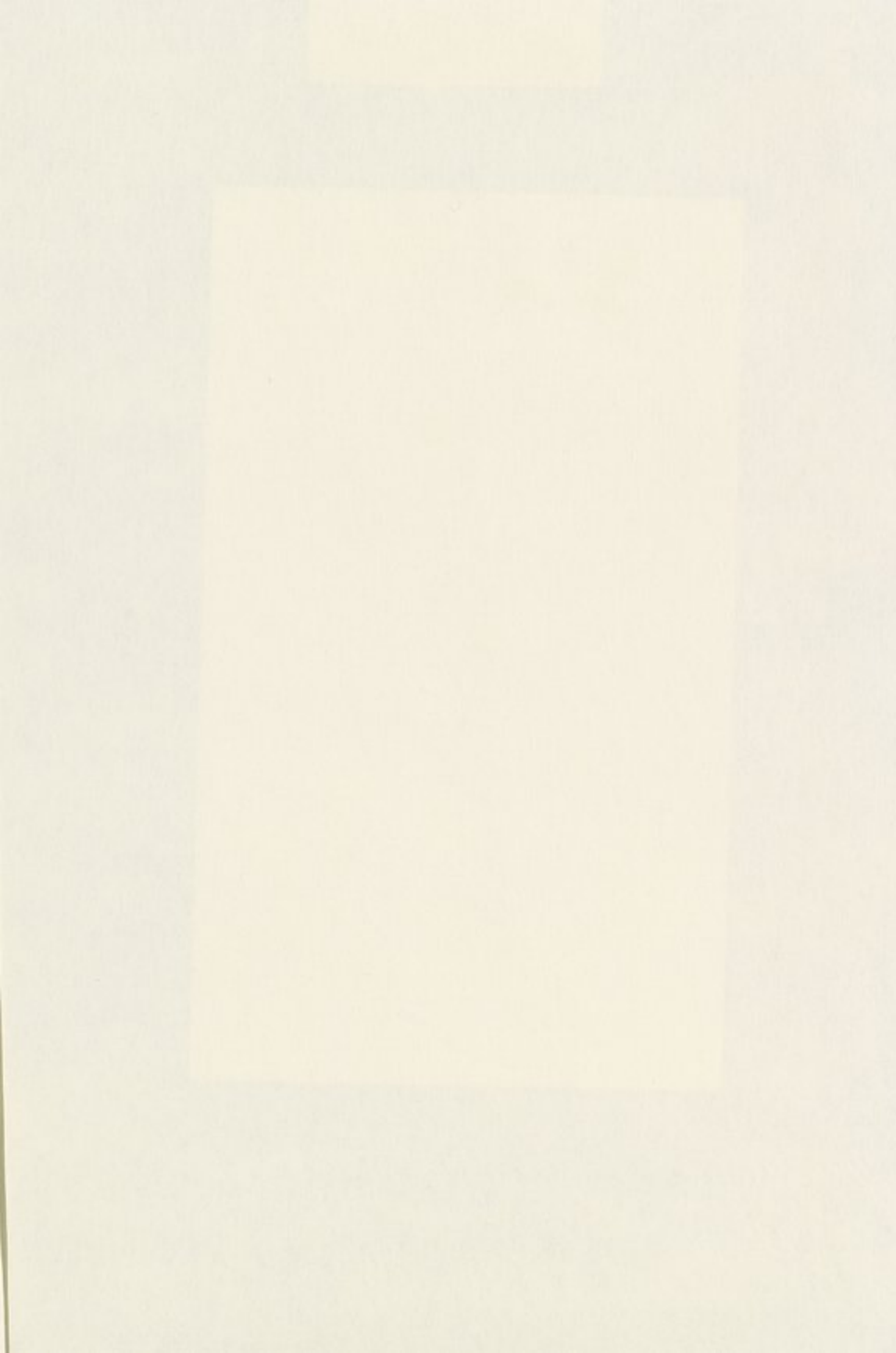
بيروت



32101 034410173

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

*This book is due on the latest date
stamped below. Please return or renew
by this date.*



120

الشعراء الشاميون

ACK TO FRONT

PORTICO LIBRERIAS
P.O. BOX 503
50080 ZARAGOZA
ESPAÑA

الشعراء الشاميون

تأليف

خليل مردم بك

رئيس المحمّع العثماني العربي بدمشق

١٨٩٥ - ١٩٥٩

حقوق المخطوطة وقدم لها

عدنان مردم بك

دارصادر
بيروت

(ARAB)
PJ8100
.M37
1900



التعريف بالكتاب

أغرم شاعر الشام خليل مردم بك منذ حداثته بقراءة شعر الشعراء الشاميين ، واستظهر الكثير منه ، وكان يتتبع أخبار أولئك الشعراء في أمهات الكتب الأدبية ، وكتب التراجم ، باحثاً ومنهياً ، وفاحصاً متمعناً .

وجد الخليل رحمه الله الطريقة الشامية التي أشار إليها صاحب اليتيمة ، الطريقة المثلى ، إذ على الشاعر أن يهذب شعره بإعمال الروية وإمعان الفكر ، وأن لا يركن إلى أول خاطر يقع عليه ، بل عليه أن يكون ناقداً حكيماً بصيراً بيواطن الضعف من شعره .

وقد غلبت الصنعة الشعرية على أكثر الشعراء الشاميين منذ القديم حتى عرفوا بها ، فهم يكرهون اللفظ الساقط والتراكيب المهلهلة ، ولا يرضون للمعنى الشريف إلا اللفظ الشريف ؛ وهذه ميزة شعراء الشام التي أشار إليها الثعالبي في يتييمته .

قدم شاعر الشام دراسة موجزة عن شعراء الشام في القرن الثالث للهجرة ، حين انتخب عضواً عاملاً للمجمع العلمي العربي بدمشق عام ١٩٢٥ ، ودرس في رسالته أربعة شعراء شاميين هم : العتابي وديك الجن وأبو تمام والبحثري . وكانت هذه الدراسة هي أول أثر أدبي له قدمه لجمهور القراء ؛ وكأنما أراد الخليل أن تكون باكورة أعماله الأدبية هذه الرسالة كاعتراف ضمني بالجميل إلى أساتذته الشعراء الذين استقى من معينهم الثراء ، ووجد بهم المرشد له في طريقه الطويلة التي سارها في ميدان الشعر والأدب .

لم يكن المؤلف حين قدم دراسته قد أتم الثلاثين من عمره، ولكنه استطاع أن يأتي بدراسة أدبية ممتعة ، فيها الكثير من الدقة والإحكام ، في العرض والتحليل ؛ وكان منصفاً في الأحكام التي صدرت عنه بما كان للشعراء موضوع رسالته وما عليهم .

حاول أن يكون مستقلاً في أحكامه وآرائه عن سبقه من النقاد والأدباء ، وقد وفق في جلّ ما ذهب إليه .

اسمعه حين يتكلم عن صفة أبي تمام في كتاب شعراء الشام ص ٤٦ :

« يحاول أبو تمام أن يطبق مذهبه في البديع على كل بيت من شعره ، بل على كل كلمة ، وفي ذلك من الأخذ بالشدّة ما لا مزيد عليه ، سمعه إسحق الموصلّي ينشد شعراً فقال له : يا هذا شققت على نفسك ، إن الشعر لأقرب مما تظن . وما أعجب لشيء كعجبي لهذا الرجل كيف تمكن من الإجادة مع هذا الاستقصاء في البديع ، فهو كمن يريد أن يبني هرمًا من أرجل النمل ، أو ينقش صورة الأقاليم على فص خاتم .

وأعجب من ذلك أن هذه العناية باللفظ ، لم تصرفه عن العناية بالمعنى ، فقد كان يغوص على المستصعب كما مرّ بك .

بلغ أبو تمام ذروة الشعر ، ولكن سلك إليها طريقاً وعراً ، صعب المسالك ، ما سلكه أحد من الشعراء بعده وبلغ مبلغه ، ولقد أحسن المتنبي لما أعجزه هذا الطريق فتحول عنه إلى غيره فأتى بما ملأ الدنيا وشغل الناس . »

لم يكتب الشاعر الخليل بهذه الرسالة التي قدمها للقراء سنة ١٩٢٥ ليُعرّف بالطريقة الشعرية الشامية في القرن الثالث للهجرة ، بل أراد أن يأتي بشواهد غيرها لشعراء شاميين عاشوا في عصور مختلفة ولم يرزقوا شهرة الطائي والبحثري ،

ومع هذا كانوا من فحول الشعراء ومن صياغ اللفظ الذين يوافقون ما بين المعنى والألفاظ .

وقد وقع اختيار المؤلف على سبعة شعراء شاميين لم تحظ دواوينهم بالطبع حتى سنة ١٩٤٤ ولا أشعارهم بعناية الباحثين والمدققين ، ومنهم من لم يعثر له على ديوان مخطوط كعدي بن الرقاع . وكان الدافع للمؤلف على هذه الدراسة الصعبة عاطفته الشامية المتأصلة في حنايا ضلوعه ، ذلك أن خليل مردم بك لإنسان شامي إلى أبعد ما في الكلمة من حدود ، أغرم بالشام وبتاريخها وبتراجم أهلها وسيرهم ، وألمّ بكل شيء شامي حتى الجزئيات فكأنّ الشام لديه قصيدة مختارة من حر الشعر ، ودمشق بيت القصيد .

أو ليس الخليل هو القائل بدمشق حين نكبت وأحرقها الفرنسيون بشظاياهم أيام الثورة :

أرتنيها المحبةُ بيتَ نارٍ يلوح لعين (دهقان) سناها
عبدالناها نعيماً أو جحيماً وألهمتِ النفوسُ على هواها

وأيّ محبة هذه التي يصفها شاعر الشام ببيان عبقرى والتي سمت فوق كل محبة وبلغت حدود التقديس والعبادة ، وإنها لعمري لنفحة علوية وصياغة شامية .

ذكرنا في مستهل الكلام أن أول دراسة أدبية قدمها مؤلف هذا الكتاب كتابه عن شعراء الشام في القرن الثالث للهجرة ، وكان دراسته هذه ، جعلته يفكر بدراسة أوسع ، تتضمن الكلام عن شعراء شاميين في عصور مختلفة لم تحظ دواوينهم بالعناية ولم يحظ شعرهم بالدراسة الوافية : كعدي بن الرقاع والطرماح والوليد بن يزيد وابن حيوس وابن الخياط وابن عنين .

قام الخليل بهذا العمل الشاق بصبر عجيب ، لأن أكثر دواوين أولئك

الشعراء بحكم المفقود لكونها نسخاً مخطوطة في مكتبات أوروبا ، أو أنها مفقودة فعلاً كديوان عدي بن الرقاع ؛ واستطاع المؤلف رغم كل مشقة اعترضته ، أن يقدم للناس دراسة وافية لأولئك الشعراء تؤكد ، وتشهد لهم بقصب السبق بين الشعراء الفحول الذين عاصروهم .

لا مريّة أن الشعراء الذين اختارهم مؤلف كتاب الشعراء الشاميين هم من فحول الشعراء ولكن المؤسف أنهم كانوا سيئي الحظ لندرة دواوينهم المنسوخة بسبب عوامل متعددة سنشير إليها فيما بعد ، ومنهم من لم يبق من شعره سوى أبيات أو مقطعات منشورة في بطون الكتب الأدبية والتراجم .

سلخ الخليل الأشهر الطويلة في التنقيب والبحث وراح يجمع البيت والبيتين من كتب مختلفة ، منها ما هو أدبي ، ومنها ما هو لغوي ورد بها على سبيل الاستشهاد حتى استطاع أن يطلع على الناس بدراسة وافية للشاعر عدي بن الرقاع ربطها بديوان شعري له ، وقد أشار المؤلف إلى ما عاناه بقوله :

« ديوان عدي بن الرقاع مفقود ، ولم يبق من شعره إلا القليل ، وهذا القليل غير مجموع في مكان واحد يمكن الرجوع إليه بل هو مبعثر في بطون الكتب ، لذلك فقد انصرفت مدة من الزمن أجمع كل ما عثرت عليه من شعره في كتب الأدب واللغة والتاريخ والتراجم وتقويم البلدان .

فقد أجد القصيدة من شعره مفرقة في أمكنة متعددة فأضم بعضها إلى بعض ، وقد أجد أبياتاً من بحر واحد وقافية واحدة مبعثرة على سبيل الاستشهاد في كتب اللغة وتقويم البلدان ، كلسان العرب لابن منظور ومعجم البلدان لياقوت ، فأجتهد في ترتيبها وجعلها قطعة واحدة متتالية بعد التحري والروية .. » .

وكانت دواوين أكثر من كتب عنهم الخليل مخطوطة والوصول إليها صعباً وقد تكبد العسير الجليل للحصول عليها وتم له ما أراد بعد الجهد

الجاهد ، إذ كان يرمي أن ينبه الأذهان إلى علو منزلة أولئك الشعراء الذين لم يحظوا بالعناية اللازمة من رجال العلم والأدب ، وكان للمؤلف ما أراد لأنه قدم لنا دراسة وافية من أجل الدراسات الأدبية ، ثم انكب بعد ذلك على تحقيق ثلاثة دواوين لثلاثة من الشعراء الشاميين هم : ابن حيوس ، وابن الخياط ، وابن عنين .

يلمس القارئ في دراسة المؤلف هذه ، التحقيق العلمي المركز ، الذي يقوم على الاستقصاء الدقيق والتسلسل المنطقي في البحث .

ونطالع الاستقلال الفكري للمؤلف في كل ما كتب لنا بلغة تنساب رقة وعضوبة .

اعتمد الخليل في دراسته للشعراء الشاميين موضوع كتابه ، على النص وحده أي على ديوان الشاعر المخطوط ، وقام باستقرائه شأن المحلل الكيماوي في مخبره ، واستطاع المؤلف من قراءة النص أن ينفذ إلى البواطن الخفية للشاعر ، إلى ثقافته العامة ، خياله الشعري ، لغته وإلى العصر الذي عاش به ، وأعطى المؤلف لكل شاعر كتب عنه الصورة الكاملة لمجتمعه السياسي والفكري والاقتصادي ، وذكر ما لهذه العوامل من أثر فعال في حياة الشاعر ، كما أن المؤلف لم يهمل العامل النفسي والفطري وبيان ما لهذا العامل من أثر فعال ؛ اسمع ما يقرر الخليل حين يتكلم عن الخليفة الشاعر الوليد :

« أبرز صفة في الوليد الشعر ، فهو في شعره أعظم منه في خلافته ، ولو لم يكن شاعراً لما استحق تلك العناية من الأدباء والمؤرخين ، لأنه لم يكن بالخليفة العظيم ، ولا اشتهر بشيء مما اشتهر به أسلافه الخلفاء ، كدهاء معاوية ، وحزم عبد الملك ، وعدل عمر بن عبد العزيز .

فالشعر وحده هو الذي أحيا ذكره ، بالرغم من ضياع أكثره ، وتشتيت ما بقي منه موزعاً في كتب الأدب » .

أو حين يأتي على ذكر الشاعر الطرماح :

« الطرماح من فحول الشعراء الإسلاميين ، تغلب عليه الجزالة ، حتى تنتهي به في كثير من شعره إلى الغريب والعويص ، ويظهر على شعره أثر الإسلام والإيمان بما أتى به ، والرغبة فيما دعا إليه ، والخوف مما نهى عنه ، فهو من هذه الجهة يشبه الفرزدق ، ويزيد عليه بالحد والتصون وخلو شعره من العبث والمجون والغزل الفاحش .

تقرأ شعر الطرماح فترى نفس شاعر فارس سمح ، جم المروءة ، حمي الأنف ، كبير النفس ، حسن الإيمان ، لا يكاد يصرّف شعره في سبيل التكسب والزلفى ، بل يرسله معبراً عما يختلج في نفسه من بواعث الشعر . . . » .

إن الأمثلة كثيرة ولا يمكن حصرها وإنما حسبي أن أشير إلى بعضها على سبيل الاستشهاد .

الغريب ، أن جلّ الشعراء الذين كتب عنهم مؤلف كتاب الشعراء الشاميين ، لم يسبق أن درس واحد منهم ، دراسة أدبية بالمعنى الصحيح ، بل ظلوا في حكم الغفل على جلاله منزلتهم ، ومردّ ذلك أشياء عديدة ، منها العامل السياسي ، كتشويه بني العباس تاريخ بني أمية والسعي الخبيث لطمس آثارهم الفكرية والأدبية ، فلا عجب إذا ما أتلف ديوان الخليفة الأموي الوليد بن يزيد وزهد رواة الشعر بحفظ شعره تزلفاً من خلفاء بني العباس ، ومنها غزوات التتار على العراق والشام وإحراق المكاتب العامة وإلقاء الكثير من الكتب في نهر دجلة ، ومنها جهل أسود ران على البلاد العربية زهاء أربعمئة سنة تقريباً أيام حكم العثمانيين صرف الناس عن العلم حتى بات المتعلم أندر من الذهب فعمّ الجهل ، ومدت الأيدي الجاهلة إلى المكاتب الخاصة تعيث بالمخطوطات جهلاً بقيمتها ؛ وقد ذكر لي الأستاذ حمادي

الأسطواني الشهير بالسفرجلاني القصة التي وقعت معه ، وتتلخص ، أنه إثر وفاة الوراق الدمشقي حفي ناصف ، ذهب الشيخ حمدي إلى ورثة الوراق واتفق معهم على شراء الكتب المخطوطة وأرسل ما اشتراه مع حمال على دفعتين ، وتوقف مقدار نصف ساعة مع صاحب له ، ثم ذهب إلى داره يتفقد المخطوطات ، فوجد أن والدته أرسلت بنصف الكتب المخطوطة إلى بيت قمامة الحمام القريب من الدار وألقت بالمخطوطات في بيت النار خوفاً من الغبار والعت ، ولم يستطع الشيخ الأسطواني أن يحتفظ بالقسم الباقي من المخطوطات إلا بعد اليمين المغلظة لوالدته من أنه لن يبقي هذه الكتب عنده طويلاً ، وكانت الكتب من أثن المخطوطات حتى إنه باع مخطوطة البيزرة في القاهرة بألف جنيه ذهبي .

إن المحن التي مرت بها المخطوطات العربية كثيرة جداً ولا يمكن حصرها ؛ فلا عجب إذا فقدت آثار كثير من الشعراء والأدباء والمفكرين والعلماء ، والكوارث التي مرت على الوطن العربي كثيرة ومتنوعة ، ولا عجب إذا فقد ديوان عدي بن الرقاع وديوان الوليد بن يزيد، والمحنة معروفة وليست بخافية .

ونرى أن الخليل رحمه الله رغم هذه الصعوبات التي كانت تعترضه من فقدان الديوان حيناً ومن صعوبة الحصول على المخطوطة الموجودة في مكتبات أوروبا حيناً آخر فقد أتانا بدراسة كاملة عن الشعراء الشاميين موضوع كتابه هذا . إن في دراسته لُتمعاً نيرة من الآراء الثاقبة التي تشهد للمؤلف بطول الباع واستجلاء الدقيق مع تقديم صورة كاملة بأسطر قليلة كقوله حين يتكلم عن الوصف في شعر الطرماح :

« أما وصفه فهو أشبه بوصف شعراء الجاهلية ، يصور البادية وحياتها

وطبيعتها ، وما في سمائها وغبرائها ؛ على أنه حضري ، نشأ في الشام ،
ودخل بلاد فارس ، ولكن إلهام البادية في وصفه أظهر ، وعزيف جننها أوضح
يعبق فيه الشيخ والقيصوم ، ويلمع السراب ، وترغو الإبل ، وهو في جملمته
وصف دقيق فيه حياة متحركة ، يتناول الدقيق والجليل ، ولكن غرابة اللغة
في كثير منه يجعله غريباً عن الأذواق . . . » .

لا شك أن الشاعر المردمي عرف كيف يعبر بألفاظ موجزة وأن يقدم
صورة كاملة بأسطر قليلة ، ولن أكثر من إيراد الشواهد لأن المؤلف نفسه
يغنيني هذه المؤونة وإنما سأقتصر على إيراد مثال آخر لأدلل على البراعة في
النقد عند الخليل . « قالوا إن عدياً من حضرة الشعراء لا من باديتهم ، وإنه
كان أثيراً مقدماً عند بني أمية ، ومعنى ذلك أنه من دعاة سياستهم ، لا من
الشعراء الذين يبيعون الشعر ببعاً .

فهل لذلك أثر في شعره ؟ نعم إن اطراد شعره وتساوق أبياته وتلاحمها
وتهديب قوافيه وحسن صياغته ، وما في تشبيهاته من معان حضرية ، وما
في قصائده من ماء وظل ونعيم كقوله :

فقد أبيت أراعي الخود راقدة على الوسائد مسروراً بها ولعا

وقوله :

ومما شجاني أنني كنت نائماً أعلل من برد الكرى بالتنسم
إلى أن بكت ورقاء في غصن أيكة تردد مبكاها بحسن الترنم

أثر من آثار نعيم العيش ورفاهته ، فإن شعراء البادية يتوسدون في باديتهم
أعضاء المطايا ، وعدي يراعي الخود على الوسائد ، ويعلل ظل الأيك بدمشق
بنوم هنيء ترنم فوقه الحمائم .

على أن حسن تأتبه في مدحه لبني أمية ، خلفائهم وأمرائهم ، أدل على لباقتة وتحضره ، فهو شاعر مجيد من شعراء القصور ، يحسن القيام برسوم الخلفاء والأمراء في مخاطبتهم على الوجه الأكمل ، ويمدحهم بما هو أشبه بالدعوة السياسية ، ويضفي عليهم رداء الجلال والعظمة ، فاسمعه يقول في مدح الوليد بن عبد الملك :

صلى الإله على امرئ ودعته وأتمَّ نعمته عليه وزادها
أولاً ترى أن البريسة كسلها ألفت خزائنها إليه فقادها

فهل ترى نمطاً أليق بمخاطبة الخلفاء من هذا النمط ؟ تحية الخليفة بالصلاة عليه ، وتعظيم للأمر المضطلع به ، وإشادة بعظائم أعماله في سبيل الأمة ، وإخلاص في محبته ، وتأيد لملكه وعرشه . . . » .

وهكذا نرى أن الدراسات التي طالعنا بها الخليل في مؤلفه الشعراء الشاميين دراسات بارعة ومن نمط جديد ، كتب عن شعراء فحول كانوا في عداد المغمورين والمجهولين من أكثر الأدباء في الأقطار العربية لفقدان دواوينهم وانصراف أكثر نقدة الأدب عن الكتابة عنهم ؛ غير أن شاعر الشام شاء أن يحمل العبء وحده ، ليؤدي بعض دينه الأدبي نحو أساتذته الذين تثقف بشعرهم من الشعراء الشاميين والذين أخذ عنهم الطريقة الشامية ، فكان أن وفقى الدين كاملاً ، وطالعنا بدراسة من أجل الدراسات تتميز بالنهج الذاتي الذي سلكه بها ، وباستقلال الرأي دون الأخذ برأي من تقدمه من رجال اللغة والأدب ، وبالجرأة بالحكم .

وكان المؤلف في كل ما يذهب إليه يعرف كيف يقرع الحججة بالحجة ببيان جلي مشرق وبدياجة عربية أصيلة .

وإني أورد إليك مثلاً واحداً على سبيل الاستشهاد حين يرد على القاضي

علي عبد العزيز الجرجاني حين عاب الشاعر عدياً ، واعتبر لفظه جاسم الواردة
في قصيدته الغزلية الميمية من حشو الكلام :

وكأنها بين النساء أعارها عينيه أحورٌ من جآزر جاسم

يقول الخليل رحمه الله :

« والغريب أن القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني صاحب كتاب
الوساطة ، على نفوذ بصره وصحة أحكامه في النقد أساء فهم هذا البيت ،
فظن أن ذكر جاسم من حشو الكلام ، لا فائدة في ذكره ، فقال بعد أن
قرظ البيت : رأيت ظباء جاسم فلم أرها إلا كغيرها من الظباء ، وقد يختلف
خلق الظباء وألوانها باختلاف المنشأ والمرتع ، وأما العيون فقل أن تختلف .
وفات القاضي أن عدياً شامي ، وجاسم من قرى الشام ، فلجآزرها
منزلة في قلبه ، وحسن في نظره فوق غيرها من الظباء » .

حسبي هذه الإشارة الصغيرة ، ولاني أترك للقارئ أن يطالع بنفسه على
فحوى الكتاب الذي يعد بحق نهجاً جديداً في الدراسات الأدبية .

رحم الله الخليل رحمة واسعة وأثابه الجزاء الجزيل على كل ما أعطى
ووهب وقدم .

عدنان مردم بك

دمشق

عدي بن الرقاع العاملي

حياته

هو أبو داود عديّ بن زيد بن مالك بن عديّ بن الرقاع العاملي من بني عاملة ، نسبه الناس إلى الرقاع وهو جد جده لشهرته .

وبنو عاملة من عرب اليمن ينتهي نسبهم إلى كهلان ثم إلى قحطان ، نزحوا عن اليمن إلى الشام مع من نزح من اليمانيين قبل الإسلام .

قال الهمداني في صفة جزيرة العرب :

« ديارُ عاملة مجاورة للأردن ، وجبل عاملة مشرف على عكا من قبل البحر يليها ويطل على الأردن » .

وقال أيضاً: « وأما عاملة فهي في جبلها مشرفة على طبرية إلى نحو البحر » .
وقال ابن خلدون^١ في كتاب العبر : « إن بني عاملة بطن متسع ومواطنهم بيرية الشام » . وقال القلقشندي^٢ في صبيح الأعشى : إن بجبال عاملة من بلاد الشام الجبل الغفير من بني عاملة » . وجبل عاملة يعرف اليوم بجبل عامل .

١ ابن خلدون : هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد ، كان فيلسوفاً وعالماً اجتماعياً ، ولد في تونس . وتعد مقدمة تاريخه الكتاب الرائد لعلم الاجتماع .

٢ القلقشندي : أحمد بن علي بن أحمد الفزاري ، المؤرخ البعثاني ، ولد في قلقشندي قرب القاهرة ، من أجل كتبه صبح الأعشى ونهاية الأرب .

وقد زعم بعض النساب أن عاملة من معد بن عدنان وليست من قحطان
ولكن عدياً نفسه يتولى الرد عليهم بقوله :

قحطان والدنا الذي ندعى له وأبو خزيمة خندق بن نزار

وفي لغة عدي أيضاً ما يصحح دعواه قال :

فإنك والشعر ذو تزجي قوافيهُ كبتغي الصيد في عيرينة الأسد
يريد (الشعر الذي تزجي قوافيه) ، وذو بمعنى الذي ، في لغة طيء ،
وطيء من قحطان .

نحن لا نعلم على التحقيق في أي سنة ولد عدي ، ولكن يغلب على الظن
أن يكون مولده حوالي العقد الرابع من القرن الأول ، لأن من أول ما روي
عنه من الشعر أبياتاً قالها في زمن يزيد بن معاوية وأنشده إياها ، ويزيد بويح
بالخلافة سنة ستين ، وتوفي سنة أربع وستين ، فلا نكون مخطئين إذا قدرنا
أن عدياً كان وقتئذ شاباً .

أما منزل عدي ، فقد كان بدمشق كما نصّ على ذلك صاحب الأغاني ،
وقال عنه إنه من حاضرة الشعراء لا من باديتهم ، ولتقّبه ابن دريد في كتاب
الاشتقاق بشاعر أهل الشام وعدّه محمد بن سلام الجُمحي في الطبقة السابعة
من شعراء الإسلام .

نشأ عدي في دمشق عاصمة الدولة الأموية ، وكان هواه مع بني أمية ،
يمدح أحياءهم ، ويرثي أمواتهم كما قال الوليد بن عبد الملك ، ولا يقف عند
هذا الحد ، بل يرى رأيهم ويقول بقولهم ، ويؤيد سياستهم ، ويتحمس لهم ،
وهو سليم لمن أطاعهم ، وحرب على من عصاهم ، ينصرهم بلسانه
وبسيفه لا عن رغبة ، ولا عن رهبة ، بل عن رأي وعقيدة .

قال يمدح عبد الملك بن مروان بعد أن ظفر بالواقعة التي كانت بينه وبين مصعب بن الزبير وانتهت بمقتل مصعب بدير الجاثليق :

لعمري لقد أصحرت^١ خيلنا بأكناف دجلة للمصعب
فقدمنا واضح^٢ وجهه^٣ كريم الضرائب^٤ والمنصب
أعين بنا ونُصرنا به ومن ينصر الله لم يُغلب
فِداؤك^٥ أُمي وأبناؤها وإن شئت زدت عليها أبي
وما قُلتها رهبة إنما يحلُّ العقاب على المذنب
إذا شئت نازلتُ مستقتلاً^٦ أزاحم كالجمل الأجر
فمن يك منسا بيت^٧ آمناً ومن يك من غيرنا يهرب

أفلا ترى صدق اللهجة في قوله : (وما قُلتها رهبة ..) .

فضلاً عن بقیة الأبيات التي تنبئ بأن الشاعر حارب في جيش عبد الملك .
فلما توفي عبد الملك وخلفه ابنه الوليد اختص عدي به ومدحه بقصائد

من حر الشعر كالقصيدة التي مطلعها :

عرف الديار توهماً فاعتادها من بعد ما شمل البلى أبلادها^٣

والقصيدة التي مطلعها :

طار الكرى وألم^٤ الهَمُّ فاكتنعا^٥ وحيل بيني وبين النوم فامتنعا

وغيرها من بقايا القصائد التي خلد بها مآثره وأشاد بأعماله العظيمة ،

كما مدح ابنه عمر بن الوليد ، فقربه الوليد وقدمه ، وكان يدعو (شاعرنا) .

١ أصحرت : برز إلى الصحراء .

٢ الضرائب : جمع ضريبة وهي السجية والطبيعة .

٣ أبلاد : جمع بلد وهو الدار والأثر .

٤ اكنع : حضر ودنا .

ولئن أحبَّ عددي بني أمية ، فلقد آثر الوليد منهم خاصة ، وأخلص في حبه كثيراً حتى تمنى أن يموت بحياته ، فقال من قصيدة يمدحه بها :

عدنا بذئ العرش أن نحيا ونفقده وأن نكون لراع بعده تبعا^١

ولكن هذه الأمنية لم تتحقق ، فقد توفي الوليد ، وبويع بعده أخوه سليمان ابن عبد الملك ، فاستقدم عدياً وعاتبه على قوله ، ووصله .

واجتمع مرة عنده مع الفرزدق وجريير وكثير .

توفي سليمان وخلفه عمر بن عبد العزيز ، وعددي حي ، فمدحه بقصيدة ستمر بك ، وذكره أيضاً بشعره فقال :

لولا اختياري أبا حفص وطاعته كاد الهوى من غداة البين يعتزم

ولم يذكر صاحب الأغاني^٢ ، ولا ابن عساكر^٣ في التاريخ الكبير ، ولا غيرهما ممن ترجم له خبراً لعددي بعد عمر بن عبد العزيز الذي بويع بالخلافة سنة تسع وتسعين وتوفي سنة إحدى ومائة ، فلا يبعد أن يكون عددي توفي في خلافته .

وكأن تقدمه عند بني أمية أثار حسد الشعراء له ، فقد تعرض له جريير في مجلس الوليد بن عبد الملك فناقضه عددي ، ثم لم تتم بينهما مهاجاة لأن الوليد منع جريراً من هجائه ، فهاجاه جريير تعريضاً ولم يصرح باسمه خوفاً من الوليد .

١ التبع : التابع يقع على الواحد .

٢ صاحب الأغاني : علي بن الحسين بن أحمد القرشي الأموي ، كان عالماً بأيام الناس والأنساب والسير ، وله شعر حسن ، من مصنفاته كتاب الأغاني وهو من أمهات كتب الأدب وأجلها .

٣ ابن عساكر : علي بن الحسن بن هبة الله بن عبد الله الشافعي الدمشقي ، كان محدث الديار الشامية ، له مؤلفات جليلة من أهمها تاريخ دمشق الكبير .

وهجاه الراعي ، فرد عليه عدي ، وكان كثير يبغضه ، لأنه كان يبلغه
عن عدي أنه يطعن على شعره .

وكان له بنت شاعرة ، اسمها سلمى ، فأتاه ناس من الشعراء ليماتنوه
وكان غائباً ، فسمعت بنته وهي صغيرة ، فخرجت إليهم وقالت :
تجمعتم من كل أوب وبلدة على واحد لازلتم قرن واحد

فأفحمتهم ، ويستدل من كنيته على أنه كان له ابن اسمه داود ، وسماه
بعضهم داود ، ولا نعرف من خبره شيئاً .

كما أن قوله : (فداؤك أمي وأبناؤها) .

ينبئ أن له إخوة خفيت علينا أسماؤهم .

وله ديوان شعر ولكنه مفقود ، ذكره ابن النديم في كتاب الفهرست .

صفته وأخلاقه

لم ينصّ أحد ممن ذكر ابن الرقاع على شيء من صفته ، غير ابن عساكر ،
فقد ذكر أنه كان أبرص . ويصفه لنا عبید الراعي الشاعر بأنه قصير أوقص

لذا يهجو به بقوله :

جنادف^١ لاحق^٢ بالرأس منكبه كأنه كودن^٣ يوشي بكنلاب
من معشر كحلت^٤ باللؤم أعينهم قفد^٥ الأكف^٦ لثام غير صيآب

١ جنادف : الجندف القصير الملرز .

٢ كودن : البرذون الهجين .

٣ قفد : الكز اليبدين .

والله يعلم مبلغ هذه الصورة من الصحة . على أن بعض أخباره التي
أوردها صاحب الأغاني وابن عساكر مع البقية الباقية من شعره ، يمكن أن
تصف لنا شيئاً من نفسه وأخلاقه .

كان عدي يفخر بما يفخر به فتیان العرب ، الحب والشجاعة والفصاحة ،
وفي ذلك يقول :

فلقد ثبتت يد الفتاة وسادة لي جاعلاً يسرى يدي وسادها
وأصاحب الجيش العرمم فارساً في الخيل أشهد كرها وطرادها
وقصيدة قد بت أجمع بينها حتى أقوم ميلها وسنادها

وكان وفيّاً لأصحابه في سرّاتهم وضرّاتهم ، لا ينحرف عنهم بانحراف
الزمان والسلطان . عزل الوليد بن عبد الملك عبيدة بن عبد الرحمن عن الأردن
وضربه وحلقه وأقامه للناس ، وقال للمتوكلين به من أتاه متوجعاً وأنى عليه
فأتوني به ، فأتى عدي بن الرقاع وكان عبيدة إليه محسناً ، فوقف عليه وأنشأ يقول :

فما عزلوك مسبوقاً ولسكن^و إلى الخيرات سبباً جوادا
وكنت أخي وما ولدتك أُمي وصولاً باذلاً لي مستزادا
وقد هيضت لنكبتك القدامى^١ كذلك الله يفعل ما أرادا

فوثب المتوكلون به إليه ، فأدخلوه إلى الوليد وأخبروه بما جرى ، فتغيظ
عليه الوليد ، وقال له أتمدح رجلاً قد فعلت به ما فعلت ؟ فقال يا أمير المؤمنين
إنه كان إليّ محسناً ، ولي مؤثراً ، وبني برّاً ؛ ففي أي وقت كنت أكافئه
بعد هذا اليوم ، فقال صدقت وكرمت ، فقد عفوت عنك وعنه ، لك فخذ
وانصرف ؛ فانصرف به إلى منزله .

١ القدامى : عشر ريشات في مقدم الجناح وهي كبار الريش .

وكان شديد العارضة^١ حاضر الجواب ؛ دخل جرير على الوليد بن عبد الملك وعنده عدي بن الرقاع ، فقال له الوليد أتعرف هذا ؟ قال لا يا أمير المؤمنين فمن هو ؟ قال هذا عدي بن الرقاع ، قال جرير : فشر الثياب الرقاع فممن هو ؟ قال من عاملة ، قال جرير : أمن التي قال الله تعالى فيها ﴿ عاملة ناصبة تصلى ناراً حامية ﴾ ثم قال :

يقصر باع العاملي عن الندى ولكن . . . العاملي طويل

فقال له عدي :

أمك كانت أخبرتك بطولها أم أنت امرؤ لم تدر كيف تقول

فقال جرير : لا بل أدري كيف أقول ؛ فقال الوليد والله ليركبنك شاعرنا ومادحنا والرائي لأمواتنا ، تقول هذه المقالة ؟ والله لئن هجوته لأفعلن ولأفعلن فلم يصرح جرير بهجائه ، وعرض به في قصيدته التي أولها :

حي الهدملة من ذات المواعيس

وقال فيها يعرض به :

أقصر فإن نزاراً لن يفأخرهم^٢ فرع^٣ لثيم^٤ وأصل غير مغروس
وابن اللبون إذا ما لُزَّ في قرن لم يستطع صولة البزل^٥ القناعيس^٦
قد جربت عركتي في كل معترك غلب الأسود فما بال الضغابيس^٧

وكان عدي قد مدح الوليد بن عبد الملك بقوله :

١ العارضة : البديهة وقيل الصرامة .

٢ البزل : جمع بازل وهو البعير في السنة التاسعة .

٣ القناعيس : جمع قنعاس وهو الرجل الشديد المنيع .

٤ الضغابيس : ولد الثعلب ؛ الضعاف من الرجال .

عذنا بذى العرش أن نحيا ونفقده وأن نكون لراع بعده تبعا
فلما توفي الوليد وبويع بالخلافة لسليمان بن عبد الملك ، استدعى عدياً ،
فلما دخل عليه ، قال إن كنت لكارهاً لخلافتي ؛ قال وكيف ذلك يا أمير
المؤمنين ؟ قال حين تقول في مدحة الوليد :

عُذنا بذى العرش أن نبقي ونفقده وأن نكون لراعٍ بعده تبعا
قال ابن الرقاع : والله ما هكذا قلت يا أمير المؤمنين ، ولكني قلت :
عُذنا بذى العرش أن نبقي ونفقدهم وأن نكون لراعٍ بعدهم تبعا
قال أو كذلك ؟ قال نعم ؛ فوصله وأذن له بالانصراف .

ومن شعره ما يدل على أنه كان تياهاً كثير الإعجاب والذهاب بنفسه ؛
قال من قصيدة :

وعلمتُ حتى ما أسائل واحداً عن عِلْمٍ واحداً لكي أزدادها

واتفق أن عدياً ، لما أنشد الوليد بن عبد الملك القصيدة التي منها هذا
البيت ، كان عنده كثير ؛ فلما أنشد هذا البيت قال كثير : كذبت وربّ
البيت الحرام ، فليمتحنك أمير المؤمنين بأن يسألك عن صغار الأمور دون
كبارها حتى يتبين جهلك ، وما كنت قط أحقق منك الآن حيث تظن هذا
بنفسك ؛ فضحك الوليد ومن حضر .

وروي عن محمد بن المنجم أنه قال : ما أحد ذكر لي فأحببت أن أراه ،
فإذا رأيته أمرت بصفعه الا عدي بن الرقاع ، قيل ولم ذلك ؟ قال لقوله :
وعلمت حتى ما أسائل واحداً عن علم واحداً لكي أزدادها

فكنت أعرض عليه أصناف العلوم ، فكلما مرّ به شيء ولا يحسنه أمرت

بصفحه . (أقول سامح الله ابن المنجم ، لقد أنكر على ابن الرقاع دعواه وادعى أعظم منها) .

وقد سمي جرير عدياً الشاعر المغرور حين عرض به فقال :

إني إذا الشاعر المغرور جرّني جارا لقبري على مرّان^١ مرموس^٢

ولكن عدياً مع هذا الإعجاب بنفسه لم يقوَ على مصالوة جرير ، بل خافه ، فقد روي أنه لما اجتمع بجرير عند الوليد بن الملك وهدده جرير بالهجماء وثب عدي إلى رجل الوليد فقبلها وقال أجرتني منه .

وإذا صحّ أن تكون الصفات التي ينعت بها الشاعر نفسه دليلاً على أخلاقه جاز لنا أن نقول إن عدياً كان جليلاً لا يتضعع لريب الدهر لقوله :

ونكبة لو رمى الرامي بها حجراً أصمّ من يابس الصّوان لانصدعا
أنت عليّ فلم أنزع لها سلمي ولا استكنت لها شكوى ولا جزعا

وإنه كان حمولاً على نفسه غير سؤال لقوله :

حملت نفسي على أمرٍ وقلت لها إن السؤال على الحالين مملول

وإنه يتكرم في بؤسه ويوجد في نعيمه لقوله :

فسترت عيب معيشتي بتكرم وأتيت في سعة النعيم سدادها

ومهما يكن من مبالغة في هذه الصفات ، فإنها تضرب بعرق إلى الحقيقة في نفس الشاعر .

أما هواه السياسي ، فقد كان مع بني أمية ، كما تقدم ذكر ذلك في حياته .

١ مران : موقع بالقرب من دمشق على تل مشرف على مزارع الزعفران .

٢ مرموس : مدفون .

إيثار بني أمية له

تزوج عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك أم حكيم في حياة جده عبد الملك ، فلما عقد النكاح بينهما ، عقد في مجلس عبد الملك ، وأمر بإدخال الشعراء ليهنئوهم بالعقد ، ويقولوا في ذلك أشعاراً يرويها الناس ، فاختير منهم جرير وعدي بن الرقاع ، فدخلوا وبدأ عدي لموضعه منهم فقال :

قمرُ السماءِ وشمسها اجتمعا بالسعدِ ما غابا وما طلعا
ما وارتِ الأستارُ مثلهما ممن رأى هذا ومن سمعا
دام السرورُ له بها ولها وتهنيا طولَ الحِيساءِ معا

وقال جرير أبياتاً أولها :

جمع الأمير إليه أكرم حرة في كل ما حبال من الأحوال
فأمر له عبد الملك بعشرة آلاف درهم ولعدي بمثلها .

ابن الرقاع والأحوص وابن سريج

قال صاحب الأغاني : كان الوليد بن عبد الملك ، أمر بإحضار الأحوص ابن محمد الأنصاري وعدي بن الرقاع العاملي ، فلما قدما عليه أمر بإنزالهما حيث ابن سريج ، فأنزلا منزلاً إلى جنب ابن سريج ، فقالا : والله لقرب أمير

١ الأحوص : الأحوص بن محمد الأنصاري ، لقب بالأحوص لضيق في مؤخر عينه ، كان شاعراً غزلاً هجاء ، عاصر جريراً والفرزدق ، وكان حماد الراوية يقدمه في النسب على شعراء عصره .

المؤمنين كان أحب إلينا من قربك يا مولى بني نوفل ، وان في قربك لما يلذنا ويشغلنا عن كثير مما نريد ؛ فقال لهما ابن سريج : أو قلة شكر ؟ فقال له عدي : كأنك يا ابن اللخناء تمن علينا ، عليّ وعليّ ، إن جمعنا وإياك سقف بيت أو صحن دار إلا عند أمير المؤمنين .

وأما الأحوص فقال أولاً تحتل لأبي يحيى الزلة والهفوة ، كفارة يمين خير من عدم المحبة ، وإعطاء النفس سؤالها خير من بلجج في غير منفعة^١ . فتحول عدي ، وبقي عنده الأحوص ؛ وبلغ الوليد ما جرى بينهم ، فدعا ابن سريج وأدخله بيتاً وأرخصى دونه سترأ ، ثم أمره إذا فرغ الأحوص وعدي من كلمتيهما أن يغنى ، فلما دخلا وأنشدها مدائح فيه ، رفع ابن سريج صوته من حيث لا يروونه وضرب بعوده ، فقال عدي يا أمير المؤمنين أتأذن لي أن أتكلم ؟ فقال : قل يا عاملي ؛ قال : أمثل هذا عند أمير المؤمنين ، ويبعث إلى ابن سريج يتخطى به رقاب قريش والعرب من تهامة إلى الشام ، ترفعه أرض ، وتخفضه أخرى ، فيقال من هذا ؟ فيقال عبيد بن سريج مولى بني نوفل ، بعث أمير المؤمنين إليه ليسمع غناؤه ؟ . فقال ويحك يا عدي أولاً تعرف هذا الصوت ؟ قال لا والله ما سمعته قط ، ولا سمعت مثله حسناً ، ولولا أنه في مجلس أمير المؤمنين ، لقلت طائفة من الجن يتغنون ؛ فقال اخرج عليهم ، فخرج ، فإذا ابن سريج ، فقال عدي : حقاً لهذا أن يحمل ! حقاً لهذا أن يحمل - ثلاثاً - . ثم أمر لهما الوليد بمثل ما أمر به لابن سريج وارتحل القوم .

١ ابن سريج : هو عبد الله بن سريج ، وكنيته أبو يحيى ، كان من أحسن الناس غناء ، وهو أول من ضرب بالعود على الغناء العربي بمكة ، وكان يقال ما خلق الله تعالى بعد داود (ع) أحسن صوتاً منه .

إعجاب عددي بشعر سعيد بن عبد الرحمن بن حسان

قال صاحب الأغاني : قال رجل من الأنصار لعددي بن الرقاع اكتب لي شيئاً من شعرك ؛ قال ومن أي العرب أنت ؟ قال أنا رجل من الأنصار ؛ قال ومن منكم القائل :

إنَّ الحَمَامَ إلى الحِجَاز يهيج لي طرباً ترنمهُ إذا يترنمُ
والبرق حين أشيمه^١ متيامناً^٢ وجنائب الأرواح حين تنسم

فقال له سعيد بن عبد الرحمن بن حسان بن ثابت ؛ فقال عليكم بصاحبكم ، فاكتب شعره فلست تحتاج معه إلى غيره .

تعصب جرير على عددي

قال صاحب الأغاني : ذُكر كُثيّر وعددي بن الرقاع العاملي في مجلس بعض خلفاء بني أمية ، فامتروا^٣ فيهما أيهما أشعر . وفي المجلس جرير ، فقال جرير : قال كُثيّر بيتاً هو أشهر وأعرف في الناس من عددي بن الرقاع نفسه ثم أنشد قول كُثيّر :

إن زماً إجمالاً وفارق جيرة وصاح غرابُ البينِ أنت حزينُ

فحلف الخليفة ، لئن كان عددي بن الرقاع أعرف في الناس من بيت كُثيّر ، ليسرجن جريراً وليلجمنه وليركبن عددي بن الرقاع على ظهره ؛ فكتب إلى واليه بالمدينة ، إذا فرغت من خطبتك ، فسل الناس من الذي يقول :

١ شام : نظر إليه .

٢ تيامن : أخذ ناحية اليمن .

٣ امترى : شك .

إن زم إجمال وفارق جيرة وصاح غراب البين أنت حزين

وعن نسب ابن الرقاع ، فلما فرغ الوالي من خطبته ، قال : إن أمير المؤمنين كتب إليّ أن أسألكم من الذي يقول : « إن زم إجمال وفارق جيرة » . فابتدروا من كل وجه يقولون : كُشَيَّرَ كُشَيَّرَ ؛ ثم قال وأمرني أن أسأل عن نسب ابن الرقاع ، فقالوا لا ندرى ، حتى قام أعرابي من مؤخر المسجد فقال هو من عاملة .

أقول لو فرضنا صحة هذه الرواية ، لما كسب كُشَيَّرَ ، ولما خسر عدي لأن كُشَيَّراً حجازي والمسؤولون من أهل الحجاز ، وهم أروى لشعر شاعرهم ، وعدي شامي فضلاً عن أن نسبة بيت من الشعر إلى صاحبه أسهل من حفظ نسب الشاعر .

تذبذب^١ عدي

قال صاحب الأغاني : مال روح بن زنباع الجذامي إلى يزيد بن معاوية لما فصل بين الخطبتين ، فقال : يا أمير المؤمنين ، ألحقنا بإخوتنا من معد ، فإننا معديون والله ما نحن من قصب الشام ، ولا من زعاف اليمن ، فقال يزيد : إن أجمع قومك على ذلك جعلناك حيث شئت ، فبلغ ذلك عدي بن الرقاع فقال :

إننا رضينا وإن غابت جماعتنا ما قال سيدنا روح بن زنباع
يرعى ثمانين ألفاً كان مثلهم مما يخالف أحياناً على الراعي

فبلغ ذلك نائل بن قيس الجذامي ، فجاء يركض فرسه حتى دخل المقصورة

١ تذبذب : حار وتردد .

في الجمعة الثانية ، فلما قام يزيد على المنبر ، وثب فقال أين الغادر الكاذب روح بن زنباع فأشاروا إلى مجلسه ، فأقبل عليه وعلى يزيد ، ثم قال يا أمير المؤمنين ، قد بلغني ما قال لك هذا ، وما نعرف شيئاً منه ، ولا نقرّبه ، ولكننا قوم من قحطان يسعنا ما يسعهم ، ويعجز عنا ما يعجز عنهم فأمسك روح ورجع عن رأيه ، فقال عدي بن الرقاع في ذلك :

أضلال ليل ساقط أكنسافه في الناس أعذر أم ضلال نهار
قحطان والدنسا الذي ندعى له وأبو خزيمة خندق بن نزار
أنبيع والدنا الذي ندعى له بأبي معاشر غائب متوار
تلك التجارة لا زكاء لمثلها ذهب يباع بسانك^١ وأبصار^٢

فقال له يزيد عبرت يا ابن الرقاع ، قال إن نائلاً والله أعزهما عليّ سخطاً وأنصحهما لي ولعشيرتي .

عدي والشعراء عند سليمان بن عبد الملك

قال صاحب الأغاني : اجتمع الفرزدق وجريير وكثير وابن الرقاع عند سليمان بن عبد الملك ، فقال انشدونا من فخركم شيئاً حسناً ، فبدرهم الفرزدق فقال أبياتاً أولها :

وما قوم إذا العلماء عدت عروق الأكرمين إلى التراب

فقال سليمان : لا تنطقوا فوالله ما ترك لكم مقالا .

١ آنك : الرصاص .

٢ أبار : جمع أبرة .

شعره

عاصر عدي بن الرقاع سبعة خلفاء من بني أمية ، وكان مقدماً عندهم ، لأن مذهبه السياسي أموي ، ولا عمل له غير الشعر ؛ وقد حدث في زمانهم من الأحداث ما يبعث الشعر في نفس عدي ، فمن المفروض أن يكون قال كثيراً من الشعر .

وقد ذكر له ابن النديم^١ في كتاب الفهرست ديواناً . ولكن الزمان لم يبق من شعره إلا مقداراً يسيراً مشتتاً في كتب اللغة والأدب والتاريخ وتقييم البلدان ، من ذلك أبيات قالها في الواقعة التي ظفر بها عبد الملك بن مروان وانتهت بقتل مصعب بن الزبير وثلاث قصائد مدح بها الوليد بن عبد الملك وقصيدة مدح بها عمر بن عبد العزيز وبقايا قصائد ومقطوعات وأبيات في معانٍ مختلفة كالوصف والغزل والأدب والفخر والمدح والهجاء والتهنئة ؛ وكلها لا تبلغ أربعمائة بيت ؛ وهو مقدار يسير لا يعطينا عن الشاعر صورة تامة واضحة ، ولكننا نحاول أن ندرس هذه البقية من شعره إلى أن يجود الزمان بما ضمن به علينا .

عدي بن الرقاع شاعر إسلامي ، والشعراء الإسلاميون عامة كالفرزدق وجريير والأخطل وكثير وجميل والراعي وذو الرمة ونصيب والقطامي ؛ وعدي واحد منهم ، أعذب لغة وأحسن ديباجة وأكثر طلاوة من شعراء الجاهلية وذلك لتأثرهم بلغة القرآن وحسن انسجامه وسمو أسلوبه ، دع ما

١ ابن النديم : أبو الفرج محمد بن إسحق ، كان شيعياً معتزلاً ، واسع الاطلاع ، ثقة صادق التحري ، ومن مؤلفاته كتاب الفهرست وهو من أقدم كتب التراجم .

انفسح أمامهم من ميادين الحياة الإسلامية في مثلها العليا من دين وملك لم
يكونا في أيام الجاهلية .

وربما كان عدي من أكثر هؤلاء الشعراء انسجاماً وثقيفاً لشعره ،
وتهذيباً لقوافيه وهو الذي يخبرنا كيف كان يحبر قصائده ويصقلها ويعود
عليها بالتهذيب إذ يقول :

وقصيدةٍ قد بتُّ أجمع بينها حتى أقوم ميسلها وسنادها^١
نظر المثقف في كعوب قناته حتى يقيم ثقافه^٢ منادها^٣

وهو في فنة صانع ماهر لا يكره الشعر إكراهاً ولا يقتسر القوافي غصباً
ولقد أتيج له من بارع الأبيات في انسجامها ما ذهب مثلاً كقوله :

صلى الإله على امرئٍ ودعته وأتمَّ نعمته عليه وزادها

فلقد صار عجز هذا البيت رسماً من رسوم الكتاب في رسائلهم ، قال
أبو هلال العسكري في ديوان المعاني في فصل دعاء المكاتبه : (فأما قولهم
وأتمَّ نعمته عليه وزاد في إحسانه إليه) فمن قول عدي بن الرقاع :

صلى الإله على امرئٍ ودعته وأتمَّ نعمته عليه وزادها

وكقوله :

فلو قبل مبكاها بكيت صباية بسعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلي فهيتج لي البكا بكاها فقلت : الفضل للمتقدم

١ السناد : كل عيب يوجد في القافية قبل الروي .

٢ الثقاف : آلة من خشب تسوى بها الرماح .

٣ المناد : المعوج .

وكم تمثل الناس بهذين البيتين .

قالوا إن عدياً من حاضرة الشعراء لا من باديتهم وإنه كان أثيراً مقدماً
عند بني أمية ، ومعنى ذلك أنه من دعاة سياستهم لا من الشعراء الذين يبيعون
الشعر بيعاً .

فهل لذلك أثر في شعره ؟ نعم إن اطراد شعره وتساوق أبياته وتلاحمها
وتهذيب قوافيه ، وحسن صياغته وما في تشبيهاته من معان حضرية وما في
قصائده من ماء وظل ونعيم كقوله :

فقد أبيت أراعي الخود^١ راقدةً على الوسائد مسروراً بها ولعا

وقوله :

ومما شجاني أنني كنت نائماً أعلل من برد السكرى بالتنسم
إلى أن بكت ورقاء في غصن أيكة تردد مبكاها بحسن الترنم

أثر من آثار نعيم العيش ورفاهته ، فإن شعراء البادية يتوسدون في باديتهم
أعضاء المطايا وعدي يراعي الخود على الوسائد ويعلل^٢ في ظل الأيك بدمشق
بنوم هنيء ترنم من فوقه الحمام .

على أن حسن تأتبه^٣ في مدحه لبني أمية خلفائهم وأمرائهم أدل على
لباقته وتحضره ، فهو شاعر مجيد من شعراء القصور يحسن القيام برسوم الخلفاء
والأمراء في مخاطبتهم على الوجه الأكمل ، ويمدحهم بما هو أشبه بالدعوة

١ الخود : الفتاة الناعمة .

٢ تعلل : تروح .

٣ التأي : الترفق .

السياسية ، ويضفي عليهم رداء الجلال والعظمة ، فاسمعه يقول في مدح الوليد بن عبد الملك :

صلى الذي الصلواتُ الطيباتُ له
على الذي سبق الأقسام ضاحية
هو الذي جمع الرحمنُ أمته
عذنا بذى العرش أن نحيا ونفقده
والمؤمنون إذا ما جمعوا الجمعا
بالأجر والحمد حتى صاحباه معا
على يديه وكانوا قبله شيعا
وأن نكون لراعٍ بعده تبعا
ويقول في مدحه أيضاً :

صلى الإله على امرىء ودعته
أولا ترى أن البرية كلَّها
ولقد أراد الله إذ ولَّى لها
أعمرت أرض المسلمين فأقبلت
وأصبت في أرض العدو مصيبةً
ظفراً ونصراً مسا تناول مثله
فإذا نشرت له الثناء وجدته
تأتيه أسلابُ^٢ الأعزة عنوة
وأتمَّ نعمته عليه وزادها
ألقت خزائنها^١ إليه فقادها
من أمة أصلحها ورشادها
وكففت عنها من يروم فسادها
عمت أقاصي غورها ونجادها
أحدٌ من الخلفاء كان أرادها
جمع المسكارم طرفها وتلاذها
قسراً ويجمع للحروب عتساده

فهل ترى نمطاً أليق بمخاطبة الخلفاء من هذا النمط ؟ تحية الخليفة بالصلوة عليه ، وتعظيم للأمر المضطلع به وإشادة بعظائم أعماله في سبيل الأمة وإخلاص في محبته وتأييد للملكه وعرشه ، بل كيف ترى الفرق بين هذا الأسلوب الحضري وبين أسلوب بعض بادية الشعراء الذين اعتادوا أن يصفوا الممدوح بالحية

١ الخزائم : جمع خزيمة وهي المسنة من البقر .

٢ أسلاب : ما أخذ من ثياب وسلاح ودابة .

الذكر ويمدحوه بتأريث النيران وعظم القدور ونحر الجزور ودعوة الجفلى^١ والنداء على الطعام وكثرة الهبات أو أن^٢ يصفوا عناء سفرهم إلى الخليفة وما لاقوه من المشاق ، وما هم عليه وعيالهم الذين خلفوهم وراءهم من الفاقة ليزيد الخليفة في رفدهم .

هذا جرير أطبع أهل زمانه على الشعر لم يستقم له في مدح الخلفاء ذلك الأسلوب الذي استقام لعدي ، فإنه في مدحه لعمر بن عبد العزيز أشبه بالمستجدي منه بالشاعر قال :

إنا لنرجو إذا ما الغيثُ أخلفنا	من الخليفة ما نرجو من المطرِ
أذكرُ الجهد والبلوى التي نزلتُ	أم قد كفاني الذي بُلِّغْتَ من خبري
كم بالمواسم من شعثاءَ أرملةٍ	ومن يتيمٍ ضعيفِ الصوتِ والنظرِ
يدعوك دعوةً ملهوفٍ كأن به	مساً من الجن أو خبلاً من البشرِ
ممن يعدك تكفي ففسد والده	كالفرخ في العش لم يدرج ولم يطر
خليفة الله ماذا تأمرون بنسا	لسنا إليكم ولا في دار منتظر
لتنعث اليوم ريشي ثم تنهضني	وتنزل اليسر مني موضع العسر

وما ذلك إلا لبدأوة جرير وبعده عن حياة الحاضرة على أنه بحر لاساحل له . ولعدي أيضاً أبيات يمدح بها أحد أمراء بني أمية وهو عمر بن الوليد بن عبد الملك تدل على لباقة وحسن تأت ، لوقالها أحد شعراء القصور في هذه الأيام لأثارت إعجاب الناس لما فيها من حذق ولباقة وهي :

وإذا نظرت إلى أميرِ زادني	ضناً به نظري إلى الأمراءِ
تسمو العيونُ إليه حين يرونه	كالبدرِ فرَجَّ بهمةً ^٢ الظلماءِ

١ الجفلى : الدعوة العامة .

٢ البهمة : الظلمة .

والقومُ أشباهٌ وبين حلومهم^١ بونٌ كسذاك تفاضلُ الأشياء
 كالبرق منه وابل متتابع جود وآخر ما يجود بماء
 والأصل ينبت فرعه متأثلاً^٢ والكفُّ ليس بنانها بسواء
 بل ما رأيت جبال أرض تستوي فيمسا غشيت ولا نجومَ سماء
 والمرء يورث مجده أبناءه ويموت آخر وهو في الأحياء

وفي شعر عدي عدا النعومة الحضرية مفردات ومعان تدل على الحضارة
 كذكر الكتاب والقلم والدواة والبريد والتجار منها قوله :

ترجي أغن كأن إبرة روقة^٣ قلم أصاب من الدواة مسداها
 وقوله :

لمن رسم دار كالكتاب المنمّم بمنعرج الوادي فويق المهزم
 وقوله :

ونحن بأرضٍ قلّ ما يبجشم السرى بها العربيات الحسانُ الحرائرُ
 كثيرٌ بها الأعمداء يحسر دونها بريدُ الإمام المستحثُّ المثابرُ
 وقوله :

مستطير كأنه سابري^٤ عند تجرّه منشّرٍ وملاء

١ الحلوم : العقول .

٢ متأثلاً : متأصلاً ، مثبتاً .

٣ الروق : قرن الغزال .

٤ سابري : ثوب من أجود الثياب .

٥ تجر : جمع تاجر .

على أن أثر البادية ظاهرجلي في شعره أيضاً، فأنت تدرك به روح البادية كما تبصر أفياء الحاضرة ، فتراه يصف المطايا وصفاً يكاد ينفرد به من حيث الدقة والاستقصاء ، كما يصف المفاوز وما فيها من أعلام طامسة وأطلال دارسة ووحوش راتعة ، ولكنه ينتزع لها تشبيهات مما شاهده في الحاضرة بمتانة رصف وقوة أسر وجزالة تركيب ؛ ولعل عدم انقطاعه عن البادية هو الذي كفل لشعره السلامة مما يعترى كثيراً من شعراء الحواضر ، ويسميه النقاد باللين ويعنون به الرقة التي تفضي إلى الاسفاف :

وتجد هذا اللين في شعر عدي بن زيد العبادي وأمية بن ابي الصلت وابن قيس الرقيات والوليد بن يزيد ، وكلهم حضريون .

وهكذا فشعر عدي بن الرقاع بما فيه من روح البادية ورونق الحاضرة عربي في جزالته ورصفه وخياله ومعانيه وتفكيره ونظراته لا تجد فيه أثراً من ثقافة أجنبية شأن جميع الشعراء الإسلاميين لان الحياة بجميع مظاهرها أيام بني أمية كانت عربية إسلامية . لقد أحسن عدي في الوصف ، فإنه وصف الطيف والغيث والبرق والليل والحمر والمطايا والظباء والوحوش في حركاتها ومثيره من الغبار في عدوها، وأكثر إحسانه في وصف الإبل والخيل والوحش قال :

يخرجن من فرجات النقع دامية كأن آذانها أطراف أقلام

قال صاحب الأغاني : قال عبد الله بن مسلم :

(ومما ينفرد به عدي ويقدم فيه وصف المطية فإنه كان من أوصاف الشعراء لها).

وقال ابن قتيبة^١ : (عدي أحسن من وصف الظبية وولدها .) .

١ ابن قتيبة : عبد الله بن مسلم بن أئمة الأدب ومن المصنفين المكثرين ، ولد في بغداد وتوفي بها سنة ٢٧٦ ، من كتبه أدب الكاتب وعيون الأخبار والشعر والشعراء .

وقال جرير : (سمعت عدي بن الرقاع ينشد الوليد بن عبد الملك قصيدة أولها :

• عرف الديار توهماً فاعتادها •

فحسدته على أبيات منها حتى أنشد في ظبية والغزال .

• تزجي أغن كأن إبرة روقه •

فرحمته من هذا التشبيه وقلت بأي شيء يشبهه ترى ؟ فلما قال :

• قلم أصاب من الدواة مدادها •

رحمت نفسي منه وحالت الرحمة حسداً .)

وقال أبو هلال العسكري في ديوان المعاني : (وأما قول عدي في صفة قرن الظبي فليس له شبيهه .)

ولم يقل أحد كما قال عدي يصف حمامي الوحش في عدوهما وما يثيرانه من الغبار :

يتعاونان من الغبار ملاءةً غرباء محكمةً هما نسجاها
تطوى إذا علوا مكاناً جاسياً^١ وإذا السنايك أسهلت نشرها

وإلى ذلك أشار أبو تمام الطائي بقوله :

تثير عجاجة في كل أرض يهيم بها عدي بن الرقاع

قال أبو هلال العسكري في ديوان المعاني بعد أن أورد بيتي عدي :

(لا أعرف في صفة الغبار أحسن ولا أتم من هذا .)

١ الجاسي : اليابس ، الصلب .

وعدي في غزله محسن رقيق عذب يغلب عليه الوصف الدقيق في المعاني
الغزلية ، من ذلك وصف تفتير العينين ولم يقل أحد مثله . قال نوح بن جرير
لأبيه : يا أبت من أنسب الشعراء ؟ قال أتعني ما قلت ! قال إني لست أريد
من شعرك ، إنما أريد من شعر غيرك ؛ قال ابن الرقاع في قوله :

لولا الحياء وأن رأسي قد عسا^١ فيه المشيب لزرتُ أم القاسم
وكأنها بين النساء أعارها عينيه أحوراً من جآذر جاسم
وسنان أقصده النعاس^٢ فرنقت^٢ في عينه سنة^٣ وليس بنائم

ثم قال لي ما كان ببالي إن لم يقل بعدها شيئاً .

وهذه الأبيات مما يتغنى به ؛ قال محمد بن عباد : كنت عند أبي عمرو
وعنده رجل أعرابي ، كأنه مدني فقراءت عليه أبيات عدي : « لولا الحياء وأن رأسي
قد عسا » ؛ فقال أبو عمرو أحسن والله ، فقال الأعرابي أما والله لو رأيته
مشبوحاً بين أربعة وقضبان الدفلى تأخذه لكننت له أشد استحساناً يعني إذا
كان يغني على العود .

وقال القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني في كتاب الوساطة : (. . .)
وأما قول عدي « وسنان أقصده النعاس فرنقت . . . » فقد زاد به على كل
من تقدم وسبق بفضلته جميع من تأخر ولو قلت اقتطع هذا المعنى فصار له
وخطر على الشعراء ادعاء الشرك فيه لما أراني بعدت عن الحق ولا جانبت
الصدق) .

١ عسا : اشتد فيه .

٢ رنق : خالط .

٣ سنة : النوم .

وقال أبو هلال العسكري في ديوان المعاني : (قال أبو عمرو لأصحابه :
ما أحسن ما قيل في العيون ؟ قال بعضهم قول جرير :

إنَّ العيونَ التي في طرفها حَوْرٌ قتلنا ثم لم يحيين قتلانا
يصرعنَ ذا اللبِّ حتى لاحرك به وهنَّ أضعفُ خلقِ اللهِ أركانا
وقال آخر قول ذي الرمة :

وعينان قال اللهُ كونا فكانتا فعولانِ بالألبابِ ما تفعلُ الحمرُ
وقال آخر بل قوله :

يذكرني مَيَّآ من الظبي عينهُ مراراً وفاها الأحقوانُ المنورُ
فقال أبو عمرو أحسن من هذا كله قول عدي بن الرقاع :

وكأنها بين النساءِ أعارها عينيه أهورُ من جاذرِ جاسمِ
وسنان أقصده^١ النعاسُ فرنقتُ في عينه سنَّةٌ وليس بنائم
ومن غزل عدي العذب قوله :

صادتكَ أختُ بني لؤيٍّ إذ رمتُ وأصاب سهمك إذ رميت سواها
وأعارها الحدثانُ^٢ منك مودَّةٌ وأعير غيرك ودَّها وهواها
بيضاء تستلبُ الرجالَ عقولهمْ عظمتُ روادفُها^٣ ودقَّ حشاها
ياشوقُ ما بك يوم بان حدوجهمْ^٤ من ذي (الموقع) غدوة فرآها
وقوله :

١ أقصد : أصاب فقتل مكانه .

٢ الحدثان : نواذب الدهر .

٣ الروادف : جمع ردف وهو الكفل ؛ والعجز .

٤ الحدوج : جمع حدج وهو مركب من مراكب النساء .

ونبه شوقي بعد ما كان نائماً هتوف الضحى مشغوفة^١ بالترنم
بكت شجوها عند الضحى فتساجمت^١ إليها دموع العين من كل مسجم^٢
فلو قبل مبكاها بكيت صباية^٣ بسعدى شفيت النفس قبل التندم
ولكن بكت قبلي فهيتج لي البكا بكاها فقلت : الفضل للمتقدم

ولعدي نظرات في الأدب والحكمة ، تغلب عليها السذاجة العربية ،
زين بها بعض قصائده في مناسبات شتى كالأبيات التي مدح بها عمر بن الوليد
ابن عبد الملك ، وقد سبق لإيرادها ، وغيرها كقوله :

أخبر النفس إنما الناس كالعيه دان من بين نابت وهشيم
وقوله :

والدهر يفرق بين كل جماعة ويلف بين تباعد وتناء
وقوله :

والدهر ليس وإن طالت معيشته^٣ يلقي الذي هو لاق قبل أن يقعا
وقوله :

إني إذا ما لم تصلي خلتي^٣ وتباعدت عني اغتفرت بعادها
ومن المعاني التي نظم بها عدي ، التهنية حين هنا مع جرير عبد العزيز بن
الوليد بزواجه كما ذكرنا ذلك في أخبار عدي؛ والتهنية من المعاني الإسلامية ،
لم يرو لشعراء الجاهلية شيء منها .

١ تساجم : سال قليلا أو كثيراً .

٢ مسجم : المكان الذي يسيل منه الدمع .

٣ الخلة : الزوجة .

أثر الشام في شعر عدي

الشعر العربي ابن البادية تعبق منه رائحة الشيخ والقيصوم في بوادي الحجاز ونجد ، وهضاب اليمن وظلال الشام ، وشواطئ دجلة وسقي الفرات . والشاعر العربي لعهد عدي يعتد روح البادية عمود الشعر وقوامه ، ولكن بالرغم من ذلك فإن أثر البادية واضح جلي في شعر عدي ؛ فلقد ذكر مدن الشام وحواضرها وقرائها وباديتها ، كما ذكر آرامها ووحوشها وطيورها ، مثل حمص^١ وخنصرة^٢ والأحص^٣ وجاسم^٤ والمرج^٥ والمناظر^٦ وأزرق^٧ واعماق^٨ وفلسطين وبيت راس^٩ والأردن والغريفة وغيرها .

وطبيعة الشام المنسجمة في أرضها وسماؤها ، وما في دمشق يومئذ من جلال الخلافة وعظمة الملك أوحى إلى عدي كثيراً من ذلك الانسجام واللباقة والتثقيف في شعره ، حتى صار يعتد ذلك فناً خاصاً بالشاميين لا يجيده غيرهم . ولذلك فقد كان عدي ينتقد كثير عزة ويغمزه ويطعن على شعره ويقول :

- ١ حمص : مدينة معروفة في البلاد السورية تبعد عن دمشق مقدار ١٦٤ كيلومتر تقريباً .
- ٢ خنصرة : بلدية من أعمال حلب تحاذي قنسرين نحو البادية .
- ٣ الأحص : قرب حلب العاصمة الثانية لسورية بعد دمشق .
- ٤ جاسم : قرية في حوران ولد بها الشاعر أبو تمام الطائي .
- ٥ المرج : قرب غوطة دمشق وهو أشهر المروج في الشعر وإذا قالوه مفرداً فإياه يعنون .
- ٦ المناظر : موضع في البرية الشامية قرب عرض وقرب هيت .
- ٧ أزرق : وادي الأزرق بالحجاز ، والأزرق ماء في طريق حاج الشام دون تيماء .
- ٨ اعماق : اسم واد .
- ٩ بيت راس : من قرى دمشق في الغوطة قريبة من قرية ببيلا .

(هذا شعر حجازي مقرر ، إذا أصابه قر الشام جمده وهلك) . وهكذا
فعدي ، فخور بعربيته وشاميته ، معترف بما توحيه طبيعة الشام الساحرة إلى
الشاعر العربي حتى يرى نفسه فوق شعراء العربية .

ولقد وجد عدي في بادية الشام مجالاً لرياضة الشعر على النحو الجاهلي
في بوادي نجد والحجاز فاعتسف مفاوزها ووقف على الرسوم وبكى الأطلال
ووصف الآل وحن إلى آكامها وداراتها وربوعها وشبب بغزلانها واهتاج
للمع بروقها .

وهذه أمثلة من شعره يلوح عليها الطابع الشامي :

قال :

منعوا الثغرة التي بين حمص والكهاتين ليس فيها عريب

وقال :

وإذا الربيع تتابعت أنواؤه فسقى خناصرة الأحص فجادها

وقال :

وكأنها بين النساء أعسارها عينيه أهوراً من جآذر جاسم

والغريب أن القاضي علي بن عبد العزيز الجرجاني صاحب كتاب الوساطة
على نفوذ بصره وصحة أحكامه في النقد ، أساء فهم هذا البيت فظن أن ذكر
جاسم من حشو الكلام ، لا فائدة في ذكره ؛ فقال بعد أن قرظ البيت :
« قد رأيت ظباء جاسم فلم أرها إلاّ كغيرها من الظباء ، وقد يختلف خلق
الظباء وألوانها باختلاف المنشأ والمرتع وأما العيون فقل أن تختلف لذلك » :
وفاته أن عدياً شامي ، وجاسم من قرى الشام ، فلجآذرها منزل في قلبه ،
وحسن في نظره فوق غيرها من الظباء .

ومن شعر عدي المطبوع بالطابع الشامي قوله :

فكأنني من ذكركم خالطني من (فلسطين) جلس خمر عقرار
عُتِّقْتُ في الدنان^١ من بيت راس سنوات وما سبتها^٢ التجار
وقوله :

حتى وردن من الأزارق منهلاً^٣ وله على آثارهن سحيل^٤
وقوله :

فَدَرُّ ذَا وَلَكِنْ هَلْ تَرَى ضَوْءَ بَارِقٍ وَمِيضًا تَرَى مِنْهُ عَلَى بَعْدِهِ لِمَا
تَصْعَدُ فِي ذَاتِ الْأَرَانِبِ مُوهِنًا^٥ إِذَا هَزَّ رَعْدًا خَلَّتْ فِي وَدْقِهِ شَفْعًا^٦
إلى ما يشابه هذه الأبيات في شعره . وهناك أبيات يلم فيها بالأحداث
السياسية التي جرت في الشام كوقعة مرج راهط التي كانت بين مروان بن
الحكم والضحاك بن قيس سنة أربع وستين ، وما كان من بلاء أهل الأردن
الحسن مع مروان حتى قتل الضحاك وتم الأمر لمروان قال :
لولا الإله وأهل الأردن اقتسمت نار الجمعة يوم المرج نيرانا
وكانتصار مسامة بن عبد الملك على الروم سنة سبع وثمانين عند طوانة قال :
وكان أمرك من أهل الطوانة من نصر الذي فوقنا والله أعطانا
أمرأ شددت بإذن الله عقدته فزاد في ديننا خيراً ودينانا
وكانتصار عبد الملك بن مروان على مصعب بن الزبير وقد سبقت الإشارة
إلى ما قاله في تلك الحادثة .

١ الدنان : جمع دن ، إناء كبير توضع به الخمر .

٢ سبتها : سبا الخمر ، حملها من بلد إلى بلد .

٣ سحيل : من الثياب ما كان غزله طاقاً واحداً ومن الجبال ما يفتل فتلا .

٤ موهناً : في منتصف الليل .

٥ الودق : المطر .

٦ الشفع : الزوج ضد العدد الفرد .

أشلاء ديوانه

ديوان عدي بن الرقاع مفقود ، ولم يبق من شعره إلا القليل ، وهذا القليل غير مجموع في مكان واحد يمكن الرجوع إليه بل هو مبثّر في بطون الكتب لذلك فقد انصرفتُ مدة من الزمن أجمع كل ما عثرت عليه من شعره في كتب الأدب واللغة والتاريخ والتراجم وتقويم البلدان ؛ فقد أجد القصيدة من شعره مفرقة في أمكنة متعددة فأضّم بعضها إلى بعض ، وقد أجد أبياتاً من بحر واحد وقافية واحدة مبثّرة على سبيل الاستشهاد في كتب اللغة وتقويم البلدان كلسان العرب لابن منظور ومعجم البلدان لياقوت فاجتهد في ترتيبها وجعلها قطعة واحدة متتالية بعد التحري والروية .

ولم أجد من شعره قصيدة برمتها في مكان واحد إلا قصيدته الدالية التي مدح بها الوليد بن عبد الملك وأولها :

عرف الديارَ توهماً فاعتادها من بعدٍ ما شملَ البلى أبلادها
وهاك ما جمعته مرتباً على حروف المعجم .

حرف الألف

قال عدي بن الرقاع يمدح عمر بن الوليد بن عبد الملك^١ :

لمن المنازلُ أفقرتُ بغباءٍ لو شئتُ هيسجتُ الغداةَ بكائي
فالغمرُ غمرُ بني جزيمةٍ قد ترى مأهولةً فخلتُ من الأحياءِ
لولا التجلُدُ والتعزي أنه لا قومَ إلاّ عقرهمُ لفناء
ناديتُ أصحابي الذين تسوجهوا ودعوتُ أحرصَ لا يجيبُ ندائي
وفراقُ ذي حسبٍ وروعةٍ فاجعٍ داويتُسهُ بتجميلٍ وعزاءِ
ليرى الرجالُ الكاشحون صلابتي وأكفُ ذلك بعفةٍ وحياءِ
وإذا نظرتُ إلى أميرِي زادني ضناً به نظري إلى الأمراءِ
تسمو العيونُ إليه حين يرونه كالبدري فترجّج بهمةَ الظلماءِ
والقومُ أشباهُ وبين حلومهمُ بونٌ كذاك تفاضلُ الأشياءِ
كالبرق منه وابلٌ متتابعٌ جودٌ وآخرُ ما يبضُ^٢ بماءِ

١ أبيات هذه القصيدة موزعة في معجم البلدان ج ٦ ص ٣٠٤ وحماسة البحرني ص ١٢٨ ،
وعيون الأخبار لابن قتيبة ج ١ ص ٢٣٣ ونهاية الأرب للزويري ج ٣ ص ٧٥ ومجموعة
المعاني ص ١٧٠ ، والتاريخ الكبير لابن عساكر في ترجمة عدي ، ولسان العرب ج ١٢
ص ١٧٧ مادة (فرق) و ج ١٤ ص ١٦٨ مادة (نقل) والبيان والتبيين للجاحظ ج ٢
ص ٢٠٨. كما ورد في حاشية المؤلف الأستاذ خليل مردم بك .

٢ في ابن عساكر (ما يوجد) وبعده : (والدهر يفرق بين كل جماعة)

والأصل ينبت فرعاه متأثلاً^١ والكف ليس بنائها بسواء
بل ما رأيت جبالَ أرضٍ تستوي فيما غشيت ولا نجومَ سماء
والدهر يفرق بين كل جماعة ويلف بين تباعدٍ وتناء
أممٌ تداخلتِ الختوفُ عليهمُ أبوابهمُ فكشفت كلَّ غطاء
فإذا الذي في حصنه متحرز^٢ منهم كآخر مصحر^٣ بفضاء
والمرء يُورثُ مجدهَ أبناءه^٤ ويموتُ آخرُ وهو في الأحياء

وقال وفيها يتغزل ويذكر الوليد بن عبد الملك ويصف عشراً^٥ :

لو ثوى لا يريمها ألفٌ حولٍ لم يطلُ عندها عليه الثواءُ
أهواها يشفه أم أعيرتُ منظرًا غيرَ ما أعير النساء
قد حباني الوليدُ يومَ أسيسٍ بعشارٍ فيها غنى وبهاء
يحسبُ الناظرون ما لم يفروا أنّها جلةٌ وهنّ فتساء^٥
ويكر العبدانُ بالمحلبِ الأجنه في فيها حتى يمجّ السقاء^٦

١ في لسان العرب (متناقلا) بدل (متأثلاً) من تناقل النبت ، التف و صار بعضه أطول من بعض . انظر مادة (نقل) . نقلا عن حاشية خليل مردم بك .

٢ تحرز : تحصن .

٣ أصحر : دخل الصحراء .

٤ أبيات هذه القصيدة موزعة في الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٤٥ ، ومعجم البلدان ج ١ ص ٢٥١ وج ٣ ص ٦٦ وص ١٧٢ وج ٥ ص ١٢٠ وج ٦ ص ٢٦٣ ولسان العرب ج ١٠ ص ٣٧٨ وج ٢٠ ص ٤ . كما ورد في حاشية خليل مردم بك .

٥ فتاء : جمع فتية .

٦ السقاء : جلد السخلة يحمل به الماء واللبن .

كلما ردّ ناشطاً عن هواها شطنت ذات ميعة حقباء^١
بغراب إلى الإلاهة حتى تبعت أمهاتِها الأطلاء^٢
ردني النجمُ واستقلتُ وحرارُ كلَّ يومٍ عشيةً شهباء
فردّ دنَّ بالسماوة حتى كذّبتهنَّ غدرها والنهاء
فألت بندي المويقع لمسا جفَّ عنها مصدعٌ فالنضاء
ثمّ استوسقتُ له فرمته بغبارٍ عليه منه رداء
مستطيرٌ كسأته سابريٌ عند تجرٍ منشرٍ ومساء
دانياتٍ للجسدِ حتى نهاها ناصعٌ من جنوبِ ماءٍ رواء
فشبحنا قناعاً رعتِ الحنة أو جوشٍ فهي قعس نواء

وقال في البرق^٣ :

يا من رأى برقاً أرقّتُ لضوئه أمسى تلاًلاً في حواركه العلى
فأصاب أيمنهُ المزاهرَ كلَّها واقمّ^٤؛ أيسره أئيدة فالخنا
فعظام فالبرقات جاد عليهما وانبت^٥؛ ابطنه البثور به النوى
لما تلجلج بالبياض عماؤه^٦ حول الغريفة كاد يثوي أو ثوى

١ حقباء : المسترقة الطويلة .

٢ الأطلاء : جمع طلي وهو الصغير من أولاد الغنم .

٣ معجم البلدان ج ٣ ص ٢١٦ وج ٦ ص ١٨٦ و ص ٢٨٧ وج ٨ ص ٤٤ نقلا عن حاشية خليل مردم بك .

٤ اقمّ : اشتد قتمه أي سواده .

٥ أنبت : تقول نبث التراب إذا استخرجه من البثر .

٦ العماة : الغنم .

حرف الباء

قال في الوقعة التي كانت بين عبد الملك بن مروان ومصعب بن الزبير^١ .

لعمري لقد أصحرت خيلنا بأكناف دجلة للمصعب
 إذا مسنا منافع أهل العراق عوتب ثمت لم يعتب
 دلفنا إليه بندي تدرلي قليل التفقد للغيب
 يهزون كسل طويل القنا ة لذن ومعتدل الثعلب
 كأن وعاهم إذا ما غدوا ضجيج قطا بلد مخصب
 فقدمنا واضح وجهه كريم الضرائب والمنصب
 أعين بنا ونصرنا به ومن ينصر الله لم يغلب
 فداؤك أمي وأبناؤها وإن شئت زدت عليها أبي
 وما قلتها رهبة إنما يحل العقاب على المذنب

ورد في أنساب الأشراف للبلاذري ج ١١ صفحة ٩ طبعة أوروبا سنة

١٨٨٣ ولعدي بن الرقاع قصيدته التي يقول فيها :

لعمري لقد أصحرت خيلنا بأكناف دجلة للمصعب
 إذا شئت نازلت مستقداً إلى الموت كالجمل الأجر
 فمن يك منا يكن آمنا ومن يك من غيرنا يهرب
 إذا شئت نازلت مستقتلا أراحم كالجمل الأجر
 فمن يك منا يبت آمنا ومن يك من غيرنا يهرب

وروى ابن عساكر هذه الأبيات في التاريخ الكبير كما يأتي :

١ تاريخ الطبري ج ٧ ص ١٨١ والأغاني ج ٨ ص ١٧٢ . عن حاشية خليل مردم بك .

لعمرى لقد أصحرتْ خيلنا بأكنافٍ دجلة للمصعب
 وردنَ العراقَ وخابورَه وكان هما ثقةُ المشرب
 على كلِّ دلوٍ يرى معلماً يصرف كالجمل الأجرَب
 لسافعة الشمس في وجهه شعاع تلاًلاً كالكوكب
 إذا ما منافقُ أهلِ العراقِ عوتب يوماً فلم يعتب
 يؤمُّ بنا واضحٌ وجهه كريمُ المضاربِ والمنصب
 تظللُ القنابلُ^١ يكسونه رواقاً^٢ من النقع لم يطنب
 أعينَ بنا ونُصرنا به ومن ينصرِ الله لا يغلب

استسقى عدي بني بحر ، وهم على ماء لهم يقال له الدمغانة ، فلم يسقوه
 فورد على ماء لبني ثعلب يقال له خالة وقال^٣ :

غابت سراًُ بني بحر ولو شهدوا يوماً لأعطيت ما أبغي وأطلب
 لما دفعت إلى المأجور^٤ قلت له هل أنت مفتعلٌ أجراً ومحتسب
 إذا خطيبٌ قضى منا مقالته ثنى بأخرى خطيبٌ فاضلٌ أرب
 حتى وردنا القُنَيْنِيَّاتِ ضاحيةً في ساعة من نهار القَيْظِ تلتهب
 فجاء بالباردِ العذبِ الزلال لنا ما دام يمسكُ عوداً ذاوياً كرب
 من ماء خالة جياش^٥ بذمته مما توارثه الأوحادُ^٦ والعتب

١ القنابل : الجماعة من .

٢ الرواق .

٣ معجم البلدان ج ٣ ص ٣٩١ و ج ٧ ص ١٧٨ وتاريخ ابن عساكر المخطوط . عن حاشية خليل
 مردم بك .

٤ المأجور من أسمائهم .

٥ معجم البلدان ج ٦ ص ١٢٣ و ج ٧ ص ٣٤٥ عن حاشية خليل مردم بك .

٦ الأوحاد : جمع أوحاد .

وقال ١ :

فسلَّ هوى من لا يواتيك ودُّه
كأني ومنقوشاً من الميس قاتراً
على أخدري^٣ لحمه بسرايةٍ
فلا هنُّ بالبهمي وإياه إذ شتي

وقال ٤ :

أبلغا قومنا جذاماً ونحماً
كان آباؤكم إذا الناسُ جربُ
منعوا الثغرة التي بين حمص
والكهايتين ليس فيها عريبُ

وقال ٥ :

أتعرف بالصحراءِ شرقيّ شابكٍ
ظلمتُ أريها صاحبيّ وقد أرى
منازلَ غزلانٍ لها الأنس أطيها
بها صاحباً من بين غرٍ وأشيبا

ومنها ٦ :

فأوردها لما انجلى الليلُ أو دنا
فضى كُنَّ للجونِ الحوائمِ مشربا

وقال ٧ :

توهمَ أبلادَ المنازلِ عن حقبِ
فراجع شوقاً ثَمَّت ارتدَّ في نصبِ

١ معجم البلدان ج ٦ ص ١٢٣ و ج ٧ ص ٣٤٥ عن حاشية خليل مردم بك .

٢ تحلب : سال .

٣ الأخدري : نسبة إلى الأخدر وهو الأسد .

٤ معجم البلدان ج ٧ ص ٣٠٤ .

٥ معجم البلدان ج ٥ ص ٢٠٦ .

٦ لسان العرب ج ٢٠ ص ١٦ مادة فضا وتاج العروس .

٧ معجم البلدان ج ٤ ص ٤٢١ و ج ١ ص ٣٣٩ .

بزهمان لو كانت تكلّم أخبرتُ
فظل بصحراءِ الأُمِيشطِ يومه^١
بما لقيت بعد الأنيس من العجب
خميصاً بضاهي ضغن هاديةِ الذهب
وقال :

حملته بازل^٢ كودانة^٣
نعم قرقر الموررات إذا
في ملاطٍ ووعاءِ كالجراب^٤
غرق الحزان في آل السراب^٥
وقال^٦ :

وناعمة تجلو بعودِ أراكة^٧
كأنَّ بها خمراً بماءِ غمامة^٨
أراك إلى نجدٍ تحنُّ وإنما^٩
مؤشّرة يسبي المعانقَ طيبها^{١٠}
إذا ارتشفت بعد الرقادِ غروبها
مُنَى كلِّ نفسٍ حيث كان حبيبها
وقال^{١١} :

وحجراً وزباناً وإن يك ملقط^{١٢}
توفّي فليغفر له سائر الذنبِ
وقال^{١٣} :

كميت^{١٤} إذا شُجّت وفي الكأس وردة^{١٥}
تريك القذى من دنها^{١٦} وهي دونه
لها في عظامِ الشاربين ديب^{١٧}
لوجهِ أخيها في الإناءِ قطوب^{١٨}

١ لسان العرب ج ١٧ ص ٢٣٦ مادة (كدن) .

٢ لسان العرب ج ٧ ص ٢٠٧ مادة (حزز) .

٣ زهر الآداب للحصري ج ٢ ص ١٠٠ .

٤ مجلة المجمع العلمي العربي المجلد ١٦ ص ١٣٩ .

٥ أسرار البلاغة للبهاء العاملي ص ١١ قال : لما أنشد ابن الرقاع في حضرة سليمان بن عبد الملك

قوله في الخمرة : (كميت . . . الخ) قال له سليمان شربتها ورب الكعبة فقال والله يا أمير

المؤمنين لئن رابك وصفي لها لقد رابتي معرفتك لها أكثر .

٦ لعله شجّت .

٧ لعله من دونها . انظر أيضاً أمالي السيد المرتضى ج ١ ص ١٠٠ .

حرف الدال

قال في عبيدة بن عبد الرحمن لما عزله الوليد بن عبد الملك عن الأردن :
فما عزلوكَ مسبوقاً ولكن^١ إلى الخيرات سبأقاً جوادا
وكننت أخني وما ولدتك أمي وصولاً^٢ باذلاً^٣ لي مستزادا
وقد هيضت^٤ لنكيتك القدامى كذاك الله يفعل ما أرادا

كان سعيد بن عمرو مؤاخياً ليزيد بن المهلب ، فلما حبس عمر بن عبد العزيز يزيد ومنع من الدخول عليه أتاه سعيد فقال : يا أمير المؤمنين لي على يزيد خمسون ألف درهم ، وقد حلت بيني وبينه ، فإن رأيت أن تأذن لي فأقتضيه ، فأذن له ، فدخل عليه ، فسر به يزيد وقال : كيف وصلت لي^٥ ؟ فأخبره ، فقال يزيد : والله لا تخرج إلا^٦ وهي معك ، فامتنع سعيد ، فحلف يزيد ليقبضنَّها ؛ فقال عدي بن الرقاع^٧ :

ولم أر محبوساً من الناس واحداً حبا^٨ زائراً في السجن غير يزيدِ
سعيد بن عمرو إذ أتاه أجازه بخمسين ألفاً عجباً لسعيد
وقال يجيب الراعي لما هجاه^٩ :

١ عيون الأخبار ج ١ ص ٣٤٣ نقلا عن حاشية الأستاذ خليل مردم بك .

٢ حبا : وصل ، أعطى .

٣ قال الراعي يهجو عدياً :

لو كنت من أحد يهجو هجوتكم يا ابن الرقاع ولكن لست من أحد

لسان العرب ج ٩ ص ٤٩٢ مادة (رقع) و ج ٨ ص ٣٩٤ وتاج العروس ج ٥ ص ٢٦٠

مادة (رقع) .

حُدِّثْتُ أَنَّ رُوَيْعِي الْإِبِلَ يَشْتَمِي وَاللَّهُ يُصْرِفُ أَقْوَامًا عَنِ الرَّشْدِ
فَإِنَّكَ وَالشَّعْرَ ذُو تَرْجِي قَوَافِيَهُ كَمَبْتِغِي الصَّيْدِ فِي عَرِيْسَةِ الْأَسَدِ

وقال يمدح الوليد بن عبد الملك^١ :

عرف الديارَ توهُماً فاعتادها من بعد ما شمل البلى أبلادها
الآءَ رُواكِدَ كُلْهِنَّ قَسِدَ اصْطَلَى حَمْرَاءَ أَشْعَلَ أَهْلُهَا إِيقَادَهَا
بشُبَيْكَةَ الْحَوْرِ الَّتِي غَرَبِيْبَهَا فَقَدَتِ رَسُومَ حِيَاضِهَا وَرَادَهَا
كَانَتْ رِوَا حِلَّ لِلْقُدُورِ فَعُرِّيْتُ مِنْهِنَّ وَاسْتَلَبَ الزَّمَانُ رِمَادَهَا
وَتَنَكَّرَتْ كُلَّ التَّنَكُّرِ بَعْدَنَا وَالْأَرْضُ تُعْرِفُ بَعْلَهَا وَجَمَادَهَا
وَلرَبِّ وَاضِحَةَ الْعَوَارِضِ طِفْلَةَ كَالرَّيْمِ قَدْ ضَرَبَتْ بِهَا أُوْتَادَهَا
تَصْطَادُ بِهَجْتِهَا الْمَعْلَلُ بِالصَّبَا عَرْضاً فَتَقْصِدُهُ وَلَنْ يَصْطَادَهَا
كَالظَّبِيَّةِ الْبَكْرِ الْفَرِيْدَةِ تَرْتَعِي مِنْ أَرْضِهَا قَفَاتَهَا^٢ وَعَهَادَهَا
خَضِبَتْ لَهَا عَقْدُ الْبَرَاقِ جَبِيْنَتَهَا مِنْ عَرَكِهَا عَلْجَانَتَهَا وَعَرَادَهَا
كَالزَيْنِ فِي وَجْهِ الْعُرُوسِ تَبَدَّلَتْ بَعْدَ الْحِيَاءِ فَلَاعِبَتْ أَرَادَهَا
تُزْجِي أَغْنَ كَأَنَّ لَابِرَةَ رُوقِيَه قَلَمٌ أَصَابَ مِنَ الْمَدَادِ سِوَادَهَا
رَكِبَتْ بِسَهٍ مِنْ عَسَالِجٍ مَتَحِيْرًا قَفْرًا تَرَبَّيْتُ وَحَشَّةَ أَوْلَادَهَا
فَتَرَى مَحَانِيْسَهُ الَّتِي تَسْقُ الثَّرَى وَالْهَبْرَ^٣ يُوْنِقُ نَبِيْتَهَا رِوَادَهَا
بَانَتِ سَعَادُ وَأَخْلَفَتْ مِيْعَادَهَا وَتَبَاعَدَتْ عَنَّا لَتَمْنَعَ زَادَهَا
إِنِّي إِذَا مَسَا لَمْ تَصْلُنِي خَلْتِي وَتَبَسَّاعَدَتْ عَنِّي اغْتَفَرْتَ بَعَادَهَا

١ نهاية الأرب للنويري ج ٤ ص ٢٤٧ وشرح الكامل للمرصفي ج ٧ ص ٤٨ ومجلة الآثار ج ٢ ص ٤٤٤ .

٢ في لسان العرب : (في أرضها وفراحتها . . .) ج ١٩ ص ٤٢ مادة (رعى) .

٣ في لسان العرب (يورق نباتها . . .) ج ٧ ص ١٠٧ مادة (هبر) .

وإذا القرينة^١ لم تزل^٢ في حسرة
 إما ترى شيبي تمشع^٣ لمي
 فلقد ثنيت^٤ يد الفتاة وسادة^٥
 وأصاحب الجيش^٦ العرمم^٧ فارساً
 وقصيدة قسد بت^٨ أجمع^٩ بينها
 نظر المثقف^{١٠} في كعوب^{١١} قناته
 ولقد أصبت^{١٢} من المعيشة^{١٣} لذة^{١٤}
 فسترت^{١٥} عيب^{١٦} معيشتي بتسكرم
 وعلمت^{١٧} حتى^{١٨} ما أسائل^{١٩} واحداً
 صلى^{٢٠} الإله^{٢١} على^{٢٢} امرئ^{٢٣} ودعته
 وإذا^{٢٤} الربيع^{٢٥} تتابعت^{٢٦} أنواؤه^{٢٧}
 نزل^{٢٨} الوليد^{٢٩} بها^{٣٠} فكان^{٣١} لأهلها
 أولاً^{٣٢} ترى^{٣٣} أن^{٣٤} البرية^{٣٥} كلتها
 ولقد^{٣٦} أراد^{٣٧} الله^{٣٨} إذ^{٣٩} ولا^{٤٠} كنها
 أعمرت^{٤١} أرض^{٤٢} المسلمين^{٤٣} فأقبلت^{٤٤}

من ضغن^{٤٥}ها سمر^{٤٦} العرين^{٤٧} فقادها^{٤٨}
 حتى^{٤٩} عسلا^{٥٠} وضح^{٥١} يلوح^{٥٢} سوادها
 لي^{٥٣} جاعلاً^{٥٤} يسرى^{٥٥} يدي^{٥٦} وسادها
 في^{٥٧} الخيل^{٥٨} أشهد^{٥٩} كرها^{٦٠} وطرادها
 حتى^{٦١} أقوم^{٦٢} ميلها^{٦٣} وسنادها
 حتى^{٦٤} يقيم^{٦٥} ثقافه^{٦٦} منادها^{٦٧}
 ولقيت^{٦٨} من شطف^{٦٩} الخطوب^{٧٠} شدادها^{٧١}
 وأتيت^{٧٢} في^{٧٣} سعة^{٧٤} النعيم^{٧٥} سداده^{٧٦}
 عن^{٧٧} علم^{٧٨} واحدة^{٧٩} لكي^{٨٠} أزدادها^{٨١}
 وأتم^{٨٢} نعمته^{٨٣} عليه^{٨٤} وزادها
 فسقى^{٨٥} خنصرة^{٨٦} الأحص^{٨٧} فجادها
 غيثاً^{٨٨} أغاث^{٨٩} أنيسها^{٩٠} وبلادها
 ألق^{٩١} خزائمها^{٩٢} إليه^{٩٣} فقادها
 من^{٩٤} أمة^{٩٥} إصلاحها^{٩٦} ورشادها
 وكففت^{٩٧} عنها^{٩٨} من^{٩٩} يروم^{١٠٠} فسادها

١ لم يرو هذا البيت إلا ابن عساكر وهو هكذا في تاريخه .

٢ في الصناعتين « يتيت يد . . . » ص ٢٦٥ .

٣ العرمم : العظيم .

٤ مناد : معوج .

٥ في لسان العرب : (وأصبت من شطف الأمور . . .) ج ١١ ص ٧٧ مادة (شطف) .

٦ رواه الجاحظ هكذا .

وعلمت حتى لست أسأل عالماً عن حرف واحدة لكي أزدادها

البيان والتبيين ج ٣ ص ١٥٥ .

وأصبت في أرضِ العدوِ مصيبةً
ظفراً ونصراً ما تناول مثلهُ
فإذا نشرت له الثناءَ وجدته
غلبَ المساميحَ الوليدُ سماحةً
تأتيه أسلابُ الأعزةِ عنوةً
وإذا رأى نثارَ العدوِ تضرمتُ
بعمرمٍ تبدو الروابي ذي وعى
أطفأت ناراَ للحروبِ وأوقدتُ
فبدت بصيرتها لمن يبغي الهدى
وإذا غسدا يوماً بنفحةِ نائلٍ
وإذا عدتُ خيلٌ تبادرُ غايةً
عمتُ أقاصي غورها ونجادهَا
أحدٌ من الخلفاءِ كان أرادها
جمعَ المكارمَ طرفها^٢ وتلادها^٣
وكفى قريشَ المعضلاتِ وسادها
قسراً ويجمع للحروبِ عتادها
سامي^٤ جماعةً أهلها فاقتادها
كالحرّةِ^٥ احتمل الضحى أطوادها
نارٌ قدحت^٦ براحتيك زنادها^٧
وأصاب حرٌّ شديدها حسادها
عرضت لسه الغدّةِ مثلها فأعادها
فالسابقُ الحالي يقود جيسادها

- ١ ورث كما رواه صاحب لسان العرب وجعل البيت الذي أوله ، غلب المساميح . . . قبل البيت الذي أوله : فإذا نشرت . . . ورواه وإذا . . . لسان العرب ج ٨ ص ٢٢٦ .
٢ طرفها : جديدها .
٣ تلادها : قديمها .
٤ سامي : طاول ، ساجل .
٥ الحرّة : أرض ذات حجارة نخرة سود .
٦ قدح : أشعل .
٧ الزناد : العود الأعلى الذي يقتدح به النار .

حرف الراء

وقال ١ :

أهم سرى أم غار للغيث غائر^٢ أم انتابنا من آخر الليل زائر^٣
ونحن بأرض قل ما يجشم السرى كثير بها العربيات الحسان^٤ الخرائر
كثير بها الأعداء يحسر دونها يريد الإمام المستحث^٥ المثابر
فبت ألهى في المنام كما أرى وفي الشيب عن بعض البطالة زاجر
بساجية العينين خود تسلد^٦ها إذا طرق الليل الصحيح^٧ المباشر
كان ثناياها نبات سحابة سقاهن شؤبوب^٨ من الليل باكر
فقلت لها كيف اهتديت ودوننا دلوك^٩ وأشراف الجبال القواهر
وجيحان^{١٠} جيحان الجيوش وأنيس وحزن خزازي والشعوب القواسر

وقال يصف ناقة ويتغزل ويصف الخمر :

حسب الرائد المؤرض^{١١} أن قد در^{١٢} منها بكل^{١٣} نبء^{١٤} صور^{١٥}

١ معجم البلدان ج ٣ ص ١٨٦ و ج ٤ ص ٦٨ و لسان العرب ج ١٥ ص ٢٢ و صفة جزيرة

العرب ص ٢٣٣ . نقلا عن حاشية خليل مردم بك .

٢ غائر : من أتى الغور .

٣ الصحيح : ذو الصحة .

٤ دلوك : بليدة من نواحي حلب بالعواصم كانت بها وقعة للشاعر أبي فراس الحمداني مع الروم

٥ جيحان : نهر بالمصيصة بالفر الشامى وخرجه من بلاد الروم ويمر حتى يصب بمدينة تعرف بكفريا .

٦ المؤرض : تأرض : ارتاد .

٧ نبء : المكان المحدودب .

٨ صوار عن لسان العرب ج ٩ ص ١١٨ مادة (ورض) .

فَنَاتٌ وَانْتَوَى بِهَسَا عَنْ هَوَاهَا شَظْفُ الْعَيْشِ آبِلٌ^١ سِيَارٌ^٢
 عَنْ لِسَانٍ كَجِثَّةِ الْوَرْلِ^٣ الْأَصْ نَمْرٌ مِجَّ النَّدَى عَسَلِيهِ الْعِرَارُ
 فَكَأَنِّي مِنْ ذِكْرِكُمْ خَالِطَتْنِي مِنْ فِلَسْطِينَ جَلَسْتُ خَمْرَ عِقَارُ
 عَشَّقْتُ فِي الدَّنَانِ مِنْ بَيْتِ رَاسٍ^٥ سِنَوَاتٍ وَمَا سَبَّهَا^٤ التَّجَارُ
 فِيهِ صَهْبَاءٌ تَرَكْتُ الْمَرْءَ أَعَشَى فِي بِيَاضِ الْعَيْنِينَ عَنْهَا احْمَرَارُ

وقال^٧ :

هَلْ عِنْدَ مَنْزِلَةٍ قَدْ أَقْفَرْتُ خَبْرُ مَجْهُولَةٌ غَيْرَتَهَا بَعْدَكَ الْغَيْرُ
 بَيْنَ الْأَقَاعِصِ^٨ وَالسُّكْرَانِ قَدْ دَرَسْتُ مِنْهَا الْمَعَارِفُ طَرًّا مَا بِهَا أَثَرُ

وقال^٩ :

أَلَا رَبُّهُ هُوَ آنَسٌ وَلِسَانُ ذَا مِنَ الْعَيْشِ يَغْبِيهِ الْخَبَاءُ الْمَسْتَرُّ

١ آبل : الحاذق في مصلحة الإبل .

٢ سيار : ورد في لسان العرب ج ١٣ ص ٣ مادة (آبل) عن حاشية الأستاذ خليل مردم بك .

٣ الورل : دابة على خلقة الضب وقيل سام أبرص ورد البيت في لسان العرب ج ١٤ ص ٢٥٠ مادة (ورل) عن حاشية خليل مردم بك .

٤ فلسطين : بالكسر ثم الفتح ، هي آخر كور الشام من ناحية مصر ؛ ورد البيت في معجم البلدان ج ٦ ص ٣٩٧ عن حاشية خليل مردم بك .

٥ بيت راس من قرى دمشق في الفوطة قرب قرية ببيلا ؛ ورد البيت في لسان العرب : في القلال ج ١٧ ص ٣٩٤ .

٦ سبا : نقل من بلد إلى بلد آخر .

٧ معجم البلدان ج ١ ص ٣٠٨ عن حاشية خليل مردم بك .

٨ الأقاعص : مكان بمشارف الشام والسكران واد بمشارف الشام من جهة نجد .

٩ لسان العرب ج ١٩ ص ٣٤٩ مادة (غبا) عن حاشية خليل مردم بك .

وقال ١ :

كانت تحل إذا ما الغيثُ أصبحها بطن الحلاءِ فسالأمرار فالسررا

وقال ٢ :

أضلال ليلٍ ساقطٍ أكنسافهُ في الناسِ أعذر أم ضلالٌ نهارٍ ٣
قحطان والدنسا الذي نُدعى له وأبو خزيمةَ خندقُ بن نزار
أنبيع والدنا الذي نُدعى لسه بأبي معاشر غائب متوار
تلك التجارةُ لا زكاءَ لمثلها ذهبٌ يُباعُ بآنك وأبصارُ

ورد في كتاب الانباه على قبائل الرواة لابن عبد البر ص ١٠٣ أن عدي
ابن الرقاع قال يخاطب الراعي متبرئاً ممن ادعى أن عاملة من مضر:

وإذا أطعتك يا عبيدُ كسوتي في كلِّ جمعةٍ رداءَ صغارِ
أنبيعُ والدنا الذي نُدعى لسه بأبي قبائل غائب متوار
تلك التجارةُ ما رأينا مثلها ذهبٌ يُباعُ بآنك وتبصارِ

وقال ٥ :

١ معجم البلدان ج ٣ ص ٣١٠ عن حاشية خليل مردم بك .

٢ وردت في الأغاني .

٣ انظر السبب الذي قيلت فيه هذه الأبيات من هذا الكتاب ص ١٦ .

٤ قال صاحب الأغاني : أبار جمع إبرة ورواه صاحب لسان العرب هكذا عن حاشية خليل مردم بك .

تلك التجارة لا تجيب لمثلها ذهب يُباع بآنك وأيار

وقال الإبار الصفر . لسان العرب ص ٩٧ مادة (اير) عن حاشية خليل مردم بك

٥ ورد في ربيع الأبرار للزخشي ج ٣ ورقة ٢١٥ مخطوط بدار الكتب الظاهرية .

لقد تباشر أعدائي بما لقيتُ
رجلي التي كنت أرقى في الركاب بها
رجلي وكم من كريمٍ سيدٍ عثرا^١
فأستقلّ وأرضى خطوها اليسرا
محبوكة مثل أنبوبِ القناة لها
عظمٌ تكمّش^٢ عنه اللحمُ فأنحسرا
ليت الذي مَسَّ رجلي كان عارضةً
بحيث يُنبت مني الحاجب الشعرا

١ عثر : زل .

٢ تكمّش : تقلص .

حرف العين

وقال يمدح الوليد بن عبد الملك^١ :

طار الكرى وألمّ^٢ الهمُّ فاكتنعا
 كان الشبابُ قناعاً أستكن^٣ به
 فاستبدل الرأس شيباً بعدَ داجية^٣
 فإن تكن ميعة^٤ من باطلٍ ذهبَتْ
 فقد أبيت أراعي الخودَ راقدةً
 براقه الثغر تشفي القلبَ لذتُّها
 كالأقحوانِ بضاحي الررضِ صبَّحه
 ونكبة^٥ لو رمى الرامي بها حجراً
 أتت عليّ فلم أنزع^٦ لها سلمي
 لا يبرح المرءُ يستقري مضاجعه
 والمرءُ ليس وإن طالت معيشتهُ
 صلى الذي الصلواتُ الطيباتُ له
 وحيلَ بيني وبينَ النومِ فامتنعا
 وأستظلُّ زماناً ثمّت انقشعا
 فينانة ما ترى في صدغها نزعا
 وأعقب الله بعد الصبوة الورعا
 على الوسائدِ مسروراً بها ولعا
 إذا مُقبِلُها في ريقها كرعاً^٤
 غيثٌ أرش بتنضاح^٥ وما نقعا
 أصم^٦ من يابس الصوان لانصدعا^٦
 ولا استكنت لها شكوى ولا جزعا
 حتى يقيم بأعلاهن مضطجعا^٧
 يرى الذي هو لاقٍ قبل أن يقعا
 والمؤمنون إذا ما جمَّعوا الجمعا

١ الأغاني طبقة دار الكتب ج ١ ص ٢٩٩ ونهاية الأرب للنويري ج ٤ ص ٢٤٦ .

٢ استكن : استظل .

٣ داجية : السواد .

٤ في لسان العرب (في ثغرها كمعاً) ج ١٠ ص ١٨٩ مادة (كمع) عن حاشية خليل مردم بك .

٥ تنضاح : المطر ، السيل .

٦ هذا البيت والذي بعده من حماسة البحري ص ١٢٩ عن حاشية خليل مردم بك .

٧ هذا البيت انفرد بروايته ابن عساكر في تاريخه المخطوط عن حاشية خليل مردم بك .

على الذي سبق الأَقْوَامَ ضاحيةً بالأجرِ والحمد حتى صاحباه معا
هو الذي جمع الرحمن أُمَّتَهُ على يديه وكانوا قباه شيعا
عُدْنَا بذِي العرش أن نحيا ونفقده وأن نكونَ لراعٍ بعده تبعا
إنَّ الوليدَ أميرَ المؤمنين له ملك عليه أَعْسَانُ اللهُ فارتفعا
لا يمنع الناسَ ما أعطى الذين هم له عباد ولا يُعْطُونَ ما منعا

ويروى له قوله يصف إبلاً وراعيها بالرفق :

يسنُّها^١ آبل^٢ ما إن يجزئها جزءاً شديداً وما إن ترتوي كرعاً^٣

وقال يهنيء عبد العزيز بن الوليد بن عبد الملك بزواجه^٤ :

قمرُ السماءِ وشمسُها اجتماعاً بالسعدِ ما غابا وما طلعا
ما وارتِ الأستارُ مثلهما فيمن ° رأيناه وما سمعا
دام السرورُ لسه بها ولها وتها طولَ الحيساقِ معا

وقال^٦ :

عرفت^٧ بعفري أو برجلتها ربعا رماداً وأحجاراً بقينَ بها سفعا

١ سن : حث على النشاط في السير .

٢ آبل : صاحب الإبل .

٣ نسب صاحب لسان العرب هذا البيت للراعي ونسبه الجوهري لابن الرقاع عن حاشية خليل مردم بك .

لسان العرب ج ١٠ ص ١٨٢ مادة (كرع) عن حاشية خليل مردم بك .

٤ الأغاني ج ١٥ ص ٤٧ وعيون الأخبار ج ٣ ص ٦٩ وربع الأبرار للزنجشري ج ٤ ورقة ١١١ مخطوط دار الكتب الظاهرية عن حاشية خليل مردم بك .

٥ فيمن رأى منهم ومن سمعا ورد في ربع الأبرار عن حاشية خليل مردم بك .

٦ معجم البلدان ج ١ ص ١٧٠ مادة (أرانب) عن حاشية خليل مردم بك .

٧ غشيت . . . لسان العرب ج ٦ ص ٢٦٧ مادة (عفر) عن حاشية خليل مردم بك .

فما رمتها حتى غدا اليوم نِصْفُه
 أُسْرٌ هُموماً لو تغلغل بعضُها
 أميدٌ ٢ كأنني شارب لعبت به
 مقدية صهباء تشخ ٤ شربها
 عصارة كرم من حديجاء لم تكن
 فذرْ ذا ولكن هل ترى ضوء بارق
 تصعد في ذات الأرانب موهنا
 فما تركت أركانه من سواده

وحتى سرت عيناى كلتاهما دمعاً
 إلى حجر صلد ١ تركن به صدعاً
 عقار ثوت في دنها ٣ حججاً سبعا
 إذا ما أرادوا أن يراحوا ٥ بهاصرعى
 منابتها مستحدثات ولا قرعاً
 وميضاً ترى منه على بعده لمعا
 إذا هز رعداً خلت في ودقه شفعا
 ولا من بياض مستراداً ولا وفعا ٧

وقال :

وعون يباكرن البُطيمة موقعا
 ويأكلن ما أغنى الولي فلم يُلث
 حزان فما يشربن إلا النقائعا ٨
 كأن بحافات النهاء المزارعا ٩

وقال ١٠ :

-
- ١ اليابس وهو صفة للحجر .
 ٢ أميد : وردت في لسان العرب فظلت ج ٤ ص ١٧ عن حاشية خليل مردم بك .
 ٣ دنها : وردت في لسان العرب سجنها ج ٤ ص ١٧ عن حاشية خليل مردم بك .
 ٤ تشخ : وردت عن لسان العرب باكر ج ٤ ص ١٧ عن حاشية خليل مردم بك .
 ٥ يراحوا : وردت في لسان العرب يراحوا ج ٤ ص ١٧ عن حاشية خليل مردم بك .
 ٦ الودق : المطر .
 ٧ لسان العرب ج ١٠ ص ٢٨٣ مادة (وقع) عن حاشية خليل مردم بك .
 ٨ لسان العرب ج ١٤ ص ٣١٧ مادة (بطم) عن حاشية الأستاذ خليل مردم بك .
 ٩ لسان العرب ج ٢٠ ص ٢١٩ و ٢٢٠ مادة (نهى) عن حاشية الأستاذ خليل مردم بك .
 ١٠ الأغاني .

إنا رضىنا وإن غابت جماعتنا
يرعى ثمانين ألفاً كسان مثلهم
ما قال سيدنا روحُ بنُ زنباعٍ ١
مما يخالف أحياناً على الراعي

وقال ٢ :

على ذي منارٍ تعرف العينُ منته
كما تعرف الأضيافُ دارَ المقطعِ

١ انظر حادثة هذين البيتين في هذا الكتاب .

٢ معجم البلدان ج ٤ ص ١٣ مادة (دار المقطع) عن حاشية الأستاذ خليل مردم بك .

حرف الفاء

قال :

إنَّ الخليطَ أجدوا البينَ فانقذفوا
 حتَّى أتيت مريا وهو منسكرس^١
 وفي الخلدور مَهَّأ حورٌ مصورة^٢
 إذا كررن حديثاً قلن أحسنه
 وأمتعوكَ بشوقٍ أيسة انصرفوا^١
 كالليث يضربه في الغابة السعف^٢
 خلقن أحسنَ مما قال من يصف^٣
 وهنَّ من غير سوءٍ يُتقى صدُف

وقال :

مجلجلة من بنسات النعامِ
 ولدت ترابية رأسها
 وما لامرئٍ أربٌ بالحيسا
 بيضاء واضحة تلصف^٤
 على كلِّ رابية نيف^٥
 عنها محيصٌ ولا مصرف^٦

وقال :

ألا من لقلبٍ لا يزال كأنه
 يدا لامعٍ أو طائرٌ يتصرف^٧

١ لسان العرب ج ٩ ص ١١٨ مادة (خلط) عن حاشية خليل مردم بك .

٢ لسان العرب ج ١١ ص ٥٣ مادة (سعف) عن حاشية خليل مردم بك .

٣ المختار من شعر بشار للخالدين ص ٣٨ عن حاشية خليل مردم بك .

٤ لسان العرب ج ١١ ص ٢٢٧ مادة (لصف) عن حاشية خليل مردم بك .

٥ لسان العرب ج ١١ ص ٢٥٧ مادة (نوف) عن حاشية خليل مردم بك .

٦ لسان العرب ج ١ ص ٢٠٤ مادة (أرب) عن حاشية خليل مردم بك .

٧ أمالي القاضي ج ٢ ص ٦١ عن حاشية خليل مردم بك .

حرف القاف

قال يصف غيثاً :

واستدفروا بنوى حدّاء تقذفهم^١ إلى أقاصي نواهم ساعةً انطلقوا^١
 وصاحب^٢ غير نكسٍ قد نشأت^٣ به من نومه^٤ وهو فيه^٥ ممهد أنق
 فقمت أخبره بالغيث لم أره والبرق إذ^٦ بال^٦ محرور^٧ له أرق
 مزن^٨ تسبح^٩ في ربح شامية مكلل بعماء الماء منتطق
 ثم اكفهر شريقي اللوى وأوى إلى تواليه^{١٠} من سفاره رفق^{١١}
 تربص^{١٢} الليل حتى قل^{١٢} سائمه على الرويشد أو خرجائه يدق
 حتى إذا المنظرُ الغزليُّ جاردها من حمرة الشمس لما اغتالها الأفق

- ١ لسان العرب ج ٥ ص ٣٩٤ مادة (ذفر) عن حاشية الأستاذ خليل مردم بك .
- ٢ من البيت الثاني إلى البيت الثامن عن صفة جزيرة العرب للهمداني ص ٢٣٢ .
- ٣ نسأت كما ورد للهمداني عن حاشية الأستاذ خليل مردم بك .
- ٤ قومه كما ورد للهمداني عن حاشية الأستاذ خليل مردم بك .
- ٥ فيها كما ورد للهمداني عن حاشية الأستاذ خليل مردم بك .
- ٦ ادبال كما ورد للهمداني عن حاشية الأستاذ خليل مردم بك .
- ٧ ورد محرور له أرق .
- ٨ ورد : برق .
- ٩ ورد : تسبح فيه البرق عن حاشية خليل مردم بك .
- ١٠ ورد : مواليه عن حاشية خليل مردم بك .
- ١١ ورد دفع عن حاشية الأستاذ خليل مردم بك .
- ١٢ ورد تربص عن حاشية خليل مردم بك .

ألقى على ذات أجفار كلاكيلتهُ وشبَّ نيرانه وانجاب يأتلق
فما به بطن واد غبَّ نضحته وإن تراغب الاء مسفة تتقأ
ورد في حماسة ابن الشجري ص ٢٣٠ من هذه القطعة ثلاثة أبيات كما
يلي :

مزنٌ ترفَعَ في ربحِ يمانيةٍ مكللٌ بعماء الماء منتطقُ
ألقى على ذات أحفار كلاكاه وشبَّ نيرانه وانجاب يأتلق
نار تعاود منها العود جدته والنارُ تسفع عيداناً فتحترق

حرف اللام

قال :

أطربت أم رفعت لعينك غدوة^١ بين المكيمين والزجيج حمول^١
زجلا تراوحها الحداة فحبسها وضح النهار إلى العشي^٢ قليل
كمطر^٣ طحل^٣ يقلب عانة^٣ فيها لواقح كالقسي^٣ وحول^٢
نفشت رياض^٣ أعامق حتى إذا لم يبق من شمل النهار ثميل
بسطت هواديا بها فتكمشت^٣ وله على أكسائهن^٣ صليل
حتى وردن من الأزارق منهلا^٣ وله على آثارهن^٣ سحيل^٣
فاستفنه ورؤوسهن مطارة^٣ تدنو فتعشى الماء ثم تحول

ومنها :

وكان^٤ ليلى حين تغرب شمس^٤ بسواد^٤ آخر^٤ مثله^٤ موصول^٤
أرعى^٥ النجوم إذا تغور^٥ كوكب^٥ أبصرت^٥ آخر^٥ كالسراج^٥ يجول^٥

١ معجم البلدان ج ٧ ص ١٤٣ مادة (مكيمين) عن حاشية خليل مردم بك .

٢ معجم البلدان مادة (أعماق) و (روضة أعماق) عن حاشية خليل مردم بك .

٣ معجم البلدان مادة (أزارق) عن حاشية خليل مردم بك .

٤ نهاية الأرب والمختار من شعر بشار ص ١٧ عن حاشية خليل مردم بك .

٥ ومنها

أثني فلا آو وأعلم أنه فوق الذي أثني به وأقول

عن حاشية خليل مردم بك .

أخبار أبي تمام للصولي ص ١٤٣ .

وقال :

حملت نفسي على أمرٍ وقلت لها إنَّ السُّؤلَ على الأحوال مملول^١

وقال :

مجرنهماً لعمايات تضيء به منه الرضاب ومنه المسبل المطل^٢

رأى جرير عدي بن الرقاع عند الوليد بن عبد الملك فقال :

يقصر باع العامليّ عن الندى ولكنّ . . . العامليّ طويل

فقال له عدي :

أمك كانت أخبرتك بطولسه أمّ انت امرؤ لم تدر كيف تقول

وقال^٣ : انظر القصيدة بتمامها في الطرائف الأدبية للميني ص ٨١ .

كأنها وهي تحت الرحل لاهية^٤ إذا المطيُّ على انقابه ذملا^٤

جونية من قطا الصوان مسكنها جفاجف تنبت القعفاء والنقلا^٥

باضت بجزم سبيع أو بمرفضه ذي الشيح حين تلاقي التلع فانسحلا^٦

حرف تشدّر عن ريان منغمس مستحقب رزاته رحمها الجملا^٧

أوكت عليه مضيقاً من عواهنها كما تضمّن كشحّ الحرة الجبلا^٨

١ حماسة البحري ص ١٢٦ ومجموعة المعاني ص ١٧٢ عن حاشية خليل مردم بك .

٢ لسان العرب ج ١٤ ص ٣٦٣ مادة (جرشم) عن حاشية خليل مردم بك .

٣ معجم البلدان مادة سبيع عن حاشية خليل مردم بك .

٤ المطي : الراحلة ؛ ذمل : سار سيراً ليناً .

٥ جفاجف : الجفف الأرض المرتفعة ؛ القعفاء : ضرب من العشب .

٦ التلع : مسایل الماء من الأسناد ؛ انسحل مطاوع سحل أي قشر .

٧ لسان العرب ج ١٥ ص ١٢٣ (رحم) عن حاشية خليل مردم بك .

٨ لسان العرب ج ٧ ص ١٢٦ مادة (ضمن) و ص ١٧١ مادة (عهن) .

ومنها يصف حمار الوحش :

تحسرت عِقَّةٌ عنه فأنسلها
مُوَلَّعٌ بسواد في أسافله
واجتاب أخرى جديداً بعد ما ابتقلا^١
منه احتذى وبلون مثله اكتحلا

وقال ٢ :

فإن يك في مناسمها رجاءٌ
أت عمراً فلاقت من نداءه
فَقَدَدُ لقيت مناسمها العدالا
سجال الخير إن لها سجالا

وقال يصف فرساً :

وترى لغرّ نساءً غيباً غامضاً
فرمى به أدبارهنّ غلامنا
قلق الخصلة من فويق المفصل^٣
لما استتب بها ولم يتدخل^٤

قوله : غيباً يعني انفلقت فخذاه بلحمتين عند سمته فجرى النسا بينهما
واستبان ؛ والخصلة كل لحمة فيها عصبه والغر تكسر الجلد وتغضنه .

-
- ١ العقة : الشعر الذي يكون على كل مولود من البهائم حين يولد . يقول لما تربع وأكل بقول
الربيع أنسل الشعر المولود معه وأنبت الآخر فاجتابه أي اكتساه . لسان العرب ج ١٢
ص ١٣٠ مادة (عقق) و ج ١٠ ص ٢٩٣ مادة (ولع) . عن حاشية خليل مردم بك .
٢ لسان العرب ج ١٣ ص ٤٦٢ مادة (عدل) عن حاشية خليل مردم بك .
٣ لسان العرب ج ٢ ص ١٤٩ مادة (غيب) عن حاشية خليل مردم بك .
٤ لسان العرب ج ١٣ ص ٢٥٥ مادة (دخل) عن حاشية خليل مردم بك .

حرف الميم

قال ١ :

لما غدا الحيُّ من صُرخٍ وغيبيهمُ
ظلتُ تطلع نفسي إثرهمُ طرباً
مصطارة ذهب في الرأس نشوتها
حتى تعرض أعلى الشيخ دونهم
فنكبوا الصوَّة اليسرى فمال بهم
لولا اختياري أبا حفص وطاعته
من الروابي التي غربيتها الكممُ
كأنني من هواهمُ شاربٌ سدم
كأن شاربها مما به لم
والحب حبُّ بني العسراء والهدمُ
على القراض فراض الحامل الثلم
كاد الهوى من غداة البين يعتزمُ

وقال ٢ :

عامية جرتِ الرياحُ الذبولُ بها
فقد اتخذها الهجرانُ والقدم

وقال يفتخر ٣ :

نسيتُمُ مساعينا الصوابحُ فيكمُ
فإن تعدونا الجاهلية إننا
فلا ذلك منا ابن المعدل مُرة
يقود إلينا ابني نزارٍ من الملا
وما تذكرون الفضلَ إلاَّ توهما
لنحدثُ في الأقوامِ بؤساً وأنعما
وعمرو بن هند عام أصعد موسما
وأهل العراق ساميا متعظما

١ معجم البلدان مادة (هدم) و (كمم) و (صرخ) و (ثلم) ولسان العرب ج ٧ ص ٢٥

مادة (مصطر) . عن حاشية خليل مردم بك .

٢ لسان العرب ج ١٥ ص ٥٩ مادة (خدم) عن حاشية خليل مردم بك .

٣ معجم البلدان مادة (ملا) وكتاب الاشتقاق لابن دريد ص ٢٢٤ عن حاشية خليل مردم بك .

٤ لعل الصواب الصوالح نقلا عن حاشية خليل مردم بك .

فلما ظننا أنه نازل بنا ضربنا ووليناها جمعاً عمرماً
ونحن فككنا عن عدي بن حاتم
وقال :

ألم على طلل عفا متقادماً بين الركيك وبين غيب الناعم^٢
بمجرّ غزلان الكناس تلفعت بعدي بمنكر تربها المتراكم^٣
ومنها :

يتبعن ناجية كأنّ بدفّها من غرض نسعتها علوبَ مواسم^٤
لولا الحياء وأنّ رأسي قد عسا^٥ فيه المشيب لزرت أمّ القاسم
وكأنها بين النساء أعارها عينيه أهور من جآذر جاسم
وسنان أقصده النعاس فرنقت في عينه سنة وليس بنسائم

١ قال ابن دريد في كتاب الاشتقاق ص ٢٢٤ : أسر قميسيس أحد رؤساء بني شعل عدي بن حاتم يوم أغارت بنو جناب على طييء، فأخذ شعيب بن ربيع بن مسعود العلمي من بني عليم وقال ما أنت وأسر الأشراف ومن عليه بغير فداء فقال عدي بن الرقاع في ذلك : « ونحن فككنا . . . » فأجاب به بشر بن عليق الطائي فقال :

كذبت ابن شعل ما فككت ابن حاتم ولا كان في الأقوام جدك منعماً
ولكنما فادي عدي بن حاتم عليم وقد كانت له متكرماً
انظر شرح شواهد المعني للسيوطي ص ١٦٨ فقد أورد لعدي بن الرقاع طائفة حسنة.
نقلاً عن حاشية خليل مردم بك .

٢ وفي رواية بين اللكيك وفي أخرى بين الذؤيب وبين غيب الناعم، معجم البلدان مادة (ذؤيب)
نقلاً عن حاشية خليل مردم بك .

٣ وفي رواية « بمجر أهبرة الكناس . . . » معجم البلدان مادة (هبير) .

٤ لسان العرب ج ٢ ص ١٢٠ مادة (علب) . عن حاشية خليل مردم بك .

٥ وفي رواية (عثا) لسان العرب ج ١٩ ص ٢٥٤ مادة (عثا) ؛ وبعد هذا البيت كافي شرح
الكامل للمرصفي ج ٢ ص ١٣٩ .

يصطاد يقظان الرجال حديثها وتطير بهجتها بنوم الحالم
عن حاشية خليل مردم بك .

وقال ١ :

ونبه شوقي بعد ما كان نائماً
بكت شجوها عند الضحى فتساجمت
فلو قبل مبكاها بكيت صباية
ولكن بكت قبلي فهيتج لي البكا
هتوف الضحى مشغوفة بالترنم
إليها دموع العين من كل مسجم
بسعدى شفيت النفس قبل التندم
بكاها فقلت : الفضل للمتقدم

ورويت هذه الأبيات في شرح الكامل هكذا ٢ :

ومما شجاني أنني كنت نائماً
إلى أن بكت ورقاء في غصن أيكة
فلو قبل . . .
أعلل من برد الكرى بالتنسم
تردد مبكاها بحسن الترنم

ورواها أبو بكر الأصفهاني في كتاب الزهرة هكذا ولم يعزها ٣ .

وقد كدت يوم الحزن لما ترنمت
أموت لمبكاها أسي إن لوعي
فلو قبل . . .
هتوف الضحى محزونة بالترنم
ووجدي بسعدى قاتل لي فاعلم

وقال يمدح عمر بن هبيرة :

لمن رسم دار كالكاتب المنم
بمنعرج الوادي فويق المهزم ٤

١ مقامات الحروري ص ٧ عن حاشية خليل مردم بك .

٢ شرح الكامل للمرصفي ج ٧ ص ٢٩ انظر أيضاً شرح مقامات الحريري للشريشي ١/١٤ عن حاشية خليل مردم بك .

٣ كتاب الزهرة ص ٢٤٥ عن حاشية خليل مردم بك .

٤ معجم البلدان مادة (المهزم) . عن حاشية خليل مردم بك .

ومنها :

فلما تجاوزنَ الحصيداتِ كلَّها
تخطينَ بطنَ السرِّ حتى جعلنَّه
إذا شئتَ أن تلقى فتي البأس والندي
فكن عمرا تأتي ولا تعدونَه
ففي عزلت عنه الفواحشُ كلَّها
كأنَّ زورَ القبطرية عُلقت
عملسُ أسفارٍ إذا استقبلت له
يكافح لوحاتِ الهواجرِ بالضحي
إذا رمى أصحابه بيمينه
كأنَّ قرادِيَّ زوره طبعتهما

وخلَّفنَ منها كلَّ رعنٍ ومخرمٍ^١
يلي الغربَ سيلَ المنتوي المتيمم
وذا الحسبِ الزاكي التليدِ المقدم^٢
إلى غيره واستخبرِ الناسَ وافهم
فلم تختلطُ منه بلحمٍ ولا دم^٣
علائقُها منه يجذعُ مقوم^٤
سموم^٥ كحجرِ النصار لم يتلم^٥
مكافحة^٦ للمنخرين وللنسم^٦
سرى الليلةَ الظلماءَ لم يتهم^٦
بطينٍ من الجولان كتاب أعجم^٧

١ معجم البلدان مادة (الحصيدات) عن حاشية خليل مردم بك .

٢ لسان العرب ج ٤ ص ٣٤٨ .

٣ روى أبو تمام الطائي بعض هذه الأبيات في كتاب الحماسة ونسبها للمحة الجرمي : الحماسة ج ٢ ص ٣٥١ . عن حاشية خليل مردم بك .

٤ لسان العرب ج ٦ ص ٣٧٨ مادة (قبطر) و ج ١٢ ص ٢٨٤ مادة (بندك) وروي : « بنادكها منه . . . » بدل (علائقها) ؛ قال شارح الحماسة : زور جمع زر والقبطرية ضرب من الثياب . شبه قامته بجذع مستقيم معتدل ، يصغفه بطول القامة .

٥ لسان العرب ج ٨ ص ٢٦ مادة (عملس) عن حاشية خليل مردم بك .

٦ لسان العرب ج ٣ ص ٤٠٩ مادة (كفح) عن حاشية خليل مردم بك .

٧ لسان العرب ج ١٢ ص ٢٨٤ مادة (بندك) ورواه « كأن قرادي صدره . . . » ومعجم البلدان مادة (قرد) وقال شارح الحماسة : أراد بقرادي صدره حلمتي الثديين ، والطبع الختم ، والجولان موضع بالشام بينه وبين دمشق مسيرة ليلة ج ٢ ص ٣٥١ . عن حاشية خليل مردم بك .

وقال يمدح عمر بن العزيز^١ :

جمعت اللواتي يحمد الله عبده
فأولهن البرُّ والبرُّ غالبٌ
وثانيةٌ كانت من الله نعمةً
وثالثةٌ أنْ ليس فيك هوادةٌ
ورابعةٌ أنْ لا تزال مع التقى
وخامسةٌ في الحكم أنك تنصف الـ
وسادسةٌ أنْ الذي هو ربنا اصـ
وسابعةٌ أنْ المكارم كلها
وثامنةٌ في منصب الناس أنه
وتاسعةٌ أنْ البرية كلها
وعاشرةٌ أنْ الحلوم توابعُ

عليهن فليهنى لك الخير واسلمـ
وما بك من غيب السرائر يُعلم
على المسلمين اذ ولي خير منعم
لمن رام ظُلماً أو سعى سعي مجرم
تخبُّ بميمونٍ من الأمر مبرم
ضعيف وما من علم الله كالعمي
طفاك فمن يتبعك لا يتندم
سبقت إليها كل ساع وملجم
سما بك منهم معظم فوق معظم
يعدون سيباً من إسام متمم
لحلمك في فصل من القول محكم

وقال :

أخبر النفس إنما الناس كالعي
من ديار غشيتها دارسات
ولقد يخفض المجاور فيهم
مدان من بين نسابت وهشيم^٢
بين قارات ضاحك فالهزيم
غير مستشرف ولا مظلوم^٣

١ لسان العرب ج ٨ ص ٢٦ مادة (عملس) عن حاشية خليل مردم بك .

٢ معجم البلدان مادة (هزيم) عن حاشية خليل مردم بك .

٣ لسان العرب ج ١١ ص ٧٣ مادة (شرف) عن حاشية خليل مردم بك .

ومنها في الخليل :

هُنَّ عَجْمٌ وقد علمنَ من القو ل هبي واقدمى وآوو وقومي^١

وقال في الخليل :

يخرجن من فرجات النقعِ داميةً كأنَّ آذانها أطرافُ أقلام^٢

وقال :

أهبطته الركبَ يعديني وألجمه للنائباتِ بسير مخدم الأكم^٣

وقال :

وجعلن محملَ ذي السلا حِـ مجنةً رعنَ اليتيمة^٤

قال عبد الملك لابن الرقاع كيف علمك بالنساء ؟ قال أنا والله من أعلم الناس بهن وأنشأ يقول :

قضاعيةُ العينين كنديةُ الحشا خزاعيةُ الأطرافِ طائيةُ الفمِ^٥
لها حكمُ لقمانِ وصورةُ يوسفٍ ومنطقُ داودِ وعِفَّةُ مريم

١ لسان العرب ج ١٨ ص ٥٥ مادة (أوا) عن حاشية خليل مردم بك .

٢ عنوان المرقصات والمطربات ص ٣٠ ورواه صاحب نهاية الأرب : « تخوض في فرجات النقع دامية . . . »

٣ تاج العروس مادة (هبط) ونسبه صاحب اللسان إلى عدي بن زيد ج ٩ ص ٢٩٩ مادة (هبط) .
عن حاشية خليل مردم بك .

٤ معجم البلدان مادة (يتيمة) . عن حاشية خليل مردم بك .

٥ ربيع الأبرار للزخشري ج ٤ ورقة ٢-١١٢ عن حاشية خليل مردم بك .

حرف النون

قال :

وما حُسَيْنَةٌ إِذْ قَامَتْ تودعنا للبينِ واعتقدتْ شذراً ومرجاناً^١

ومنها :

أَوْ ظَبِيَّةٍ مِنْ ظُبَاءِ الْحَوَّةِ ابْتَقَلَتْ مَذَانِبَا فَجَرَتْ نَبْتاً وَحَجْرَانَا^٢

ومنها :

بَكَرٌ يَرِبْثُهَا آثَارُ مِنْبَعٍ تَرَى بِسَهِّ حُفْنًا زَرْقًا وَغَدْرَانَا^٣

ومنها :

لَوْلَا الْإِلَهِ وَأَهْلُ الْأُرْدُنِ اقْتَسَمَتْ نَارُ الْجَمَاعَةِ يَوْمَ الْمَرْجِ نَيْرَانَا^٤
كَانُوا زَوَارِئاً لِأَهْلِ الشَّامِ قَدْ عَلِمُوا لَمَّا رَأَوْا فِيهِمْ جُوراً وَطَغْيَانَا^٥
وَكَانَ أَمْرُكَ مِنْ أَهْلِ الطَّوَانَةِ مِنْ نَصْرِ الَّذِي فَوْقْنَا وَاللَّهُ أَعْطَانَا^٦
أَمراً شَدَدَتْ بِإِذْنِ اللَّهِ عَقْدَتَهُ فَزَادَ فِي دِينِنَا خَيْراً وَدُنْيَانَا

وقال :

عَلُونَاهُمْ فِي كُلِّ فَخْرٍ وَسُودِدَ وَعَزَّ كَمَا تَعْلُو الْقَنَاةَ سَنَانُهَا^٧

١ لسان العرب ج ٤ ص ٢٨٨ مادة (عقد) . عن حاشية خليل مردم بك .

٢ لسان العرب ج ١٨ ص ٢٢٧ مادة (حوا) . وفي معجم البلدان مادة (حوة) :
أَوْ ظَبِيَّةٍ مِنْ ظُبَاءِ الْحَوَّةِ ابْتَقَلَتْ مَذَانِبَا فَجَرَتْ نَبْتاً وَحَجْرَانَا

٣ لسان العرب ج ١٦ ص ٢١٨ مادة (حفن) عن حاشية خليل مردم بك .

٤ معجم البلدان مادة (أردن) عن حاشية خليل مردم بك .

٥ لسان العرب ج ٥ ص ٤٢٨ مادة (زير) عن حاشية خليل مردم بك .

٦ معجم البلدان مادة (طوانة) عن حاشية خليل مردم بك .

٧ ربيع الأبرار للزمخشري ج ٣ ورقة ٢ - ٧٩ مخطوط في دار الكتب الظاهرية .

حرف الهاء

وقال يتغزل ويصف الناقة وحماري وحش^١ :

صادتكَ أُختُ بني لؤيٍّ إذْ رمتْ وأصاب سهمُكْ إذْ رميتْ سواها
وأعارها الحدَّانُ منك مودَّةً وأغيرَ غيرُكْ ودَّها وهوها
بيضاءُ تستلبُ الرجالَ عقولَهم عظمت روادفُها ودقَّ حشاها
وكانَ طعمَ الزنجبيلِ ولذَّة صهباءُ ساكٍ بها المسحرُ فاها
فإذا تجلجلُ في الفؤاد خيالُها شرق الجفونُ بعبرةٍ تشجاها
يا شوقُ ما بك يومَ بانَ حدوجُها من ذي المويقع غدوةً فرآها
وكانَ نخلًا في مُطَيِّطَةٍ ثاويًا بالكمع بين قرارها وحجاها^٢
فوق الجمال إذا دنينَ لسابق^٣ أنزلنَ آخرَ ريحا فحداها
من بين بكرٍ كالمهابةِ وكاعبٍ شفع اليتيمِ شبابها فعداها
وجعلنَ محملاً ذي السلاحِ مجنةً نهيَ اليتيمةِ واقترشن لوها
وصدفنَ من وادي أثيدةٍ بعدما بدتِ الحميلةُ فساحزأل صواها^٤
قريةً حبلَ المقيظِ وأهلها بحسبى مأب ترى قصورَ قراها^٥

١ انظر الطرائف الأدبية للميني ص ٩٢ عن حاشية خليل مردم بك .

٢ الكمع المظمن من الأرض، والحجى المشرف من الأرض . عن حاشية خليل مردم بك .

٣ كذا في صفة جزيرة العرب . وفي معجم البلدان : (وعلى الجمال إذا رثين لسائق) ج ٨

ص ٤٩٨ عن حاشية خليل مردم بك .

٤ كذا في صفة جزيرة العرب، وفي معجم البلدان ج ١ ص ١١١ عن حاشية خليل مردم بك .

أصعدن في وادي أثيدة بعدما عسف الحميلة واحزأل صواها

٥ وفي المعجم : قرية حبل المقيظ وأهلها يخشى مأب ترى قصور قراها

واحتلَّ أهلُكِ ذا القَتودِ وعرداً^١
 وكانَ مضطجعَ امرئٍ أغفى به
 حتى إذا انقشعتُ ضبابةُ نومه
 ثم اتلَّبَّ إلى زمامِ متاخةٍ
 بنيت على كرشٍ كأنَّ حرودها^٢
 وغدت تنازعه الحديد كأنَّها
 حتى إذا يبست وأسحقَ ضرعُها
 قلقت وعسارضها حصانٌ خائضٌ^٣
 يتعاوران من الغُبارِ ملاءةً^٤
 تُطوى إذا علوا مكاناً جاسياً^٥
 بسرارةٍ حفشَ الربيعِ غثاءها
 حتى اصطلى وهجَ المقيظِ وخانه
 ونوى القيامَ على الصوى وتذاكرا

فالصحصحان فأين منك نواها
 لقرار عينٍ بعدَ طولٍ كراها
 عنه وكانت حاجةً فقضاها
 كبداء شدَّ بنسعتيه حشاها
 مُقَطُّ مطوأةٌ أميرٌ قواها
 بيدانة أكل السباعُ طلاها
 ورأت بقيةَ شلوه فشجاها
 سهل الصهيلِ وأدبرت فتلاها
 بيضاء محدثة^٣ همسا نسجاها
 وإذا السنابكُ أسهلت نشرها
 حواءَ يزدرعُ الغميرِ تراها
 أنقى مشاربه^٥ وشابَ عثاها
 ماءَ المناظرِ قلبها وأضاها

١ وفي المعجم : (وغرباً) ج ٧ ص ٣٤ . عن حاشية خليل مردم بك .

٢ لسان العرب مادة (حرد) عن حاشية خليل مردم بك .

٣ ويروى : « غرباء محكمة » عن حاشية خليل مردم بك .

٤ ويروى : فاشزأ : عن حاشية خليل مردم بك .

٥ كذا في لسان العرب . وفي معجم البلدان : أبقى مشاربه : عن حاشية خليل مردم بك .

حرف الياء

قال في مقتل مصعب بن الزبير :

ونحن قتلنا ابنَ الحواريِّ مصعباً أخا أسدٍ والمدحجيَّ اليمانيَا
ومرتْ عُقابُ الموتِ قصداً بمسلمٍ فأهوتْ له ظفراً فأصبح ثاويَا

١ يعني مسلم بن عمرو الباهلي ؛ راجع أنساب الأشراف للبلاذري ج ١١ ص ٩ طبعة أوروبا سنة ١٨٨٣ . نقلا عن حاشية خليل مردم بك .

الوليد بن يزيد

حياته

هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك بن مروان ، وكنيته أبو العباس ، وأمه أم الحجاج بنت محمد بن يوسف الثقفي بنت أخي الحجاج بن يوسف ، وفيه يقول أبو نخيلة :

بينَ أبي العاصي وبينَ الحجاجِ يا لكما نورا سراجٍ وهجاً
عليه بعد عمه عقدُ التاجِ

ومن جداته أم حكيم البيضاء بنت عبد المطلب بن هاشم عمّة النبي عليه السلام . كان يفتخر بها إذ يقول :

نبيّ الهدى خالي ومن يكُ خاله نبيّ الهدى يقهرُ به من يفاخر

ولد الوليد بدمشق حوالي سنة تسعين للهجرة ، ونشأ في قصر أبيه يزيد ابن عبد الملك ، ويزيد هذا من فتيان بني أمية ، وأول خليفة منهم عرف بالشراب ومعاشرة القيان وحب الغناء ، فشبّ ابنه الوليد مستهتراً فيما ذكر .

وعهد بأمر تأديبه إلى يزيد بن أبي مساحق السلمي وإلى عبد الصمد بن عبد الأعلى الشيباني ، وكلاهما أديب شاعر ، ولكن عبد الصمد كان معروفاً بالشراب يُستهم بالمجون ويُرمى بالزندقة فتأدب عليهما وتخرج بهما .

ولما كانت سنة اثنتين ومائة ، عهد يزيد بن عبد الملك بولاية العهد إلى أخيه هشام بن عبد الملك ثم إلى ابنه الوليد بن يزيد ؛ وكان الوليد يومئذ ابن

لإحدى عشرة سنة . وتزوج في حياة أبيه سعدة بنت سعيد بن خالد بن عمرو
ابن عثمان بن عفان .

وفي سنة خمس ومائة ، توفي يزيد بن عبد الملك وأفضت الخلافة إلى
هشام المشهور بالعفاف والحلم والجد ، والوليد يومئذ في عنفوان صباه ،
فعكف على اللذات ولها بالشراب وكلاب الصيد، وجاهر بالمجون واتخذ ندماءه
من الظرفاء والخلاء ، فتغير عليه هشام بعد أن كان مكرماً له ، وأراد أن
يقطع أصحابه عنه ، فولاه الحج سنة ست عشرة ومائة فحمل معه كلاباً
في صناديق ، وظهر منه تهاون بأمر الدين ، فلما عاد ، وبلغ ذلك هشاماً ،
اغتاظ وقال له : يا وليد ما أدري أعلى الإسلام أنت أم لا ؟ ما تدع شيئاً
من المنكر إلاّ أتيته غير متحاشٍ فكتب إليه الوليد :

يا أيها السائلُ عن ديننا نحنُ على دين أبي شاعر
نشرها صرفاً وممزوجةً بالسخرِ أحياناً وبالغافر

وأبو شاعر هذا مسلمة بن هشام . وطمع هشام بخلع الوليد ، وجعل
ابنه مسلمة ولياً للعهد ، وأراد الوليد على ذلك ، فأبى فقال له : اجعله بعدك
فأبى ، فتنكر له هشام وصار يعيبه وينتقصه ويقصر به ؛ فترك الوليد دمشق
وخرج مع ناس من خاصته ومواليه ، فنزل بالأزرق على ماء يقال له الأغدن
بالأردن ، وخلّف كاتبه عياض بن مسلم عند هشام ليكاتبه بما عندهم وأخرج
معه عبد الصمد بن عبد الأعلى فشرّبوا يوماً ، فلما أخذ فيهم الشراب ، قال
الوليد لعبد الصمد ! يا أبا وهب قل أبيتاً فقال :

ألم ترَ للنجم إذْ شِيَعَا يبادرُ في برجه المرجعا
تخيّر عن قصدي مجراته أتى الغورَ والتمسَ المطلعا

فقلت وأعجبني شأنهُ وقد لاح إذْ لاح لي مطمعا
لعلَّ الوليدَ دنسا ملكهُ فأمسى إليه قسد استجمعا
وكنّا نؤملُ في ملكه كتأميلِ ذي الجذبِ^١ أنْ يمرعا^٢
عقدنا له محكماتِ الأمور طوعاً وكان لها موضعا

فبلغ الشعر هشاماً ، فقطع عن الوليد ما كان يجري عليه ، وأمره بإخراج
عبد الصمد من عنده فأخرجه وقال فيه :

لقد قذفوا أبا وهبٍ بأمرٍ كبيرٍ بلْ يزيدُ على الكبيرِ
فأشهد أنهمْ كذبوا عليه شهادةَ عالمٍ بهمْ خبيرِ

وكتب الوليد إلى هشام يعلمه بإخراج عبد الصمد ويعتذر إليه ، مما
بلغه من منادفته ، وسأله أنْ يأذن لابن سهيل في الخروج إليه ، وكان من
خاصة الوليد ، فضرب هشام ابن سهيل وسيّره ، وأخذ عياض بن مسلم
كاتب الوليد ؛ وبلغه أنه يكتب بالأخبار إليه ، فضربه ضرباً مبرحاً وألبسه
المسوح وقيّده وحبسه ؛ فغمّ ذلك الوليد فقال : « من يثق بالناس ومن
يصطنع المعروف ! هذا الأحوال المشؤوم قدّمه أبي على أهل بيته فصيّره
وليّ عهد ، ثم يصنع بي ما ترون ، لا يعلم أن لي في أحد هوى إلاّ عبث
به ، كتب إليّ أن أخرج عبد الصمد فأخرجته ، وكتبت إليه أن يأذن لابن
سهيل في الخروج إليّ فضربه وسيّره ، وقد علم رأيي فيه ، وعرف مكان
عياض مني وانقطاعه إليّ وتحرمه بي ، وأنه كاتبني فضربه وحبسه يضارني
بذلك ، اللهم أجرني منه » .

١ الجذب : الماحل .

٢ يمرع : يخبب .

وقال في ذلك أبياتاً أولها :

أنا التذيرُ لمسدي نعمةٍ أبداً إلى المقاريف ما لم يخبروا الدخلاً

كما أنه كتب إلى هشام يعاتبه ويقرّعه بأبيات أولها :

كفرت يداً من منعمٍ لو شكرتها جزاك بها الرحمن ذو الفضل والمنّ

ولم يزل الوليد مقيماً في تلك البرية حتى مات هشام بالرصافة لستّ خلون من شهر ربيع الآخر سنة خمس وعشرين ومائة ؛ فلما كانت صبيحة اليوم الذي جاءه فيه البشير بالخلافة ، قال لأحد أصحابه : ما أتت عليّ ليلة منذ عقلت عقلي أطول من هذه الليلة ، عرضت عليّ هموم وحدثت نفسي فيها بأمور هذا الرجل ، يعني هشاماً ؛ فاركب بنا نتنفس فركبا فسارا ميلين ، ووقف على كتيب ، وجعل يشكو هشاماً ؛ إذ نظر إلى رهج^٢ ، فقال : هؤلاء رسل هشام نسأل الله من خيرهم ، إذ بدا رجلان على البريد مقبلان ، فلما قربا نزلا يعدوان حتى دنوا منه فسلما عليه بالخلافة ، فوجم ، وجعل أحدهما يكرر عليه السلام بالخلافة ، فقال : ويحك أمات هشام ؟ قال : نعم . قال : فممن كتابك ، قال : من مولاك سالم بن عبد الرحمن صاحب ديوان الرسائل . وأظهر الوليد الشماتة بموت هشام ، وضيّق على ولده وعياله وحشمه .

قال حكم الوادي المغني : كنا مع الوليد وأتاه خبر موت هشام ، وهنيء بالخلافة وأتاه القضيبي والخاتم ، فأمسكنا ساعة ونظرنا إليه بعين الخلافة ، فقال غنوني :

١ المقاريف : جمع مقرف وهو من كان أبوه غير عربي .

٢ الرهج : ما أثير من الغبار .

طاب يومي ولدًا شربُ السلافه° إذ° أتانَا نعي مَن° بالرصافه°
 وأتانَا البريدُ ينعي هشامًا وأتانَا بخاتمٍ للخلافه
 فاصطبَحنا بخمر عانةٍ صرفاً ولهُونا بقينة¹ عزّافه²
 وحلف أن لا يبرح من موضعه حتى يُغنى في هذا الشعر ، ويشرب عليه ،
 ففعلنا ذلك ولم نزل نغني إلى الليل .

ولوليد أشعار أخرى في الشماتة بهشام منها قوله :
 ليت هشاماً عاش حتى يرى مكيالته الأوفرَ قد طبّعا
 كلناه بالصاعِ الذي كاله وما ظلمناه به اصبعا
 وما أتينا ذاك عن بدعة أحله الفرقانُ لي أجمعا
 وقوله :

هلك الأحوال³ المشو م فقد أرسل المطرُ
 ثمت استخلف الولي د فقد أورك الشجر
 فاشكروا الله إنسه زائدٌ كلّ مَن شكر

وكانت بيعة الوليد يوم الأربعاء لستّ خلون من شهر ربيع الآخر سنة
 خمس وعشرين ومائة ؛ وكان من فواتح أعماله أن أجرى على زمي أهل
 الشام وعميهم ، وكساهم وأمر لكل إنسان منهم بخادم وأخرج لعيالات
 الناس الطيب والكسوة ، وزادهم ، وزاد الناس في العطاء عشرات ، ثم زاد

١ القينة : المغنية .

٢ العزافة : العازفة التي تضرب على آلة للغناء .

٣ الأحوال : الخليفة هشام بن عبد الملك ، كان أحول العين .

أهل الشام بعد العشرات عشرة عشرة ، وزاد الوفود ، ولم يقل في شيء
يُسأله لا ؛ وفي إفضاء الخلافة إليه يقول :

ألا أيها الركبُ المخبونُ أبلغوا سلاميَ سكان البلاد فأسمعوا
وقولوا أتاكمُ أشبهُ الناسِ سنة^١ بوالده فاستبشروا وتوقعوا
ضمنت لكم^٢ إن لم تعقني عوائق^٢ بأنَّ سماءَ الضرِّ عنكم ستقلع
سيوشك إلحاقُ معاً وزيادة^٢ وأعطية^٢ مني عليكمُ تبرع
محرمكم ديوانكم وعطاؤكم به تكتب الكتاب شهرأ وتطبع

وعقد في تلك السنة البيعة من بعده لابنيه الحكم وعثمان وجعلهما وليي
عهده ، وجعل الحكم مقدماً .

وازداد تمادياً باللهو واللذة والركوب للصيد وشرب الخمر ، ومنادمة
المجان وتقريب المغنين ، وقسا على بني عميه ولد هشام وولد الوليد ابني
عبد الملك ، وأمر بقتل خالد بن عبد الله القسري زعيم اليمانية بالشام ؛ وجعل
يكره المواضع التي فيها الناس ، فينتقل للصيد مع ندمائه فثقل ذلك على الناس ،
وكرهته اليمانية ، وهم أعظم جند في الشام ، فضلاً عن سحق بني عمه ،
فرموه بالزندقة ، وكان أشدهم فيه قولاً يزيد بن الوليد بن عبد الملك ؛
وأجمع على قتله جماعة^٢ من قضاة واليمانية من أهل دمشق خاصة ، وأتت
اليمانية يزيد بن الوليد ، فأرادوه على البيعة ، وكان إذ ذاك متبدياً ، فقبل منهم
على كره من عقلاء بني مروان ، كمروان بن محمد والعباس بن الوليد بن
عبد الملك ، فلما اجتمع ليزيد أمره ، أقبل إلى دمشق متنكراً ، فدخلها ليلاً ،

١ السنة : الطريقة .

٢ العوائق : الدواهي .

وقد بايع له أكثر أهل دمشق سرّاً ، ثم دخل أعوانه فأظهر أمره والوليد يومئذ بالأغداف من عمان ، ونادى يزيد بالناس لمقاتلة الوليد ، فلما علم الوليد بذلك ، قال له بعض أصحابه سر حتى ننزل حمص فإنها حصينة ، ووجه الجنود إلى يزيد فيقتل أو يؤسر ، وقال بعضهم ما ينبغي للخليفة أن يدع عسكره ونساءه قبل أن يقاتل ويعذر والله مؤيد أمير المؤمنين وناصره ، فقال له سعيد بن الوليد الكلبي :

يا أمير المؤمنين تدمر حصينة ، وبها قومي يمنعونك ، فقال ما أرى أن نأتي تدمر وأهلها بنو عامر وهم الذين خرجوا عليّ ولكن دلني على منزل حصين ، فقال أرى أن ننزل القرية ، قال أكرهها ، قال فهذا الهزيم ، قال أكره اسمه ، قال فهذا البخراء قصر النعمان بن بشير ، قال ويحك ما أقبح أسماء مياهمك ، ثم أقبل في طريق السماوة ، وترك الريف وهو في مائتين وقال :

إذا لم يكن خيرٌ مع الشر لم تجدُ نصيحاً ولا ذا حاجةٍ حين تفرعُ
إذا ما همو همّوا بإحدى هنتيمهم حسرت لهم رأسي فسلا أتقنع

وقال له بيهس بن زميل أما إذ أبيت أن تمضي إلى حمص وتدمر ، فهذا الحصن البخراء ، فإنه حصين ، فانزله ، قال إني أخاف الطاعون ، قال : الذي يراد بك أشدُّ من الطاعون ، فنزل حصن البخراء شرقي حمص ، وعلى أميال من تدمر ؛ وقال أخرجوا لي سريراً فجلس عليه وأخرج لواء مروان بن الحكم وقال أعليّ توثب الرجال وأنا أثب على الأسد واتخصر الأفاعي . واشتبك أصحابه بأصحاب يزيد ، ثم تفرق أصحاب الوليد بمكيدة ، فثبت وقاتل قتالاً شديداً ، فسمع رجلاً يقول اقتلوا عدو الله ، فلما سمع ذلك دخل

القصر وأغلق الباب ، وأحاط أعداؤه بالقصر ، فدنا من الباب فقال : أما فيكم رجل شريف ، له حسب وحياء أكلمه ، فقال له بعضهم : كلمني ، قال له من أنت ؟ قال أنا يزيد بن عنبسة السكسكي ، قال يا أخا السكاسك ألمُ أزد في أعطياتكم ؟ ألمُ أرفع المؤن عنكم ؟ ألمُ أعط فقراءكم ؟ ألمُ أخدم زمانكم ؟ فقال إننا ما ننقم عليك في أنفسنا ، ولكن ننقم عليك في انتهاك ما حرم الله ، وشرب الخمر ، واستخفافك بأمر الله ، قال حسبك يا أخا السكاسك ، فلعمري لقد أكثرت وأغرقت ، وإن في ما أحل لي لسعة عما ذكرت .

ورجع إلى الدار فجلس وأخذ مصحفاً وقال : يوم كيوم عثمان ، ونشر المصحف يقرأ . فعلوا الحائط وكان أول من علاه يزيد بن عنبسة السكسكي فنزل إليه وسيف الوليد إلى جنبه ، فقال له نح سيفك ، فقال له الوليد : لو أردت السيف لكانت لي ولك حالة غير هذه ، فأخذ بيد الوليد وهو يريد أن يخبسه ويؤامر فيه ، فنزل من الحائط عشرة ، فضربه أحدهم على رأسه وآخر على وجهه وجروه بين خمسة ، ليخرجوه من الدار ، فصاحت امرأة كانت معه في الدار ، فكفوا عنه ولم يخرجوه ، واحتز أحدهم رأسه وخاط الضربة التي في وجهه ، وقدم بالرأس على يزيد ، فأمر أن ينصب على رمح ويطاف به في دمشق .

وكان مقتله يوم الخميس لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة سنة ست وعشرين ومائة وهو ابن ثمان وثلاثين سنة وقيل ست وثلاثين سنة وكانت مدة خلافته سنة وثلاثة أشهر ، ويقال إنه حمل إلى دمشق سرّاً ودفن بها ليلاً خارج باب

١ الزمنى : أصحاب العاهات مفردا زمن .

الفراديس^١ ؛ وحزن أهل حمص عليه حزناً شديداً ، فأغلقوا أبواب حمص ،
وأقاموا النوايح والبواكي عليه ، وطالبوا بدمه .

وكان يوم مقتله في قميص قصب وسراويل وشي فقال إياس بن الوليد
الفزاري الشاعر وكان من أصحابه يرثيه :

تقلب في أثوابه وكأنما تقلب منه في السماء قضيب

ورثاه ابن ميادة .

١ باب الفراديس: أحد أبواب دمشق منسوب إلى عملة كانت خارج الباب تسمى الفراديس،
هي الآن خراب ، وكان للفراديس باب آخر عند باب السلام فسد .

صفته وأخلاقه

الوليد بن يزيد من فتيان بني أمية وظرفائهم وشعرائهم وأجوادهم وأشدائهم ، كان أبيض مشرباً حمرة ، ربة جميلاً ، من أصبح الناس وجهاً وأنبلهم ، قد وخطه الشيب قال :

إنما هاج لقلبي شَجْوُه بعد المشيبِ

وكان شديد البطش ، طويل أصابع الرجلين ، من أقوى الناس جسماً ، فكان لقوته يوتد له سكة حديد فيها سير ، ويشد السير في رجله ، ثم يثب على الدابة ، فينتزع السكة ؛ وهو كثير العناية بترويض جسمه ، فكان إذا ركب وثب على الدابة وثباً دون أن يمسه بيده .

وكان يتأنق بملابسه كثيراً من حيث أنواعها وألوانها وأصنافها ، يحب الخبز والوشي والقصب والمزركش ، ويميل إلى الألوان المشرقة كالأحمر والأصفر ، ويضع على رأسه قلنسية^١ وشي مذهبة ، ويعتم بالخبز ، ويلبس حلل الوشي والغلائل الموردة والمطارف والقباء والدراعة والسراويل والأزر والأردية والريطات^٢ ويتقلد سيفاً ويغير ثيابه في اليوم الواحد مراراً ، وكان يتطيب ويتزين بالجوهر ويغالي به ، فيتختم بالياقوت ، ويحمل بيده عقداً من الجوهر ، ويلبس عقوداً منها ، ويغيرها في اليوم مراراً كما يغير ثيابه .

١ قلنسية : ضرب من العمام يغطي بها الرأس .

٢ الريطات : جمع ريطة وهي الشريطة .

قال حماد الراوية : انتهيت إلى الوليد وهو بالبخراء^١ ، فاستأذنت عليه ، فأذن لي ، فإذا هو على سرير ممهد ، وعليه ثوبان أصفران إزار ورداء يقيئان الزعفران قيئاً .

وقال عطرذ المغني: رأيت الوليد وعليه حلة وشي ، كانت تلمع بالذهب التماعاً.

وقال أبو كامل مولى الوليد : برز إلينا الوليد وعليه غلالة موردة .

وقال حكم الوادي المغني : رأيت الوليد وعليه دراعة وشي وبيده عقد جوهر . وقال عبد الصمد الهاشمي : إنما أغلى الجوهرَ بنو أمية ؛ ولقد كان الوليد بن يزيد يلبس منه العقود ويغيرها في اليوم مراراً ، كما تغير الثياب ، وكان يجمعه من كل وجه ويُبغلي به .

وقال عمر الوادي المغني : رأيت الوليد بن يزيد وفي يده خاتم ياقوت أحمر ، قد كان البيت يلمع من شعاعه .

وذكر خمّار في الحيرة أنه رأى الوليد متلثماً بعمامة خز .

ووصف الطبري الوليد حين خرج يقاتل أصحاب يزيد بن الوليد فقال : خرج على بردون كميته عليه قباء خز وعمامة خز محتزمة بريطة رقيقة ، قد طواها ، وعلى كتفيه ربطة صفراء فوق السيف .

وروى ابن عساكر عن دخل على الوليد يوم مقتله أنه قال : دخلت القصر فإذا الوليد قائم في قميص قصب وسراويل وشي .

كان الوليد معجباً بنفسه ، مدلاً بجماله مزهواً بشبابه ، يتغزل بنفسه ، كما يتغزل بالفتيات الحسان ، ويصف حبهن له ، وتهافتهن عليه . قال :

١ البخراء : ماء منتنة على ميلين من القليعة في طرف الحجاز .

قامتُ إليَّ بتقبيلٍ تعانقني ريباً العظامِ كأنَّ المسك في فيها
ادخل فديتُكَ لا يشعرُ بنا أحدٌ نفسي لنفسكَ من داءٍ تُفدِّيها
بتنا كذلك لا نومٌ على سرُّرٍ من شدةِ الوجدِ تدنيني وأدنيها
حتى إذا ما بدا الخيطانُ اقلتُ لها حان الفراقُ فكاد الحزنُ يشجيتها
ثم انصرفت ولم يشعرُ بنا أحدٌ والله عني بحسن الفعل يجزيها

وقال على لسان سلمى بنت سعيد أخت زوجته :

اقرّ مني على الوليد سلاماً عددَ النجمِ قَلَّ ذا للوليد
حسداً ما حسدتُ أختي عليه ربنا بيننا وبين سعيد

وقال :

في فتية من بني أمية أه ل المجدِ والمآثراتِ والحسبِ
ما في الوري مثلهم ولا بهمُ مثلي ولا مُنْتَمٍ لمثلِ أبي

وكان منذ حدثته ميالاً للهو والصيد ، يحب الخيل ويرتبط^٢ الكلاب ،
كما كان يحب معاشرَةَ الظرفاء ، ومنادمة الأدباء والخلعاء^٣ والمجان^٤ وسماع
الغناء ، ومجاراة أهواء النفس كمعاقرة الخمر ، ومعاشرَةَ الحسان ومغازلتهن ،
والتشبيب بهن وهو الذي يقول :

أشهد اللهَ والملائكةَ الأبْرارَ والعابدين أهلَ الصلاحِ

١ الخيطان : الخيط الأبيض والخيط الأسود وهما كناية عن الليل والصباح .

٢ ارتبط : اتخذ للرباط .

٣ الخلعاء : جمع خليع وهو المتهتك .

٤ المجان : جمع ماجن وهو قليل الحياء .

أنني أشتهي السماع وشرب الـ كأسِ والعصِّ للحدود الملاح
والنديم الكريم والخادم الفا ره يسعى عليّ بالأقداح

وأخبار غرامه وتهتكه وهو ولي للعهد طريفة ؛ قال ابن عساكر في
التاريخ الكبير : كان الوليد بن يزيد نظر إلى اجارية نصرانية من أهيا النساء ،
يقال لها سفري ، فجعل يرأسها وتأبى عليه حتى بلغه أن عيداً للنصارى قد
قرب وأنها ستخرج فيه مع النساء إلى بستان حسن ، فصانع الوليد صاحب
البستان أن يُدخله لينظر إليها فتابعه ، وحضر الوليد ، وقد تقشّف وغير
حليته ، ودخلت سفري البستان فجعلت تمشي حتى انتهت إليه ، فقالت
لصاحب البستان : من هذا ؟ فقال لها رجل مصاب ، فجعلت تمازحه ، وتضاحكه
حتى اشتفى من النظر إليها ومن حديثها ، فقال لها صاحب البستان : ويلك
أتدرين من ذلك الرجل ؟ قالت لا ، فقال لها : هو الوليد بن يزيد ، وإنما
تقشّف حتى ينظر إليك ، فحنت إليه بعد ذلك ، وكانت عليه أحرص منه
عليها ، وقال الوليد في ذلك :

أضحى فؤادك يسا وليدُ عميدا صبأ قديماً^٢ للحسان صيودا
من حبّ واضحة العوارض طفلة برزت لنا نحو الكنيسة عيدا
ما زلت أرمقها بعيني وامقٍ حتى بصرت بهسا تقبل عودا
عود الصليب فويح نفسي من رأى منكم صليباً مثله معبودا
فسألت ربي أنْ أكون مكانه وأكون في لب الجحيم وقودا

فلما ظهر أمره وعلمه الناس قال :

١ انظر هذه القصة في مصارع العشاق ص ٣٤٠ نقلا عن حاشية خليل مردم بك .
٢ (كليماً) كما في مصارع العشاق ص ٣٤٠ نقلا عن حاشية خليل مردم بك .

ألا حبذا سفرى وإن قيل إنني كلفت بنصرانية تشرب الحمرا
يهون عليّ أن نظلّ نهسارنا إلى الليل لأولى أصلي ولا عصرا

وأحب الوليد سلمى بنت سعيد ، فكانت تحتجب منه ؛ قال صاحب
الأغاني : خرج الوليد لعله يراها ، فلقمه زبّات مع حمار ، عليه زيت ،
فقال له : هل لك أن تأخذ فرسي هذا وتعطيني حمارك هذا بما عليه ، وتأخذ
ثيابي وتعطيني ثيابك ، ففعل الزيات ذلك ، وجاء الوليد ، وعليه الثياب ،
وبين يديه الحمار يسوقه متنكراً حتى دخل قصر سعيد ، فنادى من يشتري
الزيت فاطلع بعض الخواري ، فرأينه فدخلن إلى سلمى وقلن إنّ بالباب
زياتاً أشبه الناس بالوليد فاخرجني فانظري إليه ، فخرجت فرأته ورآها ،
فرجعت القهقري ، وقالت : هو والله الفاسق الوليد ، وقد رأني ، فقلن له
لا حاجة بنا إلى زيتك ، فانصرف وقال :

إنني أبصرتُ شيخاً حسنَ الوجهِ مليح
ولباسي ثوبٌ شيخٍ من عباءٍ ومسوح
وأبيع الزيت بيعاً خاسراً غير ربيع

وقال أيضاً :

فما ميسكٌ يُعلُّ^١ بزنجبيلٍ^٢ ولا عسلٌ بألبان اللقاح
بأشهى من مجاجة^٣ ريق سلمى ولا ما في الزقاق من القراح
ولا والله لا أنسى حياتي وثاق الباب دوني واطراحي

١ علّ : شرب ثانوية ؛ تابع عليه الضرب .

٢ الزنجبيل : الحمر ؛ نبات له عقد حريفة الطعم .

٣ المجاجة : الريق ؛ العسل .

وبلغ من استهتاره بحب الخمر أن ذهب من دمشق إلى الحيرة ، لأنه بلغه خبر خمّار لبق نظيف جيد الخمر هناك ؛ قال ابن عساكر : حدث خمّار كان بالحيرة ، قال فتحت يوماً حانوتي ، فإذا فوارس ثلاثة متلثمون بعمائم خز ، قد أقبلوا من طريق السماوة ، وكنت موصوفاً بالنظافة وجودة الخمر وغسل الأواني ، فقال لي أحدهم اسقني رطلاً ، فقممت فغسلت يدي ثم نقرت الدنان ، فنظرت إلى أصفاها فبزلته^١ ، وأخذت قدحاً نظيفاً فملأته ، ثم أخذت منديلاً جديداً فسقيته ، فشرب وقال : اسقني رطلاً آخر ، فسقيته في غير ذلك القدح ، وأعطيته غير ذلك المنديل فشرب وقال : بارك الله عليك ، فما أطيب شرابك وأنظفك ، ما كان رأيي أن أشرب أكثر ، فلما رأيت نظافتك دعيتي نفسي إلى شرب آخر ، فهاته فناولته إياه على تلك السبيل ، ووائى راجعاً في الطريق الذي بدا منه وقال اعذرنا ، ورمى إليّ أحد الرجلين اللذين كانا معه بصرة فيها دنانير ، وإذا هو الوليد بن يزيد ، أقبل من دمشق حتى شرب من شراب الحيرة وانصرف .

وقد أنكر الأتقياء على الوليد منذ كان ولياً للعهد هذه الأعمال ، منهم الزهري ، وهو من العلماء الورعين ، دخل على هشام بن عبد الملك وقدح بالوليد وعابه ، وقال له : يا أمير المؤمنين ، ما يحلُّ لك إلا خلعه ، فانفرجت الحال بينه وبين الوليد ، حتى برح الوليد دمشق مع خواصه إلى الأزرق ، وجعل في تلك البرية واحة أنس ، يقصدها الظرفاء والشعراء والأدباء والمغنون من الشام والحجاز والعراق فضلاً عن الأضياف والعفاة^٢ ؛ قال ابن جرير

١ بزل : بزل الدن : ثقبه .

٢ العفاة : جمع عاف وهو كل طالب رزق .

الطبري : كان الوليد وهو ولي عهد يُطعم من وفدٍ إليه من أهل الصائفة قافلاً ويُطعم من صدر عن الحج بمنزلٍ يقال له زيزاء ثلاثة أيام ويعلف دوابهم .

وظلَّ على تلك الحال إلى أن توفي هشام وبويع بالخلافة فكان شعاره قوله :

كلساني توجاني وبشعري غنياني
إنما الكأسُ ربيعٌ يتعاطى بالبنسان
وحميماً الكأسِ دبَّت بين رجلي ولساني

وجعل قصره جنة فيها ما تشتهي الأنفس وتلذُّ الأعين ؛ استدعى إليه من جميع الأقطار القيان والمغنين والشعراء ورواة الشعر والأدباء والظرفاء والخلعاء والمجان ؛ ذكر ابن جرير الطبري أنَّ الوليد بن يزيد كتب إلى نصر بن سيار عامل خراسان يأمره أن يتخذ له برابطاً^٢ وطنابير^٣ وأباريق ذهب وفضة وأن يجمع له كل صناجة بخراسان يقدر عليها ، وكل بازي وبرذون فاره ثم يسير بذلك كله بنفسه ، فلم يدع نصر بخراسان جارية ولا عبداً ولا برذوناً فارهاً إلاَّ أعدَّه واشترى ألف مملوك وأعطاهم السلاح وحملهم على الخيل وأعدَّ خمسمائة وصيفة^٤ وأمر بصنعة أباريق الذهب والفضة ، وتمائيل الأطباء ورؤوس السباع والأيايل وغير ذلك ، فلما فرغ من ذلك كله ، كتب إليه الوليد يستحثه فمرح الهدايا حتى بلغ أوائلها بيهق فقال بعض شعرائهم في ذلك :

١ حميماً : سورة الخمر .

٢ برابط : جمع بربط وهو العود .

٣ طنابير : جمع طنبور وهو آلة موسيقية يضرب عليها .

٤ وصيفة : الخادمة .

أبشر يا أمين اللآ ه أبشر بتباشير^١
 بلبل يُحملُ المالُ عليها كالأنابير
 بغالٌ تحملُ الحمرَ حقائقها طنساير
 ودلُّ البربرياتِ بصوت البم^١ والزير^٢
 وقرعُ الدفِّ أحياناً ونفخُ بالمزامير
 فهذا لك في الدنيا وفي الجنة تحبير^٣

قال صاحب الأغاني : لما ولي الوليد بن يزيد لهج بالغناء والشراب والصيد وحمل المغنين من المدينة وغيرها إليه وأرسل إلى أشعب ، فجاء به فألبسه سراويل من جلد قرد له ذنب وقال ارقص وغني شعراً يعجبني ، فإن فعلت ، فلك ألف درهم فغناه فأعجبه فأعطاه ألف درهم .

واجتمع عنده من المغنين معبد وابن عائشة وابن سريج والغريض ومالك ابن أبي السمح وعمر الوادي وحكم الوادي وأبو كامل وخالد صامة والهدلي ويونس الكاتب وإسماعيل بن الهربز وعطرد والأبجر ودحمان وغيرهم .

ومن الشعراء طريح بن إسماعيل الثقفي وابن ميادة والحسيني بن مطير الأسدي وإسماعيل بن يسار ويزيد بن ضبة وسعيد بن عبد الرحمن بن حسان ومروان بن أبي حفصة والقاسم بن الطويل العبادي وغيرهم :

واستدعى من الندماء المجان شراعة بن الزنذبوذ ومطيع بن إياس الكتاني وحماد عجرد والمطيعي المغني ؛ قال صاحب الأغاني : بعث الوليد بن يزيد

١ البم : أغلظ أوتار العود وأغلظ أصواته .

٢ الزير : الدقيق من الأوتار .

٣ تحبير : تزين ، تحسن .

إلى شراعة بن الزندبوذ ، فلما قدم عليه ، قال يا شراعة إني لم استحضرك
لأسألك عن العلم ، ولا لأستفتيك في الفقه ، ولا لتحديثي ولا لتقرئني القرآن ؛ قال لو
سألتني عن هذا لوجدتني فيه حماراً ؛ قال فكيف علمك بالفتوة ١ ؟ قال
ابن بجدتها وعلى الخبير بها سقطت ؛ فسل عما شئت ، قال فكيف علمك
بالأشربة ؟ قال ليسألني أمير المؤمنين عما أحب ، قال فما قولك في الماء ؟
قال هو الحياة ويشركني فيه الحمار ؛ قال فاللبن ؛ قال ما رأيته قط إلا ذكرت
أمي فاستحييت ؛ قال فالخمر ؟ قال تلك السارة البارة وشراب أهل الجنة ،
قال لله درك ! فأني شيء أحسن ما يشرب عليه ، قال عجبك لمن قدر أن
يشرب على وجه السماء في كن من الحر والقر كيف يختار عليها شيئاً .

وقال لمطيع بن إياس : أي الأشياء أطيب عندك ؟ قال صهباء صافية
تمزجها غانية بماء غادية ، قال صدقت .

واستدعى أيضاً حماد الراوية ليروي له شعر العرب .

هذه المجموعة النادرة من ذوي الأدب والفن والمواهب ، كانت تعمر
مجالسه وفيهم يقول :

سقيت أبسا كاملٍ من الأصفرِ البابلي
وسقيتها معبدا وكلّ فتى فاضل
لي المحض من ودّهم ويغمرهم نسائي
فمسا لامني فيهمس سوى حاسدٍ جاهل

أضف إلى هؤلاء باقة من محسنات القيان وحسان الوصائف تنفث السحر

١ الفتوة : الشباب ؛ الكرم والبروة .

في أرجاء تلك المجالس ؛ قال حماد الراوية : دعاني الوليد يوماً من الأيام
في السحر ، والقمر طالع ، وعنده جماعة من ندمائه ، وقد اصطبج ، فقال
أنشدني النسيب فأنشدته أشعاراً كثيرة ، فلم يهش لشيء منها حتى أنشدته
قول عدي بن زيد :

أصبح القوم قهوة^٢ في الأباريق تحتدى^٣
من كميت^٤ مدامة حينئذ تلسك حينئذ

فطرب ثم رفع رأسه إلى خادم وكان قائماً كأنه الشمس ، فأوماً إليه ،
فكشف سترأ خلف ظهره ، فطلع منه أربعون وصيفاً ووصيفة كأنهم اللؤلؤ
المتثور ، في أيديهم الأباريق والمناديل ، فقال اسقوهم فما بقي أحد إلا
أسقي وأنا في خلال ذلك أنشد الشعر ، فما زال يشرب ويسقي إلى طلوع
الفجر ، ثم لم نخرج عن حضرته حتى حملنا الفراشون في البسط ، فألقونا
في دار الضيافة ، فما أفقنا حتى طلعت الشمس .

وقال صاحب الأغاني أيضاً : اشتاق الوليد بن يزيد إلى معبد فوجه
إليه إلى المدينة فأحضر ، وبلغ الوليد قدومه ، فأمر ببركة بين يدي مجلسه ،
فمئت ماء ورد قد خُاط بمسك وزعفران ، ثم فرش للوليد في داخل البيت
على حافة البركة ، وبسط لمعبد مقابله على حافة البركة ليس معهما ثالث ،
وجيء بمعبد فرأى سترأ مرخى ومجلس رجل واحد ، فقال له الحجاب ،
يا معبد سلم على أمير المؤمنين واجلس في هذا الموضع ، فسلم فرد عليه

١ القهوة : الحمرة .

٢ تحتدى : يقتدى بها ويتشبهه .

٣ الكميت : من أسماء الحمرة لما فيها من سواد وحمرة .

الوليد السلام من خلف الستر ثم قال له حيّاك الله يا معبد ، أتدري لم وجهت إليك ؟ قال الله أعلم وأمير المؤمنين ، قال ذكرتك فأحببت أن أسمع منك ، قال معبد : أأغني ما حضر ، أم ما يقترحه أمير المؤمنين ؟ قال : بل غني : ما زال يعدو عليهم ريبٌ دهرهمُ حتى تفتانوا وريبُ الدهر عداءُ

فغناؤه ، فما فرغ حتى رفع الجوارى السجف ، ثم خرج الوليد ، فألقى نفسه في البركة ، فغاص فيها ، ثم خرج منها فاستقبله الجوارى بثياب غير الثياب الأولى ، ثم شرب وسقى معبدًا ، ثم قال له غني يا معبد :

يا ربعُ مالك لا تجيب متيما قد عاج نحوك زائراً ومسلما
جادتلك كلُّ سحابةٍ هطّالةٍ حتى ترى عن زهره متبسما
لو كنت تدري من دعاك أجبته وبكيت من حرقٍ عليه إذا دما

فغناه ، وأقبل الجوارى يرفعن الستر ، وخرج الوليد ، فألقى نفسه في البركة ، فغاص فيها ثم خرج ، فلبس ثياباً غير تلك ، ثم شرب وسقى معبدًا ، ثم قال له غني :

عجبتُ لما رأيتني أنذبُ الربعَ المحيلا^١
واقفاً في السدار أبكي لا أرى إلاّ الطلولا
كيف تبكي لأنساسٍ لا يملّون الذميلا^٢
كلّما قلت اطمأنت دارهم قسالوا الرحيلا

فلما غناؤه رمى نفسه في البركة ثم خرج ، فردوا عليه ثيابه ثم شرب وسقى

١ المحيل : الدارس ، المطموس .

٢ الذميل : ضرب من السير .

معبداً ، ثم أقبل عليه الوليد ، فقال يا معبد من أراد أن يزيد عند الملوك حظوة
فليكنتم أسرارهم .

وقد يغلب عايه المجون ، فيسري بأصحابه إلى حيث يطيب لهم التصابي
والغناء والخمر ، قال :

حَبَّداً ليلتي بدير بونسا حيث نُسقى شرابنا ونُعْنَى
كيفما دارت الزجاجةُ درنا يحسبُ الجاهلون أننا جنناً
ومررنا بنسوةٍ عَطِراتٍ وغناءٍ وقهوةٍ فنزلنا
وجعلنا خليفة الله فطرو س مجوناً والمستشار (يُحَنَّا)

وكثيراً ما ترك دمشق إلى أطراف البادية ، ونقل معه تلك المجموعة
الفنية ، فكانت في البادية مدينة فن وجمال وسحر وشعر ، وهو يلهو ويصطاد
ويعقد مجالس الأُنس والشراب والغناء ؛ قال :

ولقد قضيت وإن تجلَّلَ لمتي شيبٌ على رغم العدا لذاتي
من كاعبات كالدُمى ونواصفٍ ومراكبٍ للصيد والنشوات
في فتيةٍ تأبى الهوانَ وجوههم^١ شُمَّ^١ الأنوفِ ججاج^٢ سادات
إن يطلبوا بتراتهم^٣ يعطوا بها أو يطلبوا لا يدركوا بترات
وقال :

أصبح اليومَ وليدٌ هائمًا بالفتيات
عنده راحٌ وإبري^١ ق^٢ وكأسٌ بالفلاة
ابعثوا خيلاً لخييلٍ ورماة^٣ لرممسة

١ شم : كناية عن الشرف .

٢ ججاج : أشرف سادة .

٣ الترة : الثأر ،

قال حماد الراوية يصف مجلساً من مجالسه في أطراف البادية :
انتهيت إلى الوايد وهو بالبحراء ، فاستأذنت عليه فأذن لي ، فإذا هو على سرير
ممهد وعليه ثوبان أصفران إزار ورداء ، يقمئتان الزعفران قيئاً وإذا عنده معبد
ومالك بن أبي السمح وأبو كامل مولاه ، فتركني حتى سكن جأشي ثم قال
لي أنشدني :

أمنَ المنون وريبها تتوجع

فأنشدته حتى أتيت على آخرها ، فقال لساقيه : يا سبرة اسقه فسقاني
ثلاث أكؤس خثرن ما بين الذؤابة والنعل ، ثم قال :
يا مالك غنني :

ألا هلّ هاجك الأظعا^١ نٌ إذْ جاوزنَ مصطلحا

ففاعل ثم قال له غنني :

جلا أميةٌ عني كلّ مظلمةٍ سهل الحجاب وأوفى بالذي وعدا

ففاعل ثم قال له غنني :

أتنسى إذْ تُودّعنا سليمي بفرعِ بشامةٍ سقميَ البشامُ

ففاعل ثم قال له يا سبرة أو يا أبا سبرة اسقني . . .

فأتاه بقدح معوج فسقاه به عشرين ثم أتاه الحاجب فقال :
أصاح الله أمير المؤمنين ، الرجل الذي طلبت بالباب ، قال أدخله فدخل شاب
لم أر شاباً أحسن وجهاً منه ، في رجله بعض الفدع فقال يا سبرة اسقه فسقاه
كأساً ثم قال له غنني :

١ الأظعان : جمع ظمينة ، المودج به المرأة .

وهيَ إذ ذاك عليها مئزرٌ ولها بيت جوار من لعبُ

فغناه ، فنبذ إليه الثوبين ثم قال غني :

طاف الخيالُ فمرحبا ألفاً برؤية زينبا

فغضب معبد^١ ، وقال يا أمير المؤمنين إننا مقبلون عليك بأقدارنا وأسناننا وأنت تركتنا بمزجر الكلب وأقبلت على هذا الصبي ، فقال والله يا أبا عباد ما جهلت قدرك ولا سنك ، ولكنَّ هذا الغلام طرخني في مثل الطناجير من حرارة غنائه ؛ قال حماد : فسألت عن الغلام فقيل لي هو ابن عائشة .

وأفرط الوليد في الخلاعة والمجون والشراب حتى بولغ عنه في ذلك ، فروي أنه كانت تملأ له بركة من الخمر ، فإذا غناه المغنون ، وشاعت به نشوة الكأس والطرب ، ألقى نفسه في البركة .

وكان معه من المغنين يوم قتل ابن عائشة^٢ ومالك بن أبي السمح^٣ .

١ معبد : أبو عباد معبد بن وهب مولى ابن قطر ، هو فحل المغنين وإمام أهل المدينة في الغناء ، أخذ عن سائب خاثر ونشيط وجميلة .

٢ ابن عائشة : محمد بن عائشة ، أخذ الغناء عن معبد ومالك ، كان يفتن كل من سمعه .

٣ مالك بن أبي السمح : أبو الوليد مالك بن أبي السمح أخذ الغناء عن جميلة ومعبد ، وعمر حتى أدرك الدولة العباسية ومات في خلافة المنصور .

أدبه وثقافته

لا نعرف من مؤدبي الوليد غير عبد الصمد بن عبد الأعلى الشيباني ويزيد ابن أبي مساحق السلمي وكلاهما أديب شاعر ، ولكن الأول يُتَّهَم بالخلاعة والمجون ويرمى بالزندقة ، ويقال إنه هو الذي أغرى الوايد بالتهتك والمجون ؛ وأما الثاني فقد كان متصوفاً بعيداً عما يُرمى به عبد الصمد ولكنه لم يحظَ عند الوليد كما حظي عبد الصمد الذي كان يرى فيه الوليد مؤدباً وندبياً . يظهر في شعر الوليد أثر من الثقافة الإسلامية كذكر القرآن وبعض الأحكام الشرعية كاللحلال والحرام والبدعة ؛ قال يذكر القرآن في أرجوزة جعلها خطبة في إحدى الجمع وفيها مواعظ ونصائح كثيرة :

ثم القرآن والهدى السبيلُ قد بميا لما مضى الرسول

وقال من أبيات :

وما أتينا ذاك عن بدعةٍ أحلّه الفرقانُ لي أجمعا

وقد روى الوليد الحديث ولكن يظهر أن الناس تركوا الرواية عنه لخلاعته وتهتكه .

قال ابن عساكر في التاريخ الكبير : « ومن يحدث من بني أمية الوليد ابن يزيد ولم تقع له إلينا رواية »

وكان معدوداً من الخطباء الفصحاء يخطب الناس في الجامع الأموي في الجمع والعيدين . قال الهيثم بن عمران ، لما بويح الوليد سمعته على المنبر بدمشق يقول :

ضمنتُ لكم إن لم ترعني منيتي بأن سماءَ الضرّ عنكم ستقلعُ
وقال صاحب الأغانى : قيل للوليد إنَّ اليوم الجمعة ، فقال والله لأخطببنهم
اليوم بشعر ، فصعد المنبر ، فخطب فقال :

الحمد لله وليّ الحمــــد أحمده في يسرنا والجهد

وأتمّ الأرجوزة .

وحفظ من كلامه قوله لهشام يوم توفي مسلمة بن عبد الملك « يا أمير
المؤمنين إنَّ عقبي من بقي لحوق من مضى ، وقد أقفر بعد مسلمة الصيد لمن
رمى واختل الثغر فوهى وعلى أثر من سلف يمضي من خلف فتزودوا فإنَّ
خير الزاد التقوى »

ومن كلامه الفصيح قوله : « إن النعمة إذا طالت بالعبد ممتدة أبطرته
فساء حمل الكرامة ، واستقل العافية ونسب ما في يديه إلى حيلته وحسبه وبيته
ورھطه وعشيرته ، فإذا نزلت به الغير ، وانكشفت عنه عمایة الغي والسلطان
ذل منقاداً وندم حسيراً وتمكن منه عدوه قادراً عليه قاهراً له »

وقوله : « يا بني أمية إياكم والغناء فإنه ينقص الحياء ويزيد في الشهوة ،
ويهدم المروعة ، وينوب عن الحمر ، ويفعل فعل السكر ، فإن كنتم لا بدّ
فاعلين فجنبوه النساء ، فإن الغناء رقية الزنا ؛ أقول ذلك فيه على أنه أحبُّ إليّ
من كل لذة وأشهى إليّ من الماء إلى ذي غلة ولكنَّ الحقَّ أحقُّ أن يقال » .

وقيل له لما غلبت عليه لِدَاتُهُ : يا أمير المؤمنين إنَّ الرعية ضاعت بتضييعك
أمرها فقال : « ما الذي أغفلناه من واجب حقها وأزمناه من مفروض ذمامها
أمّا كرمنا دائم ومعروفنا شامل وسلطاننا قائم وإنما لنا ما نحن فيه بسط لنا
في النعمة ومكن لنا في المكرمة وأزكى لنا في الأمة ومدّ لنا في الحرمة

فإن تركت ما به وسع وامتنعت عما به أنعم كنت أنا المزيل لنعمتي بما لا ينال
الرعية ضرره ولا يؤذيها ثقله ؛ يا حاجب لا تأذن لأحد في الكلام »

لم يكن الوليد مُحدّثاً ولا فقيهاً ولا إخبارياً ، ولكنه كان شاعراً أديباً
ظريفاً وفصيحاَ حاضرَ الجواب ، كما كان مشغوفاً بالغناء عارفاً به وبآلاته .

قال صاحب الأغاني : وممن غنّى من الخلفاء الوليد بن يزيد ، وله أصوات
صنعها مشهورة ، وكان يضرب بالعود ويوقع بالطبل ، ويمشي بالدف على
مذهب أهل الحجاز .

قال خالد صامة المغني : كنت يوماً عند الوليد بن يزيد وأنا أغنيه :

أراني الله يا سلمى حياتي

وهو يشرب حتى سكر ثم قال لي هات العود فدفعته إليه فغنّاه أحسن
غناء فنفست عليه^١ إحسانه ودعوت بطبل فجعلت أوقع عليه وهو يضرب
حتى دفع العود وأخذ الطبل فجعل يوقع به أحسن إيقاع ثم دعا بدف فأخذه
ومشى به وجعل يغني أهزاج طويس^٢ حتى قلت قد عاش ، ثم جلس وقد
انبهر ، فقلت يا سيدي : كيف أرى أنك تأخذ عنا ؟ ونحن الآن نحتاج إلى
الأخذ عنك ، فقال : اسكت وبلك فوالله لئن سمع هذا منك أحد ما دمت
حياً لأقتلنك ؛ فوالله ما حكيمته عنه حتى قتل .

وقال صاحب الأغاني : لما قدم الوليد بن يزيد مكة ، سأل عن أحسن
الناس غناء وحكاية^٣ لابن سريج ، فقيل له : يحيى مولى العبلات المعروف

١ نفس عليه : حسده .

٢ طويس : هو عيسى بن عبد الله مولى بني مخزوم كان من أشهر المغنين والعارفين بصناعة
الغناء في صدر الإسلام ، وهو أول من غنى بالمدينة .

بقيل ، فدعاه ، وقال له امش بالدفع ففعل ، ثم قال له الوليد هاته حتى أمشي به ، فإن أخطأت فقومي ، فمشى به أحسن من مشية قيل ، فقال له : جعلت فداك ، ائذن لي حتى اختلف إليك لأتعلم منك . ومن مشهور صنعته في شعره قوله :

وصفراء في الكأس كالزعفران سبأها التجيبيُّ من عسقلان
تريك القذاةَ وعرض الإنا عِ سترٌ لها دون لمس البنان

وقال عمر الوادي : دخلت على الوليد وعنده أصحابه وقد تغدى وهو يشرب ، فقال لي اشرب ، فشربت وطرب وغنّيت صوتاً واحداً وأخذ دفاقة فدفف بها ، فأخذ كل واحد منا دفاقة يدفف بها .

وبلغ من حب الوايد للأدب والأدباء والرواة ، أن استدعاهم من كل طرف ، وأغدق عليهم العطايا كحماد الراوية وحماد عجرد ؛ قال حماد الراوية : استدعاني الوليد بن يزيد وأمر لي بألفين لنفقتي وألفين لعيالي ، فقدمت عليه ، فلما دخلت داره ، قال لي الخادم : أمير المؤمنين من خلف الستارة الحمراء ، فسلمت بالخلافة ، فقال لي يا حماد ! قلت لبيك يا أمير المؤمنين ، قال ثم ثاروا ، فلم أدر ما يعني ، قال : ويحك يا حماد ، ثم ثاروا ، فقلت في نفسي راوية أهل العراق لا يدري عما يُسأل ثم انتبهت فقلت :

ثم ثاروا إلى الصبوح^١ فقامت^٢ قيمة^٣ في يمينها لابرقي^٤
قدمته على عقار^٥ كعين الد يك صفتي^٦ سلافها^٧ الراوق^٨

١ الصبوح : ما شرب من الخمر صباحاً .

٢ السلاف : أفضل الخمر ؛ ما سال وتخلب قبل العصر .

٣ الراوق : المصفاة .

ثم فضّ الختام عن صاحب الدنّ وقلت لدى اليهودي سوق
فسباها منه أشمّ عزيزيّز أريحيّ غذاه عيش رقيق

الشعر لعدي بن زيد ، قال فإذا جارية قد أخرجت كفاً لطيفة من تحت
الستر ، في يدها قرح ، والله ما أدري أيهما احسن الكف أم القرح فقال :
رديه فما أنصفناه ، تغدينا ولم نغده ، وحضر أبو كامل مولاه فغناه :

أدر الكأس يمينيّاً لا تدرها ليسارٍ

فطرب وبرز إلينا وعليه غلالة موردة ، وشرب حتى سكر ، فأقمت عنده
مدة ، ثم أذن بالانصراف ، وكتب لي إلى عامله بالعراق بعشرة آلاف درهم .

وكان يستدعي المنجمين أيضاً ؛ قال حماد الراوية : كنت عند الوليد
يوماً ، فدخل رجلان كانا منجمين ، فقالا : نظرنا فيما أمرتنا به فوجدناك
تملك سبع سنوات مؤيداً منصوراً ، يستقيم لك الناس ، ويحي لك الخراج ،
فاغتنمتها وأردت أن أخذعه كما خدعاه ، فقلت يا أمير المؤمنين كذبا نحن
أعلم بالرواية والآثار وضروب العلوم منهما ، وقد نظرنا في هذا ونظر الناس
فيه قديماً فوجدناك تملك أربعين سنة في الحال التي وصفا فأطرق الوليد ثم رفع
رأسه إليّ فقال : لا ما قال هذان يكسرنني ، ولا ما قلت يغرنني ، والله لأجيبنّ هذا
المال من حله جباية من يعيش الأبد ، ولأصرفنه في حقه صرف من يموت في غد .

وكان الوليد مع شعره وأدبه وفصاحته ، ذكي القلب ، حاضر الجواب ؛
قال له يوماً العباس بن الوليد بن عبد الملك في مجلس هشام : كيف حبك يا
وليد للروميات فإن أباك كان بهن مشغوفاً ؛ قال إني لأحبهن وكيف لا أحبهن
ولن تزال الواحدة منهن قد جاءت بالهجين مثلك ؛ وكانت أم العباس رومية .

١ الهجين : من كانت أمه غير عربية .

مجونه وخلاعته ورميه بالزندقة

الوليد ماجن خليع متهتك ، وقد مضى في فصل أخلاقه وصفته ، ذكرُ
لهو وعبثه ؛ ولكنَّ أخبار مجونه مبالغ فيها لأنَّ للسياسة يداً في تعظيمها ،
وذلك أنَّ خصومه الذين ثاروا عليه وخلعوه وقتلوه نسبوا إليه كلَّ نقيصة
ونخلوه من الشعر ما هو غاية في الفجور والتعهر وسقوط المروءة والإلحاد،
مما لا يمكن أن يصدر عن فتى نبيل وخليفة ابن خلفاء .

على أنه مهما تثبت الإنسان في أخبار مجون الوليد وشكَّ في بعضها فإنه
لا يستطيع أن ينفي عنه اللهو والخلاعة والتتهتك ، فقد استقدم المجان^١ والخلاء^٢
حين ولي الخلافة من جميع الأطراف كأشعب وحماد عجرد ومطيع بن اياس
والمطيعي ، وكان يفرط في شرب الخمر وسماع الغناء ؛ وقد غاظت هذه
الأعمال مؤدبه يزيد بن أبي مساحق السلمي فبعث إليه بقوله :

مضى الخلفاءُ بالأمرِ الحميدِ وأصبحتِ المذمةُ للوليدِ
تشاغل عن رعيته بلهوى وخالف فعل ذي الرأي الرشيدِ

فكتب إليه الوليد :

ليت حظي اليومَ من كُـلِّ لِّ معاشٍ لي وزادِ
قهوة^٣ أبذلُ فيها طارفي ثم تلامي

١ المجان : جمع ماجن وهو الذي لا يبالي بشيء ، الهازل .

٢ الخلاء : جمع خليع وهو المتهتك .

٣ القهوة : الحمرة .

فيظلُّ القلبُ منها هائلاً في كل واد
إنَّ في ذاك صلاحٍ وصلاحٍ ورشادي

ورموه بالإلحاد واتهموه بالزندقة^١ ونخلوه أبياتاً في ذلك ، لا تجمل روايتها ؛ وقال بعضهم بل كان مانوياً^٢ ، وزعم أنه رأى تمثال ماني عنده إلى غير ذلك من التهم التي تبرر خلع خليفة وقتله ، وقد نفى عنه بعضهم كل ذلك .

وهناك حادثان يمكن أن يستأنس بهما الباحث في بعد الوليد عن الإلحاد والزندقة : أولاهما إن اسم أحد أبناء الوليد مؤمن ، والوالد عادة لا يدعو ابنه إلا بأحب الأسماء إليه ، فكيف يسمي الملحد أو الزنديق ابنه مؤمناً .

والثانية هي أن الوليد على كرهه لهشام وأعمال هشام كان يصوبه في نفي القدرية^٣ ، والقدرية من الفرق الإسلامية التي نجمت في أيام بني أمية ، فإذا كان الوليد يتحرج من وجود القدرية في الشام ، فكيف يرضى لنفسه أن يكون زنديقاً .

قال الطبري : قال عمرو بن شراحبيل سيّرنا هشام بن عبد الملك إلى دهلك فلم نزل بها حتى مات هشام ، واستخلف الوليد فكلّم فينا فأبى ، وقال : والله ما عمل هشام عملاً أرجى له عندي أن تناله المغفرة من قتله للقدرية وتسييره إياهم .

١ الزندقة : الكفر باطناً مع التظاهر بالإيمان .

٢ المانوية : هم أصحاب ماني الذي ظهر أيام شاپور وقتله بهرام بن هرمز ، يقول ماني : العالم مركب من نور وظلمة وهما أزليان وإن المذهب الذي بشر به بين المجوسية والنصرانية .

٣ القدرية : فئة من المسلمين تقول بأن الإنسان حر الإرادة أي له قدرة على أعماله وكان أسبق من قال بهذا الشيء معبد الجهني وغيلان الدمشقي .

شعره

أبرز صفة في الوليد الشعر ، فهو في شعره أعظم منه في خلافته ، ولو لم يكن شاعراً لما استحق تلك العناية من الأدباء والمؤرخين ، لأنه لم يكن بالخليفة العظيم ، ولا اشتهر بشيء مما اشتهر به أسلافه الخلفاء كدهاء معاوية^١ ، وحزم عبد الملك^٢ ، وعدل عمر^٣ بن عبد العزيز ؛ فالشعر وحده هو الذي أحيا ذكره بالرغم من ضياع أكثره ، وتشتت ما بقي منه موزعاً في كتب الأدب . وتلك البقية من شعره يسيرة لا تتجاوز ثلاثين صفحة ، ومعانيها شخصية تترجم عن نفس الوليد في عبثها ولها وطها وتبذلها وزهوها وغضبها وحزنها ، ويمكن إجمالها بالغزل ووصف الخمر والعتاب والفخر والثناء والهجاء ، ونظم بعض الحوادث كعقد البيعة لولديه وخطبة الجمعة .

ومهما تبذل الوليد في بعض معانيه ، وغلبه المجون فإن سمة النبيل تلوح على شعره من حيث يريد ولا يريد كقوله :

كللاني توجاني وبشعري غنياني

وكقوله :

١ معاوية : معاوية بن أبي سفيان مؤسس الخلافة الأموية وكان أعظم خلفاء بني أمية اشتهر بالدهاء وسعة الصدر .

٢ عبد الملك : عبد الملك بن مروان من أشهر خلفاء بني أمية بعد معاوية ويعد المؤسس الثاني للخلافة الأموية بويوع له بالخلافة بعد وفاة أبيه مروان سنة ٦٥ هـ وتوفي سنة ٦٨ هـ .

٣ عمر بن عبد العزيز بويوع له بالخلافة بعد سليمان بن عبد الملك سنة ٩٩ هـ ، كان زاهداً تقياً ورعاً وعادلاً .

في فتية من بني أمية أهـ لـ المجد والمآثرات والحسب
ما في الوري مثلهم ولا بهمـ مثلي ولا منتمـ للمثل أبي

قال المأمون بخلسانه أنشدوني بيتاً ملك ، يدل البيت وإن لم يعرف قائله
إنه شعر ملك ، فأنشده بعضهم قول امرئ القيس :

أمن أجل أعرابية حلّ أهلها جنوب الملا عيناك تبتلدان

قال وما في هذا مما يدل على ملكه ، قد يجوز أن يقول هذا سوقة من
أهل الحضرة ، فكأنه يؤنب نفسه على التعلق بأعرابية ؛ ثم قال : الشعر الذي يدل
على أن قائله ملك قول الوليد :

اسقني من سلاف ريق سايمي واسق هذا النديم كأساً عقارا

أما ترى إلى إشارته في قوله هذا النديم وإنها إشارة ملك ؛ ومثل قوله :

لي المحض من ودّهم ويغممهم نائلي

وهذا قول من يقدر بالملك على طويات الرجال ليبدل المعروف لهم
ويمكنه استخلاصها لنفسه .

كان الوليد شاعراً مطبوعاً يحب الرقة والهلهلة حتى تفضيها به في أكثر
شعره إلى اللين ، وذلك لأنه نشأ في نعيم الحاضرة وقصور الخلافة ، ولأنه
مطبوع لا يتكلف ولا يبالي بما يقول ، ولأنه غزل ماجن يتكلم بلسان الخلعاء ، ويصور
دلال النساء ؛ واللين في الشعر درجة بين السهل العذب الرقيق والسفساف المبتذل
الركيك ، عرف به بعض شعراء الحواضر في الجاهلية والإسلام ، مثل عدي بن زيد

١ عدي بن زيد : من دهاة الجاهليين من أهل الحيرة ، وهو شاعر يحسن اللغة الفارسية ، كتب
بالعربية في ديوان كسرى ، وعلماء اللغة لا يرون شعره حجة .

العبادي من أهل الحيرة في الجاهلية ، وأمّية بن^١ أبي الصلت الثقفي من أهل الطائف وهو جاهلي أدرك الإسلام .

أما الشعراء الإسلاميون الذين يلوح على شعرهم أثر اللين فأشهرهم : عمر^٢ بن أبي ربيعة المخزومي والعرجي^٣ وابن قيس^٤ الرقيات والوليد بن يزيد وكلهم قرشيون حضريون غزلون .

ولقائل^٥ أن يقول ما بال اللين يكون في شعراء الحضريين في الجاهلية والعصر الأموي ، ولا يطرد هذا القياس في الشعراء المولدين الذين هم أعرق في الحضارة ؟ والجواب على ذلك أن المولدين اتقوا اللين بالدرس والرواية وأخذوا النفس باصطناع الجزالة ، أمّا أولئك فقد كانوا يرسلون أنفسهم على سجيّتها .

وهكذا فأكثر شعر الوليد لين كقوله :

شاع شعري في سليمي واشتهر ورواه الناس^٦ باد^٦ وحضر^٦
وتهادته العذارى بينهـــــا وتغنّين^٦ به حتى^٦ اشتهر^٦
لو رأينا لسليمي أثرا لسجدنا ألف ألف للأثر
واتخذناها إمامـــــاً مرتضى ولكانت^٦ حجنا والمعتمر

وقد يبلغ به اللين إلى التبذل^٥ والركاكة^٦ كقوله :

١ أمّية بن أبي الصلت : شاعر جاهلي أدرك الإسلام ولم يسلم ، وطبقته في الشعر دون طبقة الفحول
٢ عمر بن أبي ربيعة : من شعراء العصر الأموي ولم يكن في قریش أشعر منه وهو زعيم الشعراء الغزلين من أهل الحضرة .

٣ العرجي : عبد الله بن عمر الأموي القرشي ، شاعر غزل ينحو نحو ابن أبي ربيعة ولقب بالعرجي لسكناه العرج في الطائف .

٤ ابن قيس الرقيات : شاعر في العصر الأموي كان هواه مع ابن الزبير، شعره رقيق .

٥ التبذل : السقط .

٦ الركاكة : الضعف .

خبروني أن سلمي خرجت يوم المصلى
 فإذا طيرٌ مـسليحٌ فوق غصن يتفلى
 قلت من يعرف سلمي قال ها ثم تعلى
 قلت يا طيرٌ ادن لي قال ها ثم تسدلي
 قلت هل أبصرت سلمي قال لا ثم تولي
 فنكا^١ في القلب ككلماً^٢ باطناً ثم تسعلى

وهو كما يجب قرص هذا النوع من الشعر يجب أن يسمع من شعر الشعراء
 ما كان مثله ؛ قال حماد الرواية : دخلت يوماً على الوليد فاستشديني فأنشدته
 كل ضرب من شعر أهل الجاهلية والإسلام ، فما هسن لشيء منه حتى أخذت
 في السخف فأنشدته لعمار ذي كنان^٣

حببدا أنت يا سلا مة الفين حبدا
 ثم ألفين مضعفـــــــــــــــــ ن وألفين هـــــــــــــــــكذا
 في صميم الأحشاء من ي وفي القلب قد حذا
 حذوة من صبابـــــــــــــــــ تركته مـــــــــــــــــلئدا
 أشتهي منك منك مكاناً بجنب ذا

فضحك حتى استلقى ، وطرب وصفق بيديه ورجليه وأمر بالشراب ،
 فشرب وجعل يستعيدني الأبيات فأعيدها حتى سكر وأمر لي بجائزة .

وكان يستحسن شعر عدي بن زيد وعمر بن أبي ربيعة كثيراً ، قال حماد

١ نكا : مخففة من نكأ .

٢ كالمأ : الكلم : الجرح .

٣ عمار ذي كنان : شاعر إسلامي شعره دون الوسط وهو ما جن .

الراويّة : استنشدي الوليد بن يزيد فأنشده نحواً من ألف قصيدة فما استعادي
إلا قصيدة عمر بن أبي ربيعة :

طال ليلى وتعناني الطربُ واعتراني طولُهم ونصب

كما كان يطرب للسهل الحضري الرقيق من شعر بشار^١ بن برد ، فقد
روي أنه لما أنشد قول بشار :

أيها الساقيان صُبّاً شرابي واسقياني من ريق بيضاء رود
إنّ دائي الظما وإنّ دوائي شربة من رضاب ثغر برود

طرب وقال من لي بمزاج كأسي هذه من ريق سلمى ، فيروى ظمسي
وتطفأ غلتي ، ثم بكى حتى مزج كأسه بدمعه وقال إن فاتنا ذاك فهذا .

كل ذلك يدل على طبعه ومذهبه في السهولة واللين ، على أنّ له من
الجزل ما يدل على أنه قادر عليه لو حاوله ، ولكن حين يجد أو يغضب ،
ففخره وعتابه جزل رصين يحاكي شعر الفحول كقوله يعاتب هشاماً :

فإنّ تك قد مللت القرب مني فسوف ترى مجانبتي وبعدي
وسوف تلوم نفسك إن بقينا وتبلاو الناس والأحوال بعدي
فتندم في الذي فرطت فيه إذا قايست في ذمي وحمدي

وكقوله يفتخر على هشام :

أنا الوليد أبو العباس قد علمت عليا معد مدى كرتي وإقلامي
لني لقي الذروة العليا إذا انتسبوا مقابل بين أخوالي وأعمامي

١ بشار بن برد : أصله من طخارستان ونشأ في البصرة ويعتبره أئمة اللغة أشعر المولدين .
كان ضريراً وأدرك الدولتين الأموية والعباسية ، اتهم بالزندقة فمات ضرباً بالسياط .

بني ليَ المجدَ بانٍ لم يكن وكلاً^١ على منار مضيئاتٍ وأعلام
حللت من جوهر الأعياص^٢ قد علموا في باذخ مشمخر^٣ العز قمقام^٤
صعب المرام يسامي النجم مطلعته يسمو إلى فرع طود شامخ سام

وكقوله حين ثار الناس به :

إذا لم يكن خير مع الشر لم تجسد نصيحاً ولا ذا حاجة حين تفرع
وكانوا إذا همّوا بإحدى هئاتهم حسرت لهم رأسي فلا أتقنع

وشعره بجملته مقطعات وأبيات ، ولا تكاد تجد له قصيدة طويلة .

١ الوكل : الخيان .

٢ الأعياص : أولاد أمية بن عبد شمس الأكبر وهم العاص وأبو العاص .

٣ مشمخر : مرتفع .

٤ قمقام : عظيم .

غزله

ظهر في العصر الأموي طائفة من الشعراء جعلوا الغزل فنهم أو عنوا به أكثر من بقية فنون الشعر كجميل^١ بن معمر العذري وكثير^٢ بن عبد الرحمن الخزاعي وقيس^٣ بن ذريح وعمر بن أبي ربيعة المخزومي والأحوص^٤ بن محمد ، والعرجي^٥ وابن قيس الرقيات ؛ منهم من كان غزله بريئاً عفيفاً ، ومنهم من غلب عليه اللهو والعبث والتهتك .

أمّا غزل الوليد ، فقد كان من غزل المجان الخلاء الذين ظهوروا في أواخر عصر بني أمية كمطيع^٦ بن إياس وعمار ذي كناز ووالبة^٧ بن الحباب . وغزل الوليد من هذا النوع ، منه الرقيق ومنه اللين ، ومنه

- ١ جميل بن معمر : شاعر عاش في العصر الأموي وهو أشهر الشعراء العذريين أحب بثينة وتغزل بها بقصائد من حر الشعر .
- ٢ كثير بن عبد الرحمن : من شعراء العصر الأموي ، كان راوية للشاعر جميل بن معمر وهو من الشعراء الغزلين المطبوعين وصاحبه عزة .
- ٣ قيس بن ذريح : شاعر غزل اشتهر بحبه للبنى بنت الحباب وهو من شعراء العصر الأموي العذريين ، شعره جيد السبك وائصر . توفي سنة ٦٨ هـ .
- ٤ الأحوص : عبد الله بن محمد بن عبد الله الأنصاري ، لقب بالأحوص لضيق في مؤخر عينه ، كان شاعراً هجاء عاصر جريراً والفرزدق .
- ٥ العرجي : وردت ترجمته فليرجع إليها .
- ٦ مطيع بن إياس : من مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، كان شاعراً ماجناً مليح النادرة نادماً الأمين العباسي .
- ٧ والبة بن الحباب : شاعر غزل ماجن وصاف للخمرة تتلمذ عليه الشاعر أبو نواس .

السفساف^١ ، ويندر فيه الجزل ولكنه في كل أنواعه صورة صادقة عن نفس الوليد
 الماجنة الشرهة الوثابة ، لا يتصنع ولا يتكلف ولا يبالي ، بل يرسله كما يجيش به
 صدره ، وهو قليل الصنعة ، واضح المعاني يلتبس بالنثر لولا الوزن والقافية .

ولعل الوليد لم يخلص في حبه لأحد إلا لسامى بنت سعيد بن خالد بن
 عمرو بن عثمان بن عفان ، فلقد لمحها في بيت أبيها وهو شاب فأحبها حباً
 شديداً ، بل جنّ بها جنوناً وطلبها فلم تجبه ، فبقي يلوب عاينها أكثر من
 عشرين سنة يخال لينظر إليها خلصة كأن يجعل نفسه زياتاً ويقف على بابها
 وينادي على الزيت ، لعله ينعم منها بنظرة .

ولقد قال فيها كثيراً من الغزل ، وغزله فيها مجموعة تريك نفس المحب
 في شتى أطوارها ، فتارة يناشدها الحب والقراءة كقوله :

يا سليمي يا سليمي كنت للقلب عذابا
 يا سليمي ابنة عمي برَدَ الليل وطابا
 أيما واشٍ وشي بي فاملئي فاه ترابسا
 ريقها في الصبح مسك باشر العذب الرضابا

وأخرى يستلين قلبها بما يلاقيه من الوجد والهيام :

أراني الله يا سلمى حيساتي وفي يوم الحساب^٢ كما أراك
 ألا تجزين من تيممت^٣ عصراً ومن لو تطابين لقد قضاك
 ومن لو مت مات ولا تمسوتي ولو أنسي له أجل بكاك

١ السفساف : الدث الضعيف .

٢ يوم الحساب : يوم الدينونة .

٣ تيمم : ولّه .

٤ أنساً : آخر .

ومن حقاً لو أعطيَ ما تمنى من الدنيا العريضةِ ما عداك
ومن لو قلتِ مُتْ فأطاق موتاً إذا ذاق المماتَ وما عصاك
أثبي عاشقاً كالفـسـاً معنـى^١ إذا خدرتُ له رجلٌ دعاك

وطوراً يستعذب ما يلاقيه في حبها من المشاق :

لا أسأل الله تغييراً لما صنعتُ نامتُ وقد أسهرتُ عينيَ عيناها
فالليلُ أطولُ شيءٍ حينَ أفقدها والليلُ أقصرُ شيءٍ حينَ ألقاها

وطوراً يضيق بتمنعها ذرعاً فيسب أباهـا :

وقالتُ عند هجوتنا أباهـا أردتَ الصرمَ فانتده^٢ انتداها
أردتَ بعادنا بهجاءِ شيخي وعندك خائلاً تبغي هواها
فإن رضيتُ فذاك وإن تـمادتُ فهبها خـطةً باغت مداها

ثم يستغفرها ويتوب إليها :

غضبتُ سلمى علينا سفاها أن سببتُ اليومَ فيها أباهـا
كان حقُّ العتبِ يا قومُ مني ليس منها كان قلبي فداها
فائن كنت أردت بقلي لأبي سلمى خلافَ هواها
فثكلت اليومَ سلمى فسلمى ملأتُ أرضي معاً وسماها
غير أني لأظنُّ عدواً قد أتاهـا كاشحاً^٣ فأذاها
فلها العتبـى^٤ لدينا وقلْتُ أبدأ حتى أنال رضاها

١ معنـى : موله .

٢ انتده : طرد ، زجر .

٣ الكاشح : من بطن العداوة .

٤ العتبـى : الرضا .

وأحياناً يلاغيه^١ كما تلاغي الأم طفلها :

سليمى ليس لي صبرٌ وإن رخصت لي جيت
فَقَبَّلْتُكَ الْفَيْنِ وَفَدَيْتُ وَحِيَّتُ

ولا شكَّ في أنَّ حبه لسلمى رقق من عواطفه وأصلح من غزله ما ألحَّ عليه المجنون ، ونفخ فيه روح المحبين ورقتهم ؛ قال صاحب الأغاني : خرج الوليد يتصيد ذات يوم ، فصادت كلابه غزالاً ، فأتي به ، فقال حلوه ، فما رأيت أشبه منه جيداً وعينين بسلمى ، ثم أنشأ يقول :

ولقد صدنا غزالاً سانحاً^٢ قد أردنا ذبحه لما سنح
فإذا شبهك ما ننكره حين أزجى^٣ طرفه ثم لمح
فتركناه ولولا حبكم فاعلمي ذلك لقد كان انذبح
أنت يا ظبي طليق آمن فاغد في الغزلان مسروراً ورُح

ولقد ظلت سلمى هذه ممتعة عليه أكثر من عشرين سنة ، حتى بويع بالخلافة ، فأسلس له قيادها ، كأنها أرادت أن تكون أميرة المؤمنين ، فيقال إنه تزوجها ، ولكنها لم تمكث عنده إلا قليلاً ، وعاجلها الموت فحزن عليها حزناً شديداً ورثاها .

١ لاغى : هازل .

٢ السانح : الذي يأتي من جانب اليمين .

٣ أزجى : أرسل .

وصف الخمر

لم يجود الوليد في فن من فنون الشعر ، كما جود في وصف الخمر ، فما بقي من أشعاره في هذا الباب على قلته ، أحسن من سائر شعره ، والوليد يمثل طوراً من أطوار الشعر العربي في صفة الخمر ، لأن شعراء الجاهلية وإن وصفوها ، فلم يتعدوا أثر نشوتها في الشارب وما تبعته في النفس من الأريحية مع إلام بلونها ورائحتها على سبيل الإيجاز .

أما الشعراء الإسلاميون ، فقد سكت أكثرهم عنها تحرجاً وتأثماً ؛ ومن ذكرها منهم أو من النصارى كالأخطل تناول وصفها على الأسلوب الجاهلي المجميل . والغريب أن الشعراء الغزلين في العصر الأموي ، كعمر بن أبي ربيعة وجميل^١ بن معمر وغيرهما تحرجوا عن وصفها .

أما الوليد فقد وصف الخمر ونشوتها وصفاء لونها ورقة جوهرها ورائحتها وبريقها في الكأس صرفاً وممزوجة ، وشبهها بالقبس والشرر والذهب ووصف دنائها وزقاقها^٢ وجرارها ، وشبه حببها بلمعة البرق ، ووصف مجالس الشرب والغناء ، وما يكون فيها من المجون والعردة في القصور والديرة^٣ قال :

اصدع^٤ نجى^٤ الهموم^٤ بالطرب^٤ وانعم^٤ على الدهر بابنة العنب^٤

١ جميل بن معمر : شاعر عاش في العصر الأموي وهو من أشهر الشعراء العذريين ، أحب بشيئة ولما اشتهر أمرهما امتنع والد بشيئة من تزويج ابنته جميلاً شأن عادة العرب .

٢ الزقاق : جمع زق وهو وعاء الخمر .

٣ الديرة : جمع دير .

٤ نجى الهموم : هو القلب .

واستقبل العيشَ في غضارتيه لا تقف منه آثارَ معتقبٍ
من قهوةٍ زانها تقادُمُها فهي عجوزٌ تعلو على الحقب
أشهى إلى الشربِ يومَ جلوتها من الفتاةِ الكريمةِ النسبِ
فقد تجلّت ورقاً جوهرها حتى تبدّت في منظرٍ عجبِ
فهي بغيرِ المزاجِ من شرر وهي لدى المزجِ سائلُ الذهبِ
كأنها في زجاجها قبسٌ تذكو ضياءً في عينٍ مرتقبِ

وقال :

وصفراءَ في الكأسِ كالزعفران^٣ سباهاً التجميبي من عسقلان^٤
تُريك القذاة^٥ ، وعرض الإ ناء سترٌ لها دون لمس البنان
لها حبٌ كلّمًا صفتت تراها كلمعةٍ برقٍ يمان

وقال :

عسلاني واسقياني من شرابٍ أصبهاني
إنّ في الكأسِ لمسكاً أو بكفّي من ستاني
إنّما الكأسِ ربيعٌ يتعسّطى بالبنان
وحميماً الكأسِ دبّت بين رجلي ولساني

وهكذا فقد نقل الوليد هذا الفن من الشعر العربي من حظيرته الضيقة

١ الشرب : الذين يجلسون على الشراب .

٢ تذكو : تشع .

٣ الزعفران : ضرب من الزهر أصفر اللون زكي الرائحة .

٤ سباها : حملها إلى بلد آخر ليشرها .

٥ القذاة : ما يقع في الخمر .

٦ الحميا : سورة الخمر .

إلى هذا الميدان الواسع الذي رتع به الشعراء من بعده كأبي نواس^١ والحسين
ابن الضحاك الخاليع^٢ وغيرهما ، ممن أمعن في وصف الخمر .

ويقول صاحب الأغاني : إنَّ كلَّ من وصف الخمر بعد الوليد عيال^٣
عليه مستمد منه مستعين بمعانيه قال : « وللوليد أشعار جواد فمنها ما برزَّ
فيه وجوده ، وتبعه الناس جميعاً فيه وأخذوه ، منه قوله في صفة الخمر :

اصدع نبيَّ الهوم بالطرب

وقال : « وللوليد في ذكر الخمر وصفتها أشعار كثيرة ، قد أخذها
الشعراء فأدخلوها في أشعارهم ، سلخوا معانيها ، وأبو نواس خاصة ، فإنه
سلخ معانيه كلها وجعلها في شعره ، فكررهما في عدة مواضع منه ، ولولا
كراهة التطويل لذكرتها ههنا ، على أنها تنبئ عن نفسها .

١ أبو نواس : هو أبو علي الحسن بن هانيء ، الشاعر المشهور ، ولد في الأهواز ، ونشأ
في البصرة ورحل إلى بغداد ، كان للمحدثين كامريء القيس للمتقدمين ، نظم في جميع أنواع
الشعر وبرز ، وخمرياته أجود شعره . توفي سنة ١٩٨ هـ .

٢ الحسين بن الضحاك : من شعراء الدولة العباسية وأحد ندماء خلفائها ؛ يقال إن أول من جالس
منهم محمد الأمين ، وشعر الضحاك رقيق وأكثره في وصف الخمر .

٣ عيال : فقراء .

خاتمة

شعر الوليد من الشعر الوجداني المعبر عن شعور قائله ، يمتاز بصدق اللهجة والصراحة ، وعدم التصنع في معانيه وألفاظه ؛ قصره على نفسه ، فافتخر وتغزل وعاتب ووصف الخمر ورثى وهجا ، ولكنه لم يمدح أحداً ولم يرث إلا من أحب من أصفياؤه وأقاربه وأحبابه .

وأكثر شعره في الغزل والمجون والخمر ، حيث يرسل نفسه على سجيتها ، فيرق ويعذب ويسهل ويلين ويعبث ويمزح فيكون ظريفاً فكهاً .

أما في بقية الفنون التي نظم بها فهو أجزل سبكاً وأمتن وصفاً وأحكم قافية لبعدها عن مواطن التبذل والمجون ؛ ففي الرثاء مثلاً تراه عميق الحزن ، قليل الجلد ، كثير الجزع ، لأنه لم يرث إلا أحبابه وأقاربه ، كقوله يرثي ابنه مؤمناً :

أتاني سنان^١ بالوداع (لمؤمن) فقلت له إني إلى الله راجعُ
ألا أيها الحائي^٢ عليه تُرابه هبلى^٣ وشأست من يديك الأصابع
يقولون لا تجزع^٤ وأظهر^٥ جلادة^٦ فكيف بما تحنى^٧ عليه الأضالع

وكقوله يرثي سلمى بنت سعيد :

١ الحائي : الذي يهيل التراب .

٢ هبلى : تكلمت .

٣ حنا : لوى .

يا سام كنت كعجنة قد أطعمت^١ أفنانها دان جناها موضع^٢
 أربابها شققاً عليها نومهم^٣ تحليل موضعها ولماً يهجعوا
 حتى إذا فسخ الربيع^٤ ظنونهم^٥ نثر الخريف ثمارها فتصدعوا

وكقوله :

ألمّا تعلمنا سلمى أقسامت^١ مضمنة^٢ من الصحراء لحدا
 لعمرك يا وليد^٣ لقد أجنّوا بها حسباً ومكرمة^٤ ومجدا
 ووجهاً كان يقصر عن مداه شعاع^٥ الشمس، أهل^٦ أن يقدى
 فلم أر مبيتاً أبكى لعين^٧ وأكثر^٨ جازعاً وأجل^٩ فقدا

وكذلك في العتاب ، فإنه يشتد أسره^١ ، لأنه جاد مغيظ ، يعاتب الخليفة
 الذي حاول أن يخلعه من ولاية العهد ، فترى الأسى والغضب والاستعطاف
 والتقريع واللين والشماس^٢ مع بعضها في عتابه كقوله :

أليس عظيماً أن^١ أرى كل^٢ وارد^٣ حياضك^٤ يوماً صادراً بالنوافل^٥؛
 فأرجع محمود^٦ الرجاء مصرّداً^٧ بتحلثة^٨ عن ورد^٩ تلك المناهل
 فأصبحت^{١٠} مما كنت آمل منكم^{١١} وائس^{١٢} بلاق^{١٣} ما رجا كل آمل
 كمتقبض^{١٤} يوماً على عرض هبوة^{١٥} يشد^{١٦} عليها كفه^{١٧} بالأنامل

١ الأسر : الخلق الصعب .

٢ الشماس : الامتناع والإباء .

٣ الحياض : جمع حوض وهو مجمع الماء .

٤ النوافل : العطايا .

٥ مصرد : مصيب .

٦ حلا : منع ، دفع .

٧ الورد : النجيع .

٨ الهبوة : الغبرة .

وكقوله :

فإن تكُ قد مللتَ القربَ مني فسوف ترى بجانبتي^١ وبعدي
وسوف تلومُ نفسك إن بقينا وتبلو الناسَ والأحوال بعدي
وتندم في الذي فرَّطتَ فيه إذا قاسيتَ في ذمي وحمدي

وكقوله :

كفرت يداً من منعمٍ لو شكرتها جزاك بها الرحمنُ ذو الفضل والمنِّ^٢
رأيتك تبني جاهداً في قطيعتي فلو كنتَ ذا حزمٍ لهدمتَ ما تبني
أراك على الباقيين تجني ضغينةً^٣ فويلٌ لهم إن متَّ من شرِّ ما تجني
كأنِّي بهم يوماً ، وأكثرُ قولهم ألا ليتَ أنا حينَ يا ليت لا تغني

وكقوله :

أنا النذيرُ لمسدي نعمة أبسداً إلى المقاريف^٣ ما لم يخبرِ الدخلاءُ
إن أنتَ أكرمتهمُ ألفيتهمُ بطروا وإن أهنتهمُ ألفيتهمُ ذللاً^٤
أشمخون ومنا رأس نعمتكمُ ستعلمون إذا أبصرتهمُ الدولا
انظرُ فإن أنتَ لم تقدرُ على مثل لهمُ سوى الكابِ فاضربه لهمُ مثلاً
بيئنا يُسمَّنه للصييد صاحبه حتى إذا ما استوى من بعدما هزلا
عدا عليه فلم تضره عدوتهُ واو أطاق له أكلاً لقد أكلا

١ المجازية : القطيعة .

٢ الضغينة : الحقد .

٣ المقاريف : جمع مقرف وهو من كان أبوه غير عربي .

٤ الدخلاء : القوم الذين ينتسبون إلى من ليس منهم .

٥ ذلل : أذلاء .

وهكذا فإنّ عتابه من حر الشعر وجيده .

وهو من أجزل ما يكون إذا افتخر وسما برأسه الى آبائه خلفاء الاسلام
وأشياخ الجاهلية وشموس^١ العرب كقوله :

أنا الوليدُ أبو العباسِ قد علمتُ عليا معدُّ مدى كرِّي وإقدامي
إني لفي الذروةِ العايا إذا انتسبوا مقابلٌ بين أخوالي وأعمامي
بني لي المجدَ بان لم يكنْ وكِلاٌ على منارٍ مضيئات وأعلام
حللت من جوهر الأعياص^٢ قد علموا في باذخٍ مشمخرٌ العز قمقام^٣
صعب المرام يسامي النجمَ مطلعهُ يسدو إلى فرع طودٍ شامخ سام

وما عدا ذلك من المعاني التي عاجلها كشماتته بموت هشام وهجائه ،
فقايل لا يُعتد به ولا يخرج عن أسلوبه في الصراحة والسهولة .

١ شموس العرب : بنو عبد شمس .

٢ الأعياص : سبق أن شرحت فليرجع إلى الشرح ص ١١٤ .

٣ قمقام : سبق أن شرحت فليرجع إلى الشرح ص ١١٤ .

الطرمّاح بن حكيم الطائي

هو الطرمّاح بن حكيم بن الحكم بن نفر بن قيس بن جحدر الطائي ، ويكنى أبا نفر وأبا ضبيّنة ، ينتهي نسبه إلى طيء ، وبنو طيء من العرب القحطانية ، كانت منازلهم باليمن فخرجوا منها بجاذثة سيل العرم فنزلوا بنجد والحجاز على القرب من بني أسد ، ثم غلبوا بني أسد على جبلي أجباً وسلمى من بلاد نجد ، فنزلوهما فعرفا بجبلي طيء ، ثم افترقوا في أول الإسلام زمن الفتوح في الأقطار ، ولهم بطون كثيرة^١ في الشام والعراق .

كان نفر بن قيس أحد أجداد الطرمّاح شاعراً ذكر له أبو تمام الطائي في الحماسة هذين البيتين :

ألا قالت يُهيشةُ ما لنفري أراه غيَّرتُ منه الدهورُ
وأنتِ كذاكَ قد غيَّرتِ بعدي وكنتِ كأنك الشعري^٢ العبور

وكان قيس بن جحدر والد نفر ابن خالة حاتم الطائي^٣ ، أسره بعض ملوك بني جفنة بدمشق ، فدخل عليه حاتم فاستوهبه إياه وقال^٤ :

- ١ صحیح الأعمش للقلقشندي ج ١ ص ٣٢٠ حسب ما أورده مؤلف هذا الكتاب .
- ٢ الشعري العبور : الكوكب الذي يطلع في الجوزاء ، وطلوعه في شدة الحر ويقال له الشعري اليمانية وتلقب بالعبور .
- ٣ حاتم الطائي : كان يضرب المثل به في شدة الكرم وهو أحد الأجداد المشهورين والشعراء المجودين زمن الجاهلية .
- ٤ الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٤٠ وبلوغ الأرب ص ٢٦٦ كما ذكر مؤلف الكتاب .

فككت عدياً كاتبها من إساها فأفضل وشفعني بقيس بن جحدر
أبوه أبي والأم من أمهاتنا فأنعم فدتك اليوم نفسي ومعشري
وقيس بن جحدر هذا وفد على النبي عامه السلام وأسلم وورد اسمه في
كتب طبقات الصحابة^١

والطرماع من فحول الشعراء الإسلاميين ، ولد ومات في العصر الأموي ،
ولم ينص أحد ممن ترجم له من المتقدمين على تاريخ ولادته أو وفاته ،
ولكن بعض أخباره وأشعاره تعين على معرفة ذلك على سبيل التقريب .

ولد الطرماع في الشام ، ونشأ بها كما نص على ذلك كل من ترجم له
دون أن يعينوا المدينة أو القرية التي ولد بها ، ولا يبعد أن يكون حوالي منتصف
القرن الأول كما سيأتي ، ونحن لا نعلم من أحواله وهو في الشام شيئاً ، بل
جميع ما روي من أخباره كان بعد نزوحه عنها ، ولكنه ظل يفخر بشاميته
كما يفخر بقحطانيته :

ونجّاك من أسد العراق كتائبُ لقحطان أهل الشام يوم استهانتِ ،
بهم ينصر الله الخليفةَ كما رأوا نعلَ صنديد عن الحق زلت

وقال :

فبعزنا نصير النبي محمدُ وبنا تثبتت في دمشق المنبر^٢

وانتقل من الشام إلى الكوفة مع من وردها من جيوش أهل الشام ولا

١ الإصابة في تمييز الصحابة ج ٥ ص ٢٤٨ كما ورد في مخطوطة المؤلف .

٢ كناية عن عرش بني أمية وورد في الديوان ص ١٧٥ كما ذكر المؤلف .

يماني تبوع للمساعي يدها وكل ذي حسب يماني

يُبعد أن يكون ذلك بعد سنة سبعين ، إذ قمع عبد الملك بن مروان بجيوش أهل الشام نواثر^١ العراق ، وقد نكون غير مخطئين إذا قدرنا أن الطرماع وقتئذ كان في العقد الثالث من عمره كأكثر الجنود عادةً ونزل بالكوفة في تيم اللات بن ثعلبة ، وأخذ عن شيخ منهم مذهب الخوارج كما سيأتي ، ولكن لم يرد عنه أنه حارب مع الخوارج ، وبالكوفة صحب الكميته بن زيد الشاعر^٢ ، وتوثقت بينهما عرى الصداقة على اختلاف أحوالهما ؛ قال صاحب الأغاني : كان الكميته بن زيد صديقاً للطرماع ، لا يكادان يفترقان في حال من أحوالهما ، فليل للكميته : لا شيء أعجب من صفاء ما بينك وبين الطرماع على تباعد ما يجمعكما من النسب والمذهب والبلاد ، هو شامي قحطاني خارجي^٣ ، وأنت كوفي نزارني شيعي^٤ ، فكيف اتفقتما مع تباين المذهب وشدة العصبية ؟ فقال : اتفقنا على بغض العامة^٥ .

وذهب من الكوفة إلى بلاد فارس وذكر عدة مواضع منها في شعره مثل :
 بم وكرمان وفج الرياح والقاقزان وقزوين .

ألا أيها الليلُ الطويلُ ألاّ أصبحَ بيمٍ وما الإصباحُ منك بأروح
 لئن مرَّ في كرمان ليلى فترُبِّمًا حلا بين تلمّي بابلٍ فالمضيق

١ نواثر : جمع نائرة وهي الفتنة ، العداوة .

٢ الكميته بن زيد : شاعر بني هاشم ، اشتهر في العصر الأموي وكان من شيعة الهاشمين وقد وقف شعره على مدحهم . وله ديوان الهاشميات وقد ترجم للألمانية .

٣ خارجي : نسبة إلى الخوارج لأنهم خرجوا على سيدنا علي بن أبي طالب ، كانوا يكفرون أصحاب الكبراء ويرون الخروج على الإمام واجباً إذا خالف السنة .

٤ شيعي : نسبة إلى الشيعة : وهم الذين يتولون آل البيت ويقولون بإمامة علي دون صاحبيه أبي بكر وعمر .

٥ ورد ذلك في البيان والتبيين للجاحظ ج ١ ص ٥٤ كما ورد في مخطوطة المؤلف .

وقال :

طربتَ وشاقكَ البرقُ اليماني بفتحَ الريحِ فجعَ القاقزانِ
ألم تر أنَّ عرفانَ الثريا يهيج لي بقزوين احتزاني

وذكر الجاحظ في البيان والتبيين^١ ، أنه أقام بالري يشتغل بالتعليم .
وعاد الطرماح إلى الكوفة وأقام بها إلى أن توفي ؛ قال ابن شبرمة :
كان الطرماح لنا جايساً ففقدناه أياماً كثيرة ، فقمنا بأجمعنا لننظر ما فعل ،
وما دهاه ، فلما كنا قريباً من منزله إذا نحن بنعشٍ عليه مطرف أخضر ،
فقلنا لمن هذا النعش ؟ فقليل هذا نعش الطرماح ، فقلنا : والله ما استجاب الله
تعالى له حيث يقول :

وإني لمقتادٌ جوادي وقساذفٌ به وبنفسي العام إحدى المقاذفِ
لأكسبَ مالا^٢ أو أوول^٢ إلى غنى من الله يكفيني عداةَ الخلائفِ
فيا ربُّ إنَّ حانتُ وفاتي فلا تكن على شرح^٣ يعلى بخضر المطارفِ
ولكنَّ قبري بطنُ نسرٍ مقيله^٤ بجوِّ السماء في نسور عواكفِ
وأمني شهيداً ثاوياً في عصابةٍ يصابون في فجعٍ من الأرض خائفِ
فوارس من شيبان ألّف بينهم تقى الله نزالون عند التزاحفِ
إذا فارقوا دنياهم^٥ فارقوا الأذى وصاروا إلى موعود ما في المصاحفِ^٥

١ ج ٢ ص ٢٥٧ كما ورد في مخطوطة مؤلف هذا الكتاب .

٢ آل : صار .

٣ الشرجع : انعش : وردت في شرح المخطوطة .

٤ المقييل : موضع القيلولة ، والقيلولة النوم في نصف النهار .

٥ المصاحف : ج مصحف وهو القرآن الكريم ، ويشير الشاعر إلى ما ورد في الكتاب العزيز
من رفع قدر الشهداء .

ويقول أبو هلال العسكري في جزء من كتاب التصحيف إنَّ الطرماع بقي بعد الفرزدق^١. والفرزدق توفي سنة ١١٢ ، فلا يبعد أن يكون مات بعده بتقليل ، لأنه ليس في أخباره أو شعره ما يدل على أنه عاش طويلاً بعد ذلك التاريخ. ولم يرو عن الطرماع أنه اتصل بأحد من خلفاء بني أمية أو مدحهم ، ولكنه مدح من أمراء العراق يزيد بن المهلب ، وهو قحطاني ، وأشار إلى مقتله يوم العقر بقوله :

كثائب من قحطانٍ بالعقر أوقعتْ وقائعَ فيها أعظمت وأجات

ومدح ابنه مخلد بن يزيد الذي توفي في حياة أبيه حوالي سنة مائة (وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٥٤) كما مدح خالد بن عبد الله القسري ، وهو قحطاني أيضاً ، ولي العراق سنة ١٠٥ وقتل سنة ١٢٦ ، وكان خالد يجله ويؤثره ، ورد في الأغاني : إن الطرماع دخل على القسري فأنشده قوله :

وشيبني ما لا أزال مناهضاً بغير غنى أسمو به وأبوع^٢
وأنَّ رجالَ المال أضحوا وما لهم لَهْمٌ عندَ أبوابِ الملوك شفيح
أخترمي ريب^٣ المنون ولم أنل^٤ من المال ما أعصي به وأطيع

فأمر له بعشرين ألف درهم ، وقال له امض الآن فاعص وأطع .
ومدح الطرماع خالد^٤ بن عبد الله القسري ، فأقبل على العريان بن الهيثم ،

١ مخطوط ص ١٥ كما ورد في مخطوطة المؤلف .

٢ باع : بسط يده بالمعروف .

٣ ريب المنون : صرفه وأحداثه .

٤ خالد بن عبد الله القسري : أمير العراقيين ، وأحد خطباء العرب وأجوادهم ، وهو يمني الأصل دمشقي المولد والنشأة ، ولي مكة للوليد بن عبد الملك .

فقال : إني مدحت الأمير فأحب أن تدخلني عليه ، فدخل إليه ، فقال له : إن الطرماح قد مدحك ، وقال فيك قولاً حسناً ، فقال : ما لي في الشعر من حاجة ، فقال العريان للطرماح تراء له ، فخرج معه ، فلما جاوز دار زياد وصعد المشاة إذا شيء قد ارتفع ، فقال يا عريان : انظر ما هذا ؟ فنظر ثم رجع ، فقال : أصلح الله تعالى الأمير ، هذا شيء بعث به إليك عبد الله بن أبي موسى من سجستان^١ ، فإذا حمر وبغال ورجال وصبيان ونساء ، فقال : يا عريان أين طرماحك هذا ؟ قال : ههنا ، قال : أعطه كل ما قدم به فرجع إلى الكوفة بما شاء ولم ينشده .

ووقعت مهاجاة بين الطرماح والفرزدق ، كان الطرماح موفقاً فيها كثيراً . أما أهل بيت الطرماح ، فنعلم أن اسم زوجته سلمى لأنه ذكرها في شعره ، كما ذكر أيضاً اسم ابنه صمصامة قال :

أَيَا سَلَمَـةَ إِنِّ أَرْجِعُ إِلَيْكَ فَرُبَّمَا رَجَعْتَ وَأَمْرِي لِلْعَدَى غَيْرُ مَفْرَحٍ
أَحَازِرُ يَا صَمِصَامُ إِنِّ مَتَّ أَنْ يَلِي تَرَاثِي وَإِيَّاكَ أَمْرُؤٌ غَيْرُ مَصْلِحٍ

وورد في الأغاني أن له ابناً اسمه صبيرة ، ولصبيرة هذا ولد اسمه يحيى ، روى عنه أبو عبيدة ؛ ومن أحفاد الطرماح أمان بن الصمصامة بن الطرماح ، كان شاعراً نحوياً عالماً باللغة والشعر حافظاً للقريض ، وكان كاتباً عند المهالبة في إفريقية ، فلما تولى إفريقية إبراهيم بن الأغلب سنة ١٨٤ ، وكان ينتسب إلى بني تميم اطرحه ، لأن جده الطرماح هجا بني تميم^٢ .

١ سجستان : ناحية كبيرة ، وولاية واسعة ، وذهب بعضهم إلى أن سجستان اسم للناحية وأن اسم مدينتها زريخ وبينها وبين هراة عشرة أيام وأرضها كلها رملة سبخة . وبين سجستان وكرمان مائة وثلاثون فرسخاً وبها من المدن زالق وروست .

٢ معجم الأدباء لياقوت ج ٢ ص ٣٦١ وبغية الوعاة للسيوطي ص ٢٠٠ ومقدمة ديوان الطرماح كما ورد في مخطوطة مؤلف هذا الكتاب .

ثقافته وصفته وأخلاقه

كان الطرماح واسع الرواية ، تعلم النحو ، وطلب غريب اللغة ، وعلم الأدب ، وهو معدود في الخطباء الفصحاء ، كما هو معدود من فحول الشعراء ؛ قال الجاحظ في البيان والتمييز ج ١ ص ٥٤ : (ومن الخطباء الشعراء الطرماح ابن حكيم الطائي ، وكنيته أبو نفر) ، وقال أيضاً ج ٣ ص ٢٧٢ (وكان الكميث والبعيث والطرماح شعراء خطباء) ، ولكن خطبه لا تزال حتى الآن سرّاً مكتوماً في صدر الزمان .

أمّا حسن تعليمه ، فقد قال الجاحظ أيضاً في كتاب البيان والتمييز ج ٢ ص ٢٥٧ : (قال عبد الأعلى : رأيت الطرماح مؤدباً بالري ، فلم أر أحداً آخذ لعقول الرجال ، ولا أجذب لأسماعهم إلى حديثه منه . ولقد رأيت الصبيان يخرجون من عنده كأنهم قد جالسوا العلماء) .

وفي الأغاني ج ١٠ ص ١٤٩ : أن الكميث أنشد قول الطرماح :
إذا قُبِضتْ نفس الطرماح أخلقت^١ عرى^٢ المجد واسترخی^٣ عنان القصائد
فقال : أي والله وعنان الخطابة والرواية والفصاحة والشجاعة .

وما وصل إلينا من شعر الطرماح مع بعض أخباره يدل على استقامة وجد وحزم وتقوى شأن أكثر الحوارج ، فلم يكن يميل إلى العبث واللهو بل

١ أخلقت : بليت .

٢ عرى : القمة ؛ كل ما يؤخذ باليد من حلقة فهو عروة .

٣ استرخی : صار رخواً .

يغلب عليه الجِد والتصون ، كما أنه كان بعيداً عن مداراة الأمراء ومداجاتهم ، يرى نفسه أكبر من أن يقف بحضرة أمير وينشده الشعر .

قال صاحب الأغاني : وفد الطرماح بن حكيم ، والكميت بن زيد على مخلد بن يزيد المهلبي ، فجلس لهما ودعاهما ، فتقدم الطرماح لينشد ، فقال له : أنشدنا قائماً ، فقال : كلاً ، والله ما قدر الشعر أن أقوم له فيحط مني مقامي وأحط منه بضراعتي وهو عمود الفخر وبيت الذكر لمآثر العرب ، فقبل له فتتح ، ودُعِيَ الكميت فأنشده قائماً ، فأمر له بخمسين ألف درهم ، فلما خرج الكميت شاطرها الطرماح ، وقال له : أنت أبا ضبيينة أبعد همة وأنا أطف حيلة .

والطرماح مع علو همته وأنفته فخور تياه يفخر بنسبه ونفسه ويتعصب للقططانية على العدنانية ، ويعتز بقبيلته وإسلاميته وشاميته ، وأشعاره في ذلك غير قليلة .

قال صاحب الأغاني : مرَّ الطرماح بن حكيم في مسجد البصرة ، وهو يخطر في مشيته ، فقال رجل : من هذا الخطَّار^١؟ فسمعه ، فقال أنا الذي أقول :

لقد زادني حباً لنفسي أنبي بغيض^٢ إلى كل امرئ غير طائل^٢
وأني شقيٌّ باللثام ولا ترى شقياً بهم^٣ إلا كريم^٣ الشمائل^٣
إذا ما رأني قطعَ الطرفَ بينه وبينني فعلَ العارفِ المتجاهلِ

١ الخطَّار : الذي يسير تيهماً .

٢ غير طائل : غير ذي خطر .

٣ الشمائل : جمع شميلة ، الخصلة الرفيعة .

مذهبه

لما ذهب الطرماع من الشام إلى الكوفة ، نزل في تيم اللات بن ثعلبة ، وكان فيهم شيخ من الشراة^١ ، له سمت وهيئة ، وكان الطرماع يجالسه ويسمع منه ، فرسخ كلامه في قلبه ، ودعاه الشيخ إلى مذهبه ، فقبله واعتقده أشد اعتقاد وأصححه حتى مات عليه ؛ هكذا يقول صاحب الأغاني .

ويقول ابن جرير الطبري : إن التعقاع بن قيس عم الطرماع ، كان يرى رأي الخوارج^٢ ، فلا يبعد أن يكون الطرماع كتم مذهبه وهو في الشام خوفاً من الخلفاء ، فلما ذهب إلى الكوفة أعلنه .

ويقول صاحب الأغاني : إنه كان يعتقد مذهب الأزارقة من الشراة ، ويجعله الجاحظ من الصفرية^٣ . وكلا الفرقتين من الخوارج ، وأصولهما واحدة ، واختلافهما في الفروع غير ذي بال . (انظر كتاب الفرق بين الفرق ص ٦٢ و ص ٧٠) .

والأزارقة أكثر تشدداً ، والصفرية ألين جانباً ، ولعل ما قاله الجاحظ هو الصحيح ، لأنه لم يرو عن الطرماع أنه قاتل مع الخوارج بل مدح بعض أمراء العراق من قبل بني أمية وذكر خلافتهم بخير .

١ الشراة : هم الخوارج ، وسموا أنفسهم شراة لأنهم باعوا أنفسهم لله ، وهم الذين خرجوا على علي بن أبي طالب رضي الله عنه وكانوا يكفرون أصحاب الكباثر .
٢ تاريخ الطبري ج ٦ ص ٤٣ ؛ كما ورد في مخطوطة مؤلف الكتاب .
٣ البيان والتبيين ج ١ ص ٥٤ ؛ كما ورد في مخطوطة المؤلف .

وشعره يدل دلالة صريحة على أنه يعتقد أن مذهب الخوارج أصح
اعتقاداً كقوله :

لقد شقيت شقاءً لا انقطاع له إن لم أفرز فوزةً تُنجي من النار
والنار لم ينج من روعاتها أحدٌ إلا المنيب بقلب المخلص الشاري^١

وقوله :

لله درُّ الشراة إنَّهمُ إذا الكرى مال بالطُّلا^٢ أرقوا
يُرجعون الحنينَ آونةً وإن علا ساعةً بهم شهقوا
خوفاً تبيت القلوبُ واجفةً تكاد عنها الصدورُ تنفلق
كيف أرجي الحياةَ بعدهمُ وقد مضى مؤنسيً فانطلقوا
قومٌ شحاح على اعتقادهمُ بالفوزِ مما يخاف قد وثقوا

ولكنه لم يكن خشناً ولا متزمتاً، وصادقته للكيميت بن زيد الشيعي دليل
على دمايته ولين جانبه .

١ الشاري : نسبة إلى الشراة وهم الخوارج .

٢ الطلا : الأعناق .

بقية أخباره

قال صاحب الأغاني^١ : جلس الطرماح في حلقة فيها رجل من بني عبس ،
فأنشده العبسي قول كثير في عبد الملك :

فكنت المعلى إذ أجلت قداحهم^٢ وجال المنيح^٣ وسطها يتقلقل

فقال الطرماح : أما أنه ما أراد أنه أعلاهم كعباً ولكنه موّه عليه في
الظاهر وعنى في الباطن أنه السابع من الخلفاء الذين كان كثير^٤ لا يقول بإمامتهم
لأنه أخرج علياً عليه السلام منهم فإذا أخرجه كان عبد الملك السابع وكذلك
المعلى السابع من القداح فلذلك قال ما قاله وقد ذكر ذلك في موضع آخر فقال :

وكان الخلائف بعد الرسول ل الله كلهم^٥ تابعوا
شهيدان^٣ من بعد صديقتهم^٤ وكان ابن خولى لهم رابعاً
وكان ابنه^٥ بعده خامساً مطيعاً لمن قبله سامعاً
ومروان سادس من قد مضى وكان ابنه بعده سابعاً

فعجب القوم من تنبه الطرماح لمعنى قول كثير ، وقد ذهب على عبد
الملك فظنه مدحاً .

١ ج ١٠ ص ١٥١ كما ورد في مخطوطة المؤلف .

٢ المنيح : قدح بلا نصيب ، يستعار تيمناً بفوزه .

٣ هما عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما .

٤ الصديق هو الخليفة أبو بكر رضي الله عنه .

وفي الأغاني : أن خالد بن كلثوم قال : بينا أنا في مسجد الكوفة ،
أريد الطرماح والكميت ، وهما جالسان بقرب باب الفيل ، إذ رأيت أعرابياً
قد جاء يسحب أهداماً له ، حتى توسط المسجد فخرّ ساجداً ثم رمى ببصره ،
فرأى الكميت والطرماح فقصدتهما ، فقالت : من هذا الخائن الذي وقع بين
هذين الأسدين ، وعجبت من سجده في غير موضع سجود وغير وقت صلاة
فقصدته ثم سلمت عليهم ثم جاست أمامهم ، فالتفت إلى الكميت فقال : أسمعني
شيئاً يا أبا المستهل فأنشده قوله :

أبت هذه النفس إلاً ادكاراً

حتى أتى على آخرها ، فقال : أحسنت يا أبا المستهل في ترقيص هذه القوافي
وتعلم^١ عقدها ، ثم التفت إلى الطرماح ، فقال : أسمعني شيئاً يا أبا ضبيبة فأنشده
كلمته التي يقول فيها :

أساءك تقويض^٢ الخليط^٢ المبين^٢ نعم والنوى قطاعة^٢ للقرائن^٢

فقال : لله درُّ هذا الكلام ما أحسن لإجابته لرويتك إن كنت لأطيل لك
حسداً ، ثم قال الأعرابي : والله لقد قلت بعدكما ثلاثة أشعار ، أما أحدهما
فكذت أطير به في السماء فرحاً ، وأما الثاني فكذت أدعي به الخلافة ، وأما
الثالث فرأيت رقصاناً استفزني به الجذل حتى أتيت عليه . قالوا فهات
فأنشدهم :

أن توهمت من خرقاء منزلةً ماءً الصباية من عينيك مسجوم^٢

١ كذا ولعل الصواب تقليم كما ورد في مخطوطة المؤلف .

٢ الخليط : الزوج ، ابن العم ، الصاحب .

حتى إذا بلغ قوله :

تنجو إذا جعلت تدمي أخشتها ^١ وابتل ^٢ بالزبد الجعد الخراطيم ^٣

قال أعلمتم أي في طلب هذا البيت منذ سنة ، فما ظفرت به إلا أنفا
وأحسبكم قد رأيتم السجدة له ثم أسمعهم قوله :

ما بال عينك منها الماء ينسكب

ثم أنشدهم كالمته الأخرى التي يقول فيها :

إذا الليل عن نشر تجلّى رميته بأمثال أبصار النساء الفوارك ^٤

قال : فضرب الكميت بيده على صدر الطرماح ، ثم قال : هذا والله
الديباج ، لا نسجي ونسجك الكرايس ، فقال الطرماح : لن أقول ذلك ولو
أقررت بجودته ، فغضب ذو الرمة وقال : يا طرماح أنت تحسن أن
تقول :

وكائن ^٥ تخطت ناقتي من مفازة ^٦ إليك ومن أحواض ماء ^٧ مُسدم ^٨
بأعقاره القردان ^٩ هزلى كأنها بوارد صيصاء ^{١٠} الهبيد ^{١١} المحطم ^{١٢}

١ الخراطيم : جمع خرطوم وهو الأنف . ومقدم كل شيء .

٢ الفوارك : جمع فارك وهي المرأة التي تكره زوجها .

٣ المفازة : الغلاة لا ماء فيها .

٤ المسدم : طال عليه العهد وغيره .

٥ صيصاء : حب الحنظل الذي ليس في جوفه لب .

٦ الهبيد : الحنظل .

٧ المحطم : المتكسر .

فأصغى الطرماع إلى الكميت ، وقال له فانظر ما أخذ من ثواب هذا الشعر ، « قال : وهذه قصيدة مدح بها ذو الرمة عبد الملك ، فإم يمدحه فيها ولا ذكره إلاً بهذين البيتين ؛ وسائرهما في ناقته ، فلما قدم على عبد الملك بها أنشده إياها فقال له ما مدحت بهذه القصيدة إلاً ناقتك ، فخذ منها الثواب ، وكان ذو الرمة غير محظوظ من المديح ؛ فلم يفهم ذو الرمة قول الطرماع للكميت فقال له الكميت إنه ذو الرمة وله فضل فأعتبه ، فقال له الطرماع معذرة إليك إن عنان الشعر لفي كفك فارجع معتباً وأقول فيك كما قال أبو المستهل .

١ عبد الملك : هو الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان ، يعد المؤسس الثاني بعد معاوية للخلافة الأموية .

شعره

الطرماح من فحول الشعراء الإسلاميين ، تغلب عليه الجزالة ، حتى تنتهي به في كثير من شعره إلى الغريب والعويص ، ويظهر على شعره أثر الإسلام والإيمان بما أتى به والرغبة فيما دعا إليه والخوف مما نهى عنه ، فهو من هذه الجهة يشبه الفرزدق ، ويزيد عايه بالحد والتصون وخلو شعره من العبث والمجون والغزل الفاحش .

تقرأ شعر الطرماح فترى نفس شاعر فارس سمح جمّ المروءة ، حمي^١ الأنف ، كبير النفس ، حسن الإيمان ، لا يكاد يصرف شعره في سبيل التكسب والزلفى^٢ ، بل يرسله معبراً عما يختلج في نفسه من بواعث الشعر ، فيصف ويتغزل ويفتخر ويهجو ويرسل المثل ، وينطق بالحكمة والموعظة .

وتكاد تكون جميع قصائده الطويلة من هذا النوع لم يمدح بها أحداً ولم يرث بها أحداً ، قالها لوجه الشعر ، فشفى نفسه في زمن كثر به المدّاحون المستجدون .

أمّا وصفه فهو أشبه بوصف شعراء الجاهلية ، يصور البادية وحياتها وطبيعتها ، وما في سمائها وغبرائها ، على أنه حضري ، نشأ في الشام ، ودخل بلاد فارس ، ولكنّ لإهام البادية في وصفه أظهر وعزيف جينها أوضح ، يعبق فيه الشيخ والقيصوم ، ويلمع السراب ، وترغو الإبل ، وهو في جملته

١ حمي الأنف : كناية عن الأنفة والشمم .

٢ الزلفى : التقرب .

وصف دقيق فيه حياة متحركة ، يتناول الدقيق والجليل ، ولكنَّ غرابة اللغة في كثير منه تجعله غريباً عن الأذواق .

وأما غزله ففيه حنين ، يبعث الحنو ، وتشوق يثير الوجد ، ولوعة تمنزى ، وعاطفة شريفة ، يرسله أنفاساً حرّى من غربته في بلاد فارس إلى سلمى التي ملكت قلبه وشغلته عما سواها ، وسلمى هذه هي امرأته وما أعجب قوله فيها :

كأن فؤادي بين أظفار طائرٍ إذا سنحتُ ذكراك من غير مسنح
وذكراك ما لم تسعفِ الدارُ بيننا تباريحُ من عيش الحياة المبرح
أيا سلمُ إنْ أرجعُ إليك فربّما رجعت وأمرى للعدي غير مفرح^١

ولا شك في أنَّ الغربة أرهفت عاطفة حب الأهل والبنين والوطن في نفسه ، وجعلته مشفقاً من حوادث الزمان ، يخشى أن تغتاله المنية وهو بعيد عنهم قال :

أحاذر يا صمصامُ إنْ مت أنْ يلي تراثي وإياك امرؤٌ غيرُ مصلح
إذا صكَّ وسطَ القوم رأسك صكّةً يقول له الناهي ملكتَ فأسجح^٢
وناصرُك الأدنى عليه طعينة^٣ تميدُ إذا استعبرت^٤ ميدَ المرئح

١ أورد المؤلف رحمه الله البيتين التاليين في شرح مخطوطة الشعراء الشاميين نقلاً عن ديوان الطرماح ص ١٣٦ :

أصمصام إن تشفع لأمك تلقها لها شافع في الصدر لم يتبرح
هل الحب إلا أنها لو تعرضت لذبحك يا صمصام قلت لها اذبحي

٢ أسجح : عدل ، كن عادلاً .

٣ الطعينة : الزوجة .

٤ استعبر : بكى .

مفجعة" لا دفع للضميم عندها سوى سفحان الدمع من كل مسفح
إذا جثتها تبكي بكت وتذكرت مع الحزن صولات امرئ غير زمح

وأما فخره ، فمن أبواب شعره الجيدة ، يتم على اعتداده بنفسه وزهوه
بها وافتخاره بفضائله الشخصية وكرم قبيلته ومآثرها واحتقاره للطبقة الدنيا
من الناس ، وعدم احتفاله بالعامه ، وما أعرف فخراً أحلى من قوله :
الآيات .

« لقد زادني حباً لنفسي أنبي » .

١ الزمخ : اللثيم ، وقيل الضعيف .

هجاؤه

الهجاء والفخر هما الفنان اللذان زخر بحرهما ، وتفنن الشعراء بهما في العصر الأموي ، وذلك لتيقظ روح العصبية بين القبائل واختلاف المذاهب السياسية .

وهجاء الطرماع مرٌ لا ذع ، فيه تهكم وسخرية والمعية من غير فحش أو إقذاع ، وهو في الهجاء أكثر لباقة ، وأوسع تصرفاً ، وألسن لغة ، وأحكم قافية ، وأبرع تفنناً منه في جميع أبواب شعره .

روى صاحب الأغاني بسنده عن المفضل قال :

« إذا ركب الطرماع الهجاء فكأنما يُوحى إليه ، ثم أنشد له قوله :

لو حانَ ورد تميمٍ ثم قيل لـهـسا حوض الرسولِ عليه الأزد لم ترد^١
أو أنزل اللهُ وحياً أنْ يعذبها إن لم تعدْ لقتال الأزد^٢ لم تعد
لا عزَّ نصرٌ امرئٍ أضحى له فرس على تميمٍ يريد النصرَ من أحد
لو كان يخفى على الرحمن خافيةً من خلقه خفيت عنه بنو أسد

والغريب أنه في غزله أكثر جداً منه في هجائه . وشعر الطرماع المشتمل على كثير من غريب اللغة وعويصها ، يكاد يخلو منهما إذا كان هجاء ، كأنه

١ ورد الماء : أقبل عليه ليستقي منه .

٢ الأزد : من أعظم قبائل العرب وأشهرها تنقسم إلى أربعة أقسام : أزد شنوءة ، أزد غسان ، أزد عمان ، أزد سارة .

أراد بذلك تقريبه من فهم الناس كلهم ، ليسهل حفظه وتعم روايته ، ولقد مزَّقَ بني تميم^١ - على كثرة شعرائها - تمزيقاً .

وهجاؤه وفخره أجود ما قال من الشعر ، وهو فيهما أكثر براعة وإحساناً وحسن تصرف منه في جميع أبواب شعره ؛ وأثر الدين واضح جلي في طائفة من شعره ، منها قوله^٢ :

كل حيٍّ مستكمل عدَّةَ العم ر ومودٍ إذا انقضى عدَدُهُ
عجباً ما عجبت للجامع الما لَ يباهي به ويرتفدُهُ^٣
ويضيق الذي يصيره اللآ هُ إليه فليس يعتقدُهُ
يومَ لا ينفَعُ المخوَلَ ذا الثر وةٍ خلائُهُ ولا واسدُهُ
يوم يوثق به وخصماه وسط الـ جنِّ والأنس رجائُهُ ويَدُهُ
خاشع الصوت ليس ينفعه ثمَّ أمانيه ولا لسدده^٤

وقوله :

منازل لا ترى الأنصابَ فيها ولا حُفَرَ المبلَى للمنونِ
ولا أثر الدَّارِ ولا المآلي ولكن قد ترى أربَ الحصونِ

١ بنو تميم : قبيلة عظيمة من العدنانية تنتسب إلى تميم بن مر بن أد ، ولتميم بأون كثيرة

منهم الحارث بن تميم وبنو العذير وبنو أسيد و . . .

٢ ديوان الطرماح ص ١١٢ كما ورد في مخطوطة المؤلف رحمه الله .

٣ ارتقد : انتجع .

٤ لدد : جمع لدة وهو من ولد مملك .

لغته

الطرماح من أكثر الشعراء الإسلاميين تتبعاً لغريب اللغة وعوبصها ، ولغته في قسم كبير من شعره أشبه بلغة الرجّاز الذين كانوا يباهون بالغرابة مثل العجاج^١ وابنه رؤبة^٢ وأبي النجم^٣ .

قال محمد بن حبيب : سألت ابن الأعرابي عن ثماني عشرة مسألة كلها من غريب شعر الطرماح ، فلم يعرف منها واحدة ، يقول في جميعها : لا أدري لا أدري .

ولعل السبب في ذلك أنّ الطرماح لم يكن بدوياً ، بل أخذ اللغة على سبيل الطلب واشتغل بالتعليم ، زد على ذلك أنّ رواة الأدب واللغة وقتئذ ، كان يعجبهم هذا النوع ، يستشهدون به ويدونونه ، فكأنما أراد أن يدل بسعة معرفته بلغة العرب وغريبها ، فجمع في كل قصيدة ما لا تكاد تراه في ديوان ليتدارسه الطلاب ويستشهد به الرواة .

وهكذا فقد كان يُسأل عن معاني شعره في مجالس أهل الأدب ويحتج أهل اللغة به ، ويمتحنون معرفتهم بمفرداته ؛ وأبياته المبتوثة في المعاجم اللغوية

١ العجاج : عبد الله بن رؤبة ، ولد في الجاهلية وقال الشعر فيها ثم أسلم وكان راجزاً مجيداً وله ديوان شعر .

٢ رؤبة : رؤبة بن عبد الله العجاج من مشاهير الرجاجز الفصحاء ومن مخضرمي الدولتين الأموية والعباسية ، أخذ عنه أئمة اللغة .

٣ أبو النجم : الفضل بن قدامة ، من المقدمين في الرجز نبغ في العصر الأموي وهو أبرع من العجاج في النعت .

كأساس البلاغة للزنجشري^١ ، والقاموس للفيروزابادي^٢ ولسان العرب على سبيل الاستشهاد كثيرة ، وذلك بالرغم من حملة الأصمعي عليه ، فقد كان لا يحتج به ولا بصاحبه الكميت ويقول : « الكميت تعلم النحو وليس بحجة وكذلك الطرماع وكانا يقولان ما قد سمعاه ولا يفهمانه » .

ولقد أغرق الطرماع في استعمال الغريب وتبعه وتكلفه .

قال العجاج : كان الكميت والطرماع يسألاني عن الغريب فأخبرهما به ثم أراه في شعرهما وقد وضعاه في غير موضعه ، فقليل له ولم ذلك ؟

قال : لأنهما قرويان يصفان ما لم يريا فيضعانه في غير موضعه ، وأنا بدوي أصف ما رأيت فأضعه في موضعه^٣ ، بل زعم بعضهم أن الطرماع كان يجمع ألفاظاً نبطية ويقيدها ثم يعربها ويستعملها في شعره حباً بالإغراب .

قال الأصمعي : ذكر الطرماع عند أبي عمرو بن العلاء فقال رأيت بسواد الكوفة يكتب ألفاظ النبط ، فقلت ما تصنع بهذه ؟ قال أعربها وأدخلها في شعري^٤ .

ولكن الذي ينبغي التنبيه إليه أن الطرماع لا يتكلف الغريب في كل شعره ، وإنما في قسم تتعلق مواضعه بالشاعر نفسه ولا تتعداه إلى سواه فترى القصيدة

١ الزنجشري : محمود بن عمر بن محمد ، جار الله ، من أئمة العلم بالدين واللغة ، أشهر كتبه الكشاف في تفسير القرآن ، أساس البلاغة ، المقامات ، كان معتزلي المذهب توفي سنة ٥٣٨ هـ
٢ الفيروزابادي : من أئمة مؤلفي القواميس العربية ، ولد في شيراز وتعلم بها ثم رحل إلى بغداد ودمشق . من أشهر مؤلفاته القاموس المحيط .

٣ الأغاني ج ٢ ص ١٧ كما ورد في مخطوطة المؤلف رحمه الله .

٤ الموشح للرزباني ص ٢٠٨ كما ورد في مخطوطة المؤلف رحمه الله .

تشتمل على غزل ووصف وفخر وآراء خاصة لا علاقة لها بممدوح يصعب عليه فهمها ، أو مهجو يأمن سيرورتها لغرابة لغتها ، وهذا القسم من شعر الطرماع أشبه بالمقامات التي غني أصحابها بجمع الفصيح والشوارد وجعلوها لطلاب الأدب والخاصة دون العامة .

وهكذا فإننا نرى رواة الأدب وأهل اللغة قد عنوا بهذا النوع من شعر الطرماع أكثر من غيره ولا يبعد أن يكون هو نفسه كان يرويه لتلامذته لأنه اشتغل بالتعالم .

وهناك قسم آخر من شعر الطرماع لا تفرق لغته عن لغة الشعراء المعاصرين له كالفرزدق وجريز ، وأكثره في الهجاء والفخر ، وبعضه في المدح والثناء ، تغلب عليه الجزالة من غير إغراب ، ولا يحتاج القارئ في تفهمه لأكثر مما يحتاجه في تفهم غيره من الشعر في العصر الأموي .

ومواضيع هذا القسم من شعر الطرماع تستدعي عدم التعمق والإغراب لأنَّ الهجاء إذا لم تكن لغته سائغة لا يسير بين الناس ولا ترويه العامة ، والمدح بالعويس والحوشي أشبه بالتهكم والسخرية ، وكذلك الرثاء والفخر .

وقبل أن أنتهي من الكلام على لغة الطرماع أريد أن أدلل على بعض كلمات من لغة طيء وردت في شعره ، ولا غرابة في ذلك فهو طائي ؛ من ذلك قوله :

كحبة الساجِ فجأ بابها صبحٌ جلا خُصرةَ أهدامها^١

فجأ بابه إذا فتحه بلغة طيء ؛

١ ديوان الطرماع ص ١٦٢ كما ذكر المؤلف في مخطوطه .

وقوله :

قد اخضلَّ منها كلُّ بالٍ وعيِّنٍ وجفل الروايا بالملا المتباطن^١

قبيل : العيِّن والعيِّن الحديد في لغة طيء

وقوله :

وغدا إذ بدتْ له الشمس يجتا ب كثيباً أُخْلِى له عقيدُه^٢

أُخْلِى له أي أُخْلِى له وهي لغة طيء

١ ديوان الطرماح ص ١٦٨ كما ذكره المؤلف في مخطوطه .

٢ ديوان الطرماح ص ١٢٢ كما ذكره المؤلف في مخطوطه .

ديوان الطرماح

في سنة ١٩٢٧ ميلادية ، تم طبع ديوان طفيل الغنوي والطرماح بن حكيم بعناية المستشرق الألماني الفاضل الأستاذ ف. كرنكو عن النسخة المكتوبة في الأندلس سنة ٥٤٣٠ هـ . والمحفوظة في مكتبة المتحف البريطاني في القسم الشرقي رقم ٦٧٧١ . ويقول الأستاذ كرنكو إنَّ نسخة الديوان المخطوطة المشتملة على شعر الطرماح وشرحه غير تامة وغير مذكور فيها اسم جامع الديوان ، ولكنه يظن أنه الطوسي أحد من جمع شعر الطرماح .

ولذلك فإن الأستاذ كرنكو أورد في الديوان بذيل جمع فيه ما عثر عليه من شعر الطرماح في كتب الأدب واللغة والتاريخ ، ثم بعد أن تمَّ طبع الأصل والذيل عثر على أشياء أخرى من شعر الطرماح في نسخة مخطوطة من كتاب معاني الشعر لابن قتيبة وغيره فألحقها بالذيل ؛

وقد ترجم الديوانين إلى اللغة الإنكليزية ، وجعل لهما مقدمة وفهارس للقصائد والمقطوعات والأعلام والمظان ومعجماً لمفردات الديوانين مع ترجمة المفردات إلى اللغة الإنكليزية بعناية وجهد وتدقيق تمَّ على علم وفضل وبراعة . وهالكٌ وصفاً موجزاً لقصائد الديوان وأغراضها :

١ - القصيدة الأولى ومطلعها :

ألا أيها الليلُ الذي طال أصبحِ بيمَّ وما الإصباح فيك بأروحِ
نظمها في بم من بلاد كرمان بفارس وفيها حنين إلى وطنه وتشوق إلى
زوجه سلمى وولده صمصامة ، ووصف الفلاة والذئب والناقة والقطا ، وفيها

فخر ، ومن أبدع ما فيها عاطفته نحو زوجته ووالده ، وخوفه أن يموت بعيداً
عنهما فمتزوج سلمى غيره فيسيء معاملة ابنه صمصامة ؛ ولهذا القصيدة
ملحقان عشر عليهما الأستاذ كرنكو فأثبتهما في آخر الديوان .

وعدد أبيات هذه القصيدة عدا الملحقين أربعة وخمسون بيتاً .

٢ - القصيدة الثانية ومطلعها :

قَلَّ في شط نهرِوان^١ اغتماضي ودعاني هوى العيون المراضِ

وهي إحدى القصائد المعروفة بالملحمت ، مذكورة في كتاب جمهرة
أشعار العرب وعدد أبياتها في الديوان ثلاثة وأربعون بيتاً ، وفيها كثير من
غريب اللغة ، وقد ذكر فيها الشاعر النهروان ، وتذكر أيام الصبا ، ثم قال
إنه تاب وأناب ، ووصف الفلاة وافتخر .

٣ - القصيدة الثالثة ، وأولها ساقط من الديوان وما بقي منها أربعة وثلاثون
بيتاً تبتدىء بهذا البيت :

يمسي بعقوتها الهجَف^٢ كأنه حبشي^٣ حاذقة غدا يتهد^٣

ولكن ناشر الديوان ، عشر على ملحقين لهذه القصيدة أثبتهما في آخر
الديوان . وفيها تلهف على الظاعنين ووصف الفلاة وما فيها من خشاش
ونعام ، مع وصف ثور الوحش وصفاً حسناً ، ومطاردة الكلاب له ، ويحتمها
بالفخر ، وهي أقل غريباً من القصيدة الثانية الضادية .

١ النهروان : كورة واسعة بين بغداد وواسط من الجانب الشرقي حداً الأعلى متصل ببغداد
وفيه عدة بلاد متوسطة .

٢ الهجف : ذكر النعام المسن .

٣ تهد : طبخ الهبيد أي الحنظل .

٤ - القصيدة الرابعة ومطلعها :

شَتَّ شَعْبَ الْحَيِّ بَعْدَ التَّنَامِ وَشَجَاكَ الْيَوْمَ رِبْعُ الْمَقَامِ

يفتتحها كما ترى بذكر الأطلال والدمن ، ويصف سفر النساء على الإبل ، ويذكر محاسنهن ، ويصف الفلاة وما فيها من وحش وطير ثم يصف الناقة ويشبهها بثور الوحش ثم يسترسل بوصف هذا الثور وكيف لحقته الكلاب ثم يشبه ناقته بأتان وحشية ويسترسل بوصفها ووصف الصياد ؛ وعدد أبيات هذه القصيدة تسعة وسبعون بيتاً .

٥ - القصيدة الخامسة ومطلعها :

طَالَ فِي رَسْمٍ مَهْدَدٍ أَبَدُهُ^١ وَعَفَا وَاسْتَوَى بِهِ بَلَدُهُ^٢

يفتتح بالوقوف على الطلل ثم يتخلص إلى نظرات في الزمان فيها حكمة وعظة متأثران بالإسلام ، ثم يفتخر بالكرم والمقامرة ، ثم يذكر سفر أحبابه على الإبل في الفلاة وأن محبوبته من أهل الحضرة لا من البدو ص ١١٦ ، ثم يصف الناقة ويشبهها بالنعام ويسترسل بوصف النعام ، ثم يصف ثور الوحش وكيف هاجته الكلاب ، وفيها كثير من غريب اللغة ، وعدد أبياتها خمسة وسبعون بيتاً .

٦ - القصيدة السادسة ومطلعها :

أَلَا مَنْ لَعِينٍ لَا تَجْفُ سَجُومُهَا^٢ تَأْوِبَهَا^٣ حَاجَاتُهَا وَهَمُومُهَا

يفتتحها بالغزل ويتخلص إلى الهجاء ، ولكن القصيدة غير تامة ، لم يبق منها إلا أحد عشر بيتاً .

١ أبد : الدهر .

٢ سجوم : كثيرة سيلان الدمع .

٣ تأوب : رجع ، عاود ليلاً .

٧ - القصيدة السابعة ومطلعها :

لِمْنٍ ديارٌ بهذا الجزع من ربِّ بين الأحزة^١ من هوبان^٢ فالكثبِ
يفتح بذكر الأطلال ثم يفتخر ، وعدد أبياتها خمسة وعشرون بيتاً .

٨ - القصيدة الثامنة ومطلعها :

ألا إنَّ سلمى عن هوانا تسلَّتِ وبتَّت^٣ قوى ما بيننا وأدلتِ
يفتح بالغزل ولا يعتم أن يتخلص إلى الفخر ، ويهجو الفرزدق ، ويدل
بقحطانيته وهي من أحسن الشعر وعدد أبياتها ستة وثلاثون بيتاً ، وبها ينتهي
الديوان في النسخة المخطوطة سنة ٤٣٠

ثم يأتي الذيل الذي جمعه الناشر ، وفيه طائفة صالحة من شعر الطرماح ،
بعضها تكملة لما سقط من قصائد الديوان ، وبعضها قطع مستقلة تدخل
في نحو خمس وستين صفحة كبيرة ، ويلفت النظر في الذيل قصيدة يمدح
في بعض أبياتها يزيد بن المهلب مطلعها :

قفا نَسَلِ الدمنَ الماصحة^٤ وهل هي إنَّ سئلت بائحة^٥

فيها ذكر الطلل ووصف ثور الوحش وفيها كثير من الغريب ص ١٣٧ ؛
وأهم الأغراض التي في الذيل ما يأتي :

فخره بقحطان ص ١٤٧ ؛ ما يدل على مذهبه ص ١٤٩ وص ١٥٧ ؛
وصف النحل ص ١٥٢ ؛ شجاعته ص ١٥٥ ؛ مدحه ليزيد بن المهلب
ص ١٥٩ وص ١٦٢ ؛ إقذاعه في الهجاء ص ١٦١ ؛ رثاؤه الحسن ص ١٦١ ؛
سفره إلى فاس ص ١٧٤ وص ١٧٥ ؛ فخره باليمن ص ١٧٥ أثر الإسلام
ص ١٧٦ ؛ هجاؤه الموجه ص ١٩١ وص ١٩٤ .

١ ، ٢ أسماء أمكنة .

٣ بت : قطع .

٤ مسح : جلا ، كشف ، اع .

مختارات من شعره

قال الطرماح :

لقد زادني حباً لنفسيّ أني واني شقيّ باللثام ولا ترى
وأنّي شقيّ باللثام ولا ترى إذا ما رأني قَطَعَ الطرف دونه
إذا ما رأني قَطَعَ الطرف دونه مَلَأْتُ عليه الأرض حتى كأنها
مَلَأْتُ عليه الأرض حتى كأنها أكلتُ امرئاً ألقى أباه مقصراً
أكلتُ امرئاً ألقى أباه مقصراً إذا ذُكِرَتْ مسعاة والده اضطني^٣
إذا ذُكِرَتْ مسعاة والده اضطني^٣ وما مُنعت داراً ولا عزّاً أهلها
وما مُنعت داراً ولا عزّاً أهلها

وقال يرثي :

ولو أن غير الموت لاقى عدبساً فتي لو يصاغ الموت صبيغ كمثلته
فتي لو يصاغ الموت صبيغ كمثلته ولو أن موتاً كان سالم رهبة^٤
ولو أن موتاً كان سالم رهبة^٤

وقال :

لولا فوارس مذحج ابنة مذحج والأزد زعزع واستبيح العسكر^١

١ الكفة : الشبكة .

٢ حابل : صائد .

٣ اضطني : لزم الفراش من الضنى .

٤ القذابل : الجماعة من الفرسان .

وتقطعت بهم البلاد ولم يؤب واستضلت^١ عقد الجماعة وازدري قوم^٢ هم قتلوا قتيبة عنوة^٣ بالمرج مرج الصين حيث تبينت^٤ قحطان^٥ تضرب^٦ رأس كل مدجج والأزد تعلم أن^٧ تحت لوائها فبعزنا نصر النبي^٨ محمد

وقال يهجو الفرزدق :

بأي بلاد تطلب العز^١ بعدما أقرت^٢ تميم لابن دحمة^٣ حكمه وكانت تميم وسط قحطان إذ^٤ سمت ونجاءك من أسد العراق^٥ كتائب^٦ بهم ينصر^٧ الله الخليفة^٨ كلما بهم نصر^٩ الله النبي^{١٠} وأثبتت^{١١} أفخراً^{١٢} تميمياً^{١٣} إذا فتنة^{١٤} خبت

١ استضلع : اعوج .

٢ جائحة : عدلت عن الطريق .

٣ العشير : الغبار .

٤ أشار المؤلف رحمة الله عليه في حاشيته أن ثم زيادة في الطبري ج ٨ ص ١١٢ .

٥ قراسية : الضخم الشديد .

٦ سيم : أزل به .

٧ عقد : جمع عقدة .

ولو خرج الدجالُ ينشدُ دينه
فراش ضلال بالعراق وحسوة^٣
فأين تميم يوم تخطر بالقنا
فخرت بيوم العقر شرقي بابل
فخرت بيومٍ لم يكن لك فخره
كفخر الإمام الرائحات عشيّة^٤
فما لقيت قتلى تميم شهادة^٥
تميم بطرق اللؤم أهدى من القطا^٦
أرى الليل يجلوه النهارُ ولا أرى
وقال أيضاً :

تميم تمنى الحرب ما لم تلاقها
وتلقى تميماً شيخها عند بابها
ولو كان يبكي القبر من لؤم حشره
وقال :

وما خلقت تيممٌ وزيدٌ منسأتها
وضبةٌ إلاّ بعد خلق القبائل

١ زاف : نشر جناحه وسحبه على الأرض .

٢ احزأل : اجتمع .

٣ حسوة : قدر ما يحسى مرة واحدة .

٤ نهل : شرب أول الشرب .

٥ عل : شرب ثافية .

٦ حدوج : جمع حدج وهو الحمل .

٧ اشعمل : تفرق القوم وانتشروا .

٨ القطا : ضرب من الطير تألف الأنهار والجداول .

عراقيب^١ ضمّ الذلّ واللؤم بينهم^٢ كما انضم شخص الخارىء المتضائل
وتوعدي الأقيان^٣ من آل دارم بكل لثيم من معدّ وخامل
ومن يلتمس في طيىء ترة^٤ له تكن كالثريا من يد المتناول

وقال يهجو الفرزدق :

لا عزّ نصرٌ امرىء أمسى له فرس على تميم يريد النصر من أحد
إذا دعا بشعار الأزد نتهّروهم كما ينفر صوت الليث بالنقّدي
لو حان ورد تميم ثم قيل لها حوض الرسول عليه الأزد لم ترد
أو نزل الله وحياً أن يعذبها إن لم تعد لقتال الأزد لم تعد
وكل لؤم أباد الدهر أثلته^٥ من خلقه خفيت عنه بنو أسد
لو كان يخفى على الرحمن خافية قوم أقام بدار الذلّ أولهم
لا تأمنن تميمياً على جسدٍ قد مات ما لم تزايل أعظم الجسد

ويعجبني كثيراً قوله معللاً راحة المهموم في الصبح :

ألا أيها الليل الذي طال أصبح بيّم وما الإصباح فيك بأروح
على أن للعينين في الصبح راحة بطرحيهما طرفيهما كل مطرح

١ عراقيب : جمع عرقوب وهو عصب غليظ فوق المقب .

٢ الأقيان : جمع قين وهو العبد ؛ ويطلق على الحداد .

٣ الترة : الثأر .

٤ النقدي : أسوأ أنواع الغنم .

٥ أثلة : ما ورث من مال أو شرف .

المصادر

- . ديوان الفطرماع .
- . البيان والتبيين للجاحظ .
- . الشعر والشعراء لابن قتيبة ص ١٤٠ .
- . الموشح للمرزباني ص ٢٠٨ .
- . المؤلف والمختلف للآمدي ص ١٤٨ .
- . الأغاني ج ١٠ ص ١٤٨ .
- . تاريخ ابن عساكر ج ٧ ص ٥٢ .
- . خزنة الأدب للبغدادي ج ٣ ص ٤١٨ .

ابن حيوس

٣٩٤ - ٤٧٣ هـ

حياته

الأمير مصطفى الدولة أبو الفتيان محمد بن سلطان بن محمد بن حيوس بن محمد بن المرتضى بن الهيثم بن عثمان الغنوي دمشقي .

يتصل نسبه بقبيلة غني بن أعصُر ، وهي من العرب العدنانية ؛ كانت منازلها في الجاهلية بنجد مجاورة لطبىء ، ونزحت طوائف منها بعد الإسلام إلى العراق والجزيرة والشام .

قال ابن حزم في جمهرة أنساب العرب (ص ٢٣٦ و ٢٣٧) : « وغني بالجزيرة والكوفة ولهم ظاعنة ضخمة بطفوف الشام » .

وقد أشار ابن حيوس إلى نسبه هذا في غير موضع من شعره ، من ذلك قوله :

إلى أن أبت لي عزيمة أعصريسة^١ صرعتُ بها الخطب الذي كان صارعي

كان الهيثم بن عثمان الغنوي الجلد السابع لابن حيوس ، من أهل الجزيرة ، ومن قواد المعتصم ، ومن الرؤساء الذين مدحهم البحري ، وله فيه قصيدتان ومقطوعة ، منها القصيدة التي فيها الأبيات السائرة في وصف الربيع :

أتاك الربيعُ الطلقُ يخال ضاحكاً من الحسن حتى كاد أن يتكلما

١ طفوف : مكان .

ويقول ابن حيوس مفتخراً بنسبه إلى الهيثم :

إنَّ الوفاءَ طريقُ أسلافي الألى عمروه ما بيني وبينَ الهيثمِ
ومَضَوْا فأحسنتُ النِّيابةَ عنهمُ في القولِ والأفعالِ غيرَ مُدَمِّمِ

لا نعلم أول من نرح من الجزيرة إلى دمشق من أبناء الهيثم الغنوي ،
ولكننا نعلم أن حيوس بن محمد جد أبي الشاعر والذي اشتهر الشاعر بالنسبة
إليه ، كان من سكان دمشق وكان له فيها دار فخمة ، توارثها بنوه من بعده
إلى زمن الشاعر ، وسيأتي تعيين مكانها .

أما سلطان بن محمد والد الشاعر ، فقد كان من أمراء العرب^١ ، وكان
له مع وجاهته نصيب من العلم ، فقد روى شيئاً من الحديث وروي عنه^٢ .
وأم الشاعر بنت القاضي أبي العباس أحمد بن هرون المعروف بابن الجندي
الغساني^٣ قاضي غوطة دمشق .

ولد ابن حيوس بدمشق يوم السبت سلخ صفر سنة ٣٩٤ أربع وتسعين
وثلاثمائة .

ونشأ نشأة جمعت بين الوجاهة والعلم ؛ فأهل أبيه من ذوي الوجاهة
والثراء ، وأهل أمه من أهل العلم والتقوى .

١ ورد في نسختين مخطوطتين من وفيات الأعيان لابن خلكان محفوظتين في دار الكتب الظاهرية
تحت رقم ٣٢ ورقم ٥٤١٨ بترجمة ابن حيوس ما نصه : كان يدعى بالأمير لأن أباه
كان من أمراء العرب وكذلك في الوافي بالوفيات للصفدي ج ٣ المحفوظ بالسليمانية باستانبول
كما أورده المؤلف .

٢ تاريخ ابن عساكر مخطوط في دار الكتب الظاهرية بترجمة كلثوم بن زياد المحاربي الداراني .

٣ توفي سنة ٣٨٤ واه ترجمته بتاريخ دمشق لابن عساكر ، كما أورده المؤلف .

قال ابن فضل العمري في مسالك الأبصار^١ : « ابن حيوس من بيت
يحييم على منازل النجوم فخاره ، ويحوم على مناهل الغيوم مطاره » .
وكانت دار أبيه التي ورثها عن جده حيوس في زقاق عَطَّاف^٢ داخل
باب الجابية^٣ . ولئن تنوسي اليوم زقاق عَطَّاف ، فيمكن تعيين محله على
وجه التقريب بحي الخيضرية^٤ .
ولما بلغ السادسة من عمره ولد لأبيه غلام آخر سمَّاه محمداً أيضاً ،
وكنَّاه بأبي المكارم تمييزاً بينه وبين أخيه الأكبر أبي الفتيان محمد ، وذلك
سنة ٤٠٠ .

وهكذا كان للشاعر كنية ولقبان (الأمير مصطفى الدولة أبو الفتيان
محمد) ؛ أما الإمارة فلأن أباه كان من أمراء العرب ولم يشاركه أخوه أبو
المكارم بها ، وأما تلقيبه بمصطفى الدولة فمرجح أن يكون أحد أمراء دمشق
أنعم عليه به ، ولعلَّه الدزبوري الآتي ذكره ، وأما الكنية فممن أبيه .
تلقَّب الشقيقان في أعطاف النعمة ، وطلبا العلم معاً ، ونبغ كلُّ منهما
في فنه ؛ أمَّا أبو الفتيان فقد كان ميله للشعر والأدب ، وأما أبو المكارم
فللفقه والفرائض^٥ .

ونذع الآن الفقيه لنواصل بحثنا عن الشاعر .

- ١ ج ١٠ ص ٣٤١ مخطوط . نقلا عن المؤلف .
- ٢ ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٧١ . نقلا عن المؤلف .
- ٣ تهذيب تاريخ دمشق لابن عساكر ج ١ ص ٢١٦ والمدارس في تاريخ المدارس ج ٢ ص ٣٠٤ .
إن هذا الشرح نقلا عن مخطوطة المؤلف نفسه رحمه الله .
- ٤ ويلفظه الدماشقة (الخضيرية) . نقلا عن حاشية المؤلف .
- ٥ قال ابن عساكر : كان أوحد زمانه في علم الفرائض ؛ تاريخ دمشق ج ١٥ ورقة ١٩٠ .

لا نعلم كيف طلب ابن حيوس العلم ، ولا أسماء مشايخه ، ولا أسماء الكتب التي درسها ، على أن أثر العلم والتمكن من اللغة والأدب ظاهر في شعره ، ولم يذكر عنه في هذا الباب إلا أنه روى هو وأخوه أبو المكارم الحديث عن خالهما القاضي أبي نصر محمد بن أحمد بن هرون المعروف بابن الجندي الغساني ، وعن أبيهما سلطان ، وسيأتي بسط ذلك عند الكلام على علمه وأدبه في فصل خاص .

وفي سنة ٤٠٦ هـ ، وكان عمر الشاعر إذ ذاك اثني عشرة سنة نزل في دار ابن حيوس ضيفاً على أبيه أنوشتكين الدزبيري أحد قواد الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي^١ ، فكان لهذه الضيافة أثر في نفس الشاعر ، ظهر بعد أربع عشرة سنة حين عاد الدزبيري إلى دمشق والياً عليها وحين تمكن ابن حيوس من قياد الشعر ، فقصر شعره عليه حتى أصبح شاعره الخاص .

وذلك أنه لما قتل الحاكم بأمر الله سنة ٤١١ ، وولي ابنه الظاهر انتقمض الشام على الفاطميين ، فاجتمع حسّان بن المفرج أمير بني طيسء وصالح ابن مرداس أمير بني كلاب وسنان بن عايان أمير بني كلب وتحالفوا وانفقوا على أن يكون من حلب إلى عانة لصالح ، ومن الرملة إلى مصر لحسّان ، وتكون دمشق لسنان ، فاستولى صالح على حلب سنة ٤١٤ ، واستولى حسان على الرملة سنة ٤١٥ ، وحاصر سنان مدينة دمشق سنة ٤١٦ ، ومات سنة ٤١٩ . فجهز الظاهر عندئذ أنوشتكين الدزبيري بجيش عظيم ، وكانت وقعة الأفحوانة قرب طبرية سنة ٤٢٠ بينه وبين صالح وحسان وانجالت عن

١ ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٧١ .

مقتل صالح وانهزام حسان^١ ، ودخل الدزبري دمشق دخول
الظافرين .

كان ابن حيوس إذ ذاك ابن خمس وعشرين سنة ، قد استكمل ثقافته ،
وتمكن من رياضة الشعر ؛ وهو الذي عرف الدزبري قبل بضع عشرة سنة ،
وقد تقرب منه الآن ومدحه بقصيدتين ذكر فيهما ما تمّ على يديه من النصر ،
وهما أول ما دُوّن من شعر ابن حيوس ، مطلع الأولى :

هل للخليط المستقل إيابُ أم هل لأيامٍ مضت أعقابُ

ومطلع الثانية :

حمى النوم أجفانَ صبَّ وصبَّ غرابٌ على غصنٍ من غرابٍ

ولازمه وصار شاعره الخاص ، وأكثر من مدحه في كثير من المناسبات
ودون في قصائده أعماله في الحرب والسياسة والإدارة والعمران ، وصحبه
ثلاث عشرة سنة ، منذ أن دخل دمشق والياً عليها سنة ٤٢٠ هـ إلى
أن توفي بحلب سنة ٤٣٣ هـ ؛ ولما فتح الدزبري حلب سنة ٤٢٩ هـ وقتل
صاحبها نصر بن صالح بن مرداس ، دخل معه إلى حلب وأنشده قصيدة أولها :

أما وسيفك في النفوس مُحكَّمٌ فالعزُّ أجمعهُ إليك مُسَلِّمٌ

ومدحه بغيرها أيضاً يذكر فيها هذه الواقعة كالقصيدة التي أولها :

سَلِّ المقاديرَ ما أحببتَه تُجيبِ فما لها غير ما تهواه من أربِ
وفي هذه المدة مرَّ ابن حيوس وهو في طريقه إلى حلب على معرفة النعمان ،

١ الكامل لابن الأثير ج ٩ ص ٧٩ ؛ كما أورده المؤلف رحمه الله .

وزار أبا العلاء المعري ، وجرى بينهما حديث في الشعر والشعراء ، رواه ابن عساكر في تاريخ دمشق بترجمة عبد المحسن الصوري في خبر يحسن لإيراد بعضه هنا قال : « . . . وذكُر عن أبي العلاء بن سليمان أنه كان يعيب عبد المحسن الصوري بقصر النفس ، فحدثت أن أبا الفتيان ابن حيوس لما حضر عند أبي العلاء المعري أنشده أبياتاً لعبد المحسن وقال : هذه لقصيرك ، فقال له أبو الفتيان : هو أشعر من طويلك ؛ يعني المتنبي ، فمدَّ أبو العلاء يده وقبض على ثوبه وقال : الأمراء لا يُناظرون » .

مدح ابن حيوس الدزبري بما لم يمدح به أحداً سواه ، وعدد قصائده فيه أربعون قصيدة ، وذلك أقصى ما يمكن أن يقوله شاعر في مدح إنسان ، ومدح من حاشية الدزبري الشريف فخر الدولة نقيب الطالبين وقاضي دمشق ، وصدقة بن يوسف الفلاحى ناظر الأموال ، وكانا قد أتيا إلى دمشق مع الدزبري . كل ذلك وابن حيوس يدعي بأنه لا يمدح مستجدياً لأنه من ذوي اليسار ، ولكنه يطلب المجد والعلاء ، وله في هذا المعنى أبيات غير قابلة موزعة في قصائده ، من ذلك قوله :

وما أعرفُ الفقرَ حتى أقسولَ على أني ربُّ بيتِ الفِقرِ

وولي دمشق بعد وفاة الدزبري سنة ٤٣٣ الأمير ناصر الدولة أبو محمد الحسن بن الحسين بن ناصر الدولة الحمداني ، فأقام والياً فيها إلى سنة ٤٤٠ ، فتقرَّب ابن حيوس منه ومدحه وحاول أن يكون عنده كما كان عند الدزبري وله فيه عشر قصائد ، ومدح كاتبه .

وفي سنة ٤٤١ ولي دمشق الأمير حيدر بن الحسين بن مفلح فمكث إلى سنة ٤٥٠ فعزل عنها ، ثم وليها دفعة ثانية سنة ٤٥٣ وصرف عنها سنة ٤٥٥ ، فلم يقل فيه ابن حيوس إلا قصيدة واحدة .

وسبب ذلك فيما نظن أن ابن حيوس انصرف عن الولاية إلى الوزراء ،
ومن قصد البحر استقل السواقيا ، فقد ولي وزارة المستنصر الفاطمي الوزير
أبو محمد الحسن بن علي اليازوري سنة ٤٤٢ واستمر في الوزارة إلى سنة ٤٥٠ ،
وهو من أعظم وزراء الفاطميين علماً وذكاءً ودهاءً وسياسةً وتديراً ،
فرحل إليه ابن حيوس واتصل به ولقي عنده الحفاوة والإكرام ، ومدحه
مدة وزارته بإحدى عشرة قصيدة ؛ رحل إلى القاهرة أكثر من مرة لينشده
ما قاله فيه من القصائد وقد يبعث ببعضها من دمشق إذا تعذر السفر عليه ،
وقد أشار إلى رحلته في عدة مواضع من شعره ، وما قاله في اليازوري أراه
من جيد شعره .

وتولى الوزارة سنة ٤٥٠ هـ الوزير أبو الفرج محمد بن جعفر المغربي
فمدحه ابن حيوس بقصيدتين ، وتولى الوزارة بين سنة ٤٥٠ وسنة ٤٥٤
الوزير أبو الفرج عبد الله بن محمد البابلي ثلاث مرات فمدحه ابن حيوس
بقصيدة واحدة .

ومنذ سنة ٤٥٤ اضطربت أمور الدولة الفاطمية في مصر واختلت
شؤون الوزارة ، وتناحى الوزراء واحداً بعد واحد ، ومنهم من مكث فيها
شهوراً ، ومنهم من كانت مدة وزارته أياماً ، ومنهم من مكث فيها يوماً
واحداً إلى أن استدعى المستنصر بدراناً الجمالي الأرميني سنة ٤٦٥ وفوض
إليه جميع أموره ، وكانت الحال في دمشق أشبه بالفوضى ، فالولاية بها
كالوزراء في القاهرة ، لا يكاد أحدهم يستقر بها حتى يخرج معزولاً أو
مدحوراً ، والأمور تزداد سوءاً ، وأهل البلد أحزاب يثرون بالولاية والقواد.
وتأججت الفتنة سنة ٤٦٠ هـ فنار أهل دمشق بأمير الجيوش بدر الجمالي

١ انظر كتاب الإشارة إلى من نال الوزارة لابن الصيرفي من ص ٤٩ إلى ص ٥٤ .

الأرمني والي الشام واضطروه إلى الخروج من قصر الإمارة وأحرقوا القصر ونقضوا بقاياه^١ ، وكان ذلك إيذاناً بزوال حكم الفاطميين عن الشام .

واشتد الخلف بين الجنود وبين أهل دمشق ، وطرح النار في جانب منها فاحترقت ، واتصت منه بجامع بني أمية من غربيه فاحترق في شعبان سنة ٤٦١ ولم يبق منه إلا حيطانه الأربعة^٢ ، ونهبت دور أهل البلد وأموالهم فعظم الخطب واشتد الأمر ؛ واستولى في هذه السنة على دمشق معلى بن حيدرة الكتامي من غير أن يؤمر له بذلك عند خاو دمشق من متول بعدما هرب أمير الحيوش ، فأساء السيرة في أهلها ، ووقعت بينه وبين عساكر البلد وحشة فهرب إلى بانياس .

وفي سنة ٤٦٣ فتح أئز بن أوق الخوارزمي من أمراء السلطان ماكشاه السلجوقي القدس ، وقصد دمشق فحاصرها وتابع النهب لأعمالها حتى خربها وقطع الميرة عنها ، فضاق الناس وجروا ولم يمكنوه من ملك البلد^٣ .

ويطول صمت ابن حيوس في هذه الفترة التي تقدر بعشر سنوات من سنة ٤٥٤ إلى سنة ٤٦٤ ، حتى كأنه أصفى^٤ ، فلا تقع العين في ديوانه على شيء من الشعر يدل على أنه قبيل في تلك الفترة من الزمن .

حتى إذا تتالت الفتن في دمشق وعمَّها الدمار وفقد الأمن ، وشاع الخوف ، وذهبت الأموال ، ونزح عنها أكثر سكانها ، وبدا لابن حيوس

١ ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٩٣ . نقلا عن المؤلف .

٢ ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٩٦ حسب ما أورده المؤلف رحمه الله .

٣ ابن الأثير ج ١٠ ص ٢٣ . نقلا عن المؤلف .

٤ أصفى : انقطع شعره وجف .

أن يتركها انهجر في صدره بركان من الشعر فقال قبل أن يترك
دمشق :

لقد دفعنا إلى حالين لست أرى
ما بين ذلك وهذا حظاً مختار

إمّا المُقامُ على خوفٍ ومسغبةٍ أو الرحيل عن الأوطانِ والدار
والموتُ أيسر من هذا وذلك وما كربُ المماتِ ولا في الموت من عار
منْ جاور الأسد لم يأمنْ بوائقها وليس للأسد إبقاءً على الجار

ذهب في هذه الفتن جميع ما يملك ابن حيوس مما ورثه وجمعه ، وهو
الذي كان يدل في شعره بيسر حاله ، ويدعي أنه لم يمدح أحداً بغية المال لأنه
من أرباب النعمة والثراء ، وأنه لم يعرف الفقر :

ولم أعرفِ الفقرَ حتى أقولَ على أني ربُّ بيتِ الفقيرِ

لقد أصبح رقيق الحال يشكو ظلم الأمان فيقول :

تحيّفتني^١ الزمانُ بكل فنّ فما أنفكُ من داءِ عَضال
وأعوزتِ الأمانةُ فيه حتى تخوّفتِ اليمينُ من الشمال
وأذهبَ كلَّ ما أحوي ضياعاً فها أنا ذا بنارِ الفقرِ صال^٢
وقد أودعتُ ما أبقى صديقاً فعرضتُ البقيةَ للوبسال
لقد آلت بي الدنيا فقبحهاً لما صنعتُ إلى هذا المال
وغال الدهرُ منزلي ووفري فأرخص من مديحي كلَّ غال

١ تحيف : تنقص .

٢ اصطل : استدفأ ، وتصلى : قاسى حرها .

سأترك ذي البلاد بلا اختيارٍ وأهجرُ أهلها لا عن تقالٍ
بحالٍ لو تأملها عدوي لساهمني الرزية أو رثي لي

وضاقت عليه دمشق لاضطراب أحوالها قبل زوال الحكم الفاطمي عنها ،
ولما مُني به من فقد ما تملك يدها ، ولكرهمه لمن يريدون الاستيلاء عليها من
الأتراك السلجوقيين الذين لا يفهمون الشعر العربي ، زد على ذلك أنهم لا
يمكن أن يعتبروه إلاً من أنصار الدولة الفاطمية ، بعد أن وقف شعره على
مدح وزرائها وأمرائها وولاتها .

عزم ابن حيوس على ترك دمشق ، ولكن إلى أين ؟ أيذهب إلى مصر ،
وحالها في الاختلال لا تقل عن دمشق ؟ أم يذهب إلى بغداد وقد عرّض
ببني العباس ونال منهم في غير موضع من شعره ؛ وله في ذلك
أقوال منها :

وَمَنْ أبوه عَلِيٌّ لا يَنازعه مِراثَ أحمدَ باغٍ عَمَّهُ قُشَمُّ

أم يذهب إلى حلب وقد كان حرباً على امرائها المرداسيين ، معدوداً
في بطانة الذبيري عدوهم الألد وقاتل كبيريتهم صالح بن مرداس ثم
ابنه نصر ، وما مدح الذبيري بقصيدة إلاً ذمهم بها :

أولادُ مِرَداسٍ لسيفك طُعْمَةٌ في كل أرضٍ أنجدوا أو أتهموا

وكان في الساحل الشامي قاضيان هما أشبه بأميرين مستقلين ، القاضي
أمين الدولة أبو طالب عبد الله بن عمّاد في طرابلس الشام ، والقاضي

عين الدولة أبو الحسن محمد بن أبي عقيل في صور ؛ فلم يجد بداً من الذهاب إلى أحدهما، فترك دمشق في أوائل سنة ٤٦٤ مغيظاً مخنقاً وخائفاً يترقب ، وإلى ذلك يشير بقوله :

وللحمية لا عن زلّة حكمتُ بالبعد فارقتُ أخذاناً وخلاًنا
تُخيفني بلدٌ حتى أعودَ إلى أخرى كأني عمرانُ بنُ حِطّانا^١

ويقول :

وتبا بيّ الوطنُ القديمُ وإنّي في البعد عمّسَ حِلّه لسعيدُ

ويقول في التفتيح على فراق دمشق :

فِراقٌ قضى ألاًّ تأسّيَ بعدَ أنْ مضى مُنجداً صبري وأوغلت متهما
وفجعةٌ بينٍ مثلُ صرعة مالك^٢ ويقبح بي أنْ لا أكون متمما^٣
خليلي^٤ إنْ لم تسعداني على الأسي فما أنتما مني ولا أنا منكما
وحسّنتما لي سلوةً وتناسياً ولم تذكرّا كيف السبيل إليهما
فما أنتما مني ولا أنا منكما ولم تذكرّا كيف السبيل إليهما

ودخل طرابلس الشام في أوائل سنة ٤٦٤ ولم يكذ يستقر بها ويترفق في الوصول إلى صاحبها القاضي أمين الدولة حتى توفي أمين الدولة في شهر رجب سنة ٤٦٤ وخلفه ابن أخيه القاضي جلال الملك أبو الحسن علي بن عمار ؛ فقال ابن حيوس قصيدة يرثي السلف ويعزي الخلف وأولها :

ذدٌ بالعزاءِ الهمُّ عن طلباته لا تُسخطنَ اللهَ في مرَضاتِهِ

١ من علماء الخوارج لا يستقر ببلد من خوف مطارديه .

٢ مالك بن نويرة : هو شقيق الشاعر متمم وقد قتله القائد الكبير خالد بن الوليد في حروب الردة .

٣ هو الشاعر متمم بن نويرة صاحب المراثي الجياد في أخيه مالك .

فلم تستفز هذه الرقية جلال الملك ، ولم يبسط له حبل الرجاء لما عرف به ابن حيوس من الميل إلى الفاطميين .

فلم يبق أمامه إلا القاضي عين الدولة صاحب صور ، ورأى من الحيلة أن يختبره قبل الذهاب إليه فكتب إليه قصيدتين يشكو بهما رجلاً استودعته مالا فخانه ، ويشرح فيهما ما صار إليه من سوء الحال وضياع الثروة وحيف الدهر . وتوسل إليه مرة بأحد أصدقائه وله في ذلك قصيدة تشير إلى أنه لم يستفد من الوسيلة .

واتفق أن كان بطرابلس الشام وقتئذ الأمير علي بن منقذ الأديب النبيل ، جد أسامة بن منقذ ، فاجتمع بابن حيوس ، وأنس كل بصاحبه ، وكانا يلتقيان من حين لآخر ، ورأى ابن منقذ انصراف القاضي جلال الملك عن ابن حيوس وحذره منه لما عرف من ميله إلى الفاطميين ، فأشار عليه أن يفد علي محمود بن نصر المرदाسي صاحب حلب .

فورد علي ابن حيوس ما لم يكن في حسبانها ، كيف يقصد محموداً بعدما سارت قصائده في النيل من أبي محمود نصر وجده صالح بن مرداس ؟ حتى رد عليه ابن أبي حصينة أحد شعراء بني مرداس ، وبعد ما عرفه الناس من أنه شاعر عدوهم الألد أنوشتكين الذزبري .

ولكي يطمئن ابن حيوس إلى ما أشار به ابن منقذ ، عرض عليه أن يُصحبه بابنه نصر بن علي ليقدمه إلى صاحب حلب ويكون صلة التعارف بينهما ووسيلة التجمل والصفاء بعد الجفاء .

وكان الأمر كذلك ، وبرح ابن حيوس طرابلس الشام صحبة نصر بن علي بن منقذ ودخل حلب في شوال سنة ٤٦٤ وكان قد بلغ السبعين من عمره ،

وعلم أن صاحب حلب مرتاح لوفوده ، فتنفس الصعداء ، وأعدّ قصيدة من عيون شعره ، وعين له يوم اللقاء .

قال ابن العديم في زبدة الحلب : « . وكان محمود قد جلس في مجلسه وأمر بإحضار الشراب فشرّب أقداحاً ثم قال ارفعوا الخمر فإن ابن حيوس يحضرني ممتدحاً وفي نفسي أن أهبه جائزة سنوية ، فإن كان الشراب في مجاسي ، قيل وهبه وهو سكران ، فرفع ؛ وحضر الأمير أبو الفتيان فأنشده قصيدته الميمية التي أولها :

قِفُوا فِي الْقَلْبِ حَيْثُ انْتَهَيْتُمْ تَدَمُّمًا وَلَا تَقْتَفُوا مِنْ جَارٍ لَمَّا تَحَكَّمَا
وهي قصيدة طويلة ، أحسن فيها كل الإحسان ، وذكر إشارة ابن منقذ عليه بقصده :

سأشكر رآياً منقدياً^١ أحلني ذراك فقد أولى جميلاً وأنعما
فوهب له ألف دينار ذهباً في صينية فضة وجعلها له رسماً عليه في كل سنة .

وفي هذه القصيدة يتفجع على فراق دمشق بأبيات تقدم ذكرها ، ويحن إلى ماضي أيامه بها ويشير إلى بلوغه السبعين من عمره فيقول :

سقى الله أيام الصبا كل هاطل
وعيشاً سرقناه برغم رقيبنا
بمعصورة والدهر ما اصفر عوده^٢
أراحت من الهم الدخيل وشجعت

مُلِّثٌ إِذَا مَا الْغَيْثُ أَنْجَمُ أَنْجَمًا^٢
وَقَدْ مَلَّ مِنْ طَوْلِ السُّهَادِ فَهَوًّا
فِيْلُوي وَمَا أَلُوِي بَعَادٍ وَجُرْهُمَا
جَبَانًا وَسَنَّتْ لِلْبَخِيلِ التُّكْرَمَا

١ منقدياً : إشارة إلى نصح ابن منقذ له .

٢ أنجم : أفلح ؛ أنجم : أمطر بسرعة .

وشاد جزاه الله روحاً ورحمة
 فلست ترى إلاً يداً صافحت يداً
 بأذيالٍ دوح نير بي^١ كأنه
 إذا قابلت شمس الأصائل ما علا
 إلى مَ أمي النفس ما لا تناله
 وقد قالت السبعون للهو والهوى
 إذا ما استحقَّ المحسنون الترحماً
 لإنجاز وعدٍ أو فملاً لاثماً فما
 سماءُ دجى أبدت من النور أنجماً
 تندنر أو بدرُ الظلام تدرهما
 وأذكر عيشاً لم يعدْ مذ تصرما
 دعا لي أسيري واذها حيث شتتما

وأحسن محمود بن نصر وفادة ابن حيوس ، واحتفى به وأقبل عليه
 وصحبه ، وجعله من جلسائه وأغدق عليه نعمه ، فحسنت حاله وأثرى ،
 وعوض ما فقدته ، وبني داراً بحلب عيّن مكانها ابن خلكان بقوله : هي الدار
 المعروفة الآن بالأمير علم الدين سليمان بن جندر . وواصل ابن حيوس
 قصائده في محمود ولقي من نبله وكرمه ما جعله مديناً لابن منقذ الذي قدمه
 إلى محمود وأنساه الفاطميين ووزراءهم وامراءهم ، وفي ذلك يقول من قصيدة
 كتب بها إلى ابن منقذ :

يا ابن المقلد قد قلّدتني ميناً
 فيمسّنُ جدك أفضى بي إلى ملك
 ما قارب الحمد أدناها ولا كرباً
 ما ابتزّه الشعرُ إلا هزّه طرباً
 أغنى وأقنى وأدنى ثم أغرب في
 إنعامه فأفاد العقل والأدبا
 فكلُّ نوءٍ بمصر جادني زمناً
 فداءُ نوءٍ سقاني الرّيّ في حلباً^٢

وفي سنة ٤٦٦ توفي أخوه القاضي أبو المكارم محمد بن حيوس الفقيه
 الفرزي ؛ ترجم له ابن عساكر في تاريخ دمشق وقال : « كان مستخلفاً

١ نسبة إلى النيرب أحد متنزهات دمشق المشهورة قرب الربوة .

٢ حلب : مدينة كبيرة في سورية وتعد العاصمة الثانية بعد دمشق .

من قبل الحكام على الفروض والتزويجات ، وكان ديسناً حسن الطريقة ،
وكان واحد زمانه في علم الفرائض .

ولم تطل حياة الأمير محمود بن نصر بعد مجيء ابن حيوس إلى حلب
فقد توفي سنة ٤٦٧ ، ورثاه ابن حيوس بعد أن كان مدحه بعشر قصائد ،
وخلفه ابنه الأمير نصر وجرى على رسم أبيه في رعاية ابن حيوس وإيثاره
على غيره من الشعراء .

دخل عليه ابن حيوس لما تولى بعد أبيه وأنشده القصيدة التي أولها :
كفى الدين عِزّاً ما قضاه لك الدهرُ فمن كان ذا نذرٍ فقد وجب النذرُ
وبعد أن مدحه ورثي أباه وعزّاه عنه قال :

تباعدتُ عنكم حرفةً لازهادةً وسِرتُ إليكم حين مَسَّني الضرُّ
وجاد ابنُ نصر لي بألف تصرّمتُ وإني عليم أن سيخلفها نصر
وما بي إلى الإشطاط في السّوم حاجةٌ وقد عُرِفَ المبتاعُ وانفصل السّعرُ
فأطلق له نصر ألف دينار وقال : وحياتي لو قال سيضعفها نصر لأضعفتها .
واجتمع على باب نصر جماعة من الشعراء وامتدحوه وتأخرت صلته عنهم .

ونزل بعد ذلك إلى دار بولص النصراني ، وكانت له عادة بغشيان منزله
وعقد مجلس الأُنس عنده ، فجاء الشعراء الذين تأخرت جوائزهم إلى
باب بولص ، وفيهم أبو الحسن أحمد بن محمد بن الدويذة المعري فكتبوا
إليه أبياتاً اتفقوا على نظمها وقيل بل نظمها ابن الدويذة وهي :

على بابك المحروس منّا عصابةٌ مفاليسٌ فانظرُ في أمورِ المفاليسِ
وقد قنعت منك الجماعةُ كلّها بعشر الذي أعطيته لابن حيوس
وما بيننا هذا التفاوتُ كلّهُ واكنّ سعيدٌ لا يُقاسُ بمنحوس

فأطاق لهم مائة دينار وقال : والله لو قالوا بمثل الذي أعطيته لابن حَيَّوس ، لأعطيتهم مثله .

وأكثر ابن حيوس من مدح نصر بن محمد على قصر مدة إمارته ، ففي الديوان عشر قصائد قيأت فيه في أقل من سنة .

ذلك أن نصرأ تولى الإمارة بعد أبيه سنة ٤٦٧ وقاتل في شوال سنة ٤٦٨ هـ ؛ قال ابن العديم في زبدة الحلب : « وفي يوم عيد الفطر من سنة ثمان وستين وأربعمائة عيّد نصر بن محمود في أحسن زيّ ، وكان الزمان ربيعاً والأرض نضرة ، واحتفل الناس في عيدهم وتجمّلوا بأفخر ملابسهم ، ودخل عليه ابن حيوس فأنشده قصيدة منها :

ضفتُ نعمتانِ خصّتك وعمّتا حديثُهُما حتى القيامةِ يؤثّرُ

فشرب إلى العصر ، وحماه السكر على الخروج إلى الأتراك وسكناهم في الحاضرة ، وأراد أن ينهبهم ، وحمل عليهم فرماه تركي بسهم في حاقه فقتله . »

وتولى بعد نصر بن محمود أخوه سابق بن محمود ، فدخل عليه ابن حيوس ومدحه بقصيدة أولها :

عليّ لها أن أحفظَ العهد والودّ وإن لم يُفدْ إلاّ القطيعةَ والصدّاً

فأطلق له سابق ألف دينار وجعل له في كل شهر ثلاثين ديناراً ، وكانت منزلته عنده كمنزلته عند أخيه نصر ووالده محمود .

وبقي يقول فيه الشعر إلى أن استولى شرف الدولة أبو المكارم مسلم بن

١ عن زبدة الحلب (مخطوط) نقلا عن حاشية المؤلف .

قريش العُقيلي على حاب سنة ٤٧٣ ، وانقضت دولة آل مرداس ؛ وفي الديوان من شعر ابن حيوس في سابق ثماني قصائد .

دخل ابن حيوس حلب في شوال سنة ٤٦٤ وهو ابن سبعين سنة وبقي في كنف آل مرداس حتى انقضت دولتهم سنة ٤٧٣ ، وقال فيهم كثيراً من الشعر ، وفي الديوان من شعره فيهم ثلاثون قصيدة من أجزل شعره وأحسنه ، يعجب الإنسان كيف استجابت له وهو في عشر الثمانين من عمره .

تمّ استيلاء مسلم بن قريش على حلب في شهر ربيع الآخر سنة ٤٧٣ فمدحه ابن حيوس بقصيدة من أحسن ما قال من الشعر ، ولعلها آخر ما قال .

قال ابن العديم في زبدة الحلب :

« مدح ابن حيوس شرف الدولة بالقصيدة التي أولها :

ما أدرك الطلباتِ مثل مُصَمِّمٍ إنْ أقدمت أعداؤه لم يُحجمِ

فلما وصل إلى قوله :

أنت الذي نفق الثناء بسوقه وجرى الندى بعروقه قبلَ الدمِ

اهتز شرف الدولة وأمره بالجلوس ، فأتمها جالساً ، وأجازه بألفي دينار وقرية .

وقيل إنه لما مدحه ابن حيوس قال له وزيره أبو العز بن صدقة البغدادي :

هذا رجل كبير السن ، ولم يبق من عمره إلا القليل ، فأرى أن تعظم له الجائزة فتحصل على الذكر الجميل ؛ فأقطعه الموصل جائزة له ، فمات في السنة قبل أن يصل إليها ، وترك مالاً جزيلاً ؛ ف قيل لشرف الدولة : هذا لا وارث له إلا بيت المال ، فقال : والله لا يدخل خزائني مال قد

جمعه من صلوات الملوك ، انظروا له قرابة . فسألوا عن ذلك فوجدوا له من ذوي الأرحام بنت أخ فأعطاها ماله جميعه ، وهي بنت أخيه أبي المكارم محمد بن سلطان بن حيوس^١ .

توفي ابن حيوس في شعبان سنة ٤٧٣ ثلاث وسبعين وأربعمائة ، وهو في الثمانين من عمره ، ولم يعقب ولداً ، ودفن بمقبرة بني الموصول على جانب الخندق خارج باب قنسرين^٢ .

وقبل أن أختم هذا الفصل أريد أن أشير إلى أن هناك شاعرين ، يتصحف اسمهما على الناس باسم ابن حيوس ، أحدهما مغربي من أهل فاس ، والآخر أندلسي من أهل اشبيلية .

أما الأول فقد نَبَّهَ إلى وهم الناس فيه ابن خلكان في وفيات الأعيان ١٥ / ٢ فقال : « وفي شعراء المغاربة ابن حَبُوس بالباء الموحدة المخففة وإنما ذكرته لثلاثا يتصحف على كثير من الناس بابن حَيَّوس ، ورأيت خلقاً كثيراً يتوهمون أنَّ المغربي هذا هو أبو عبد الله محمد بن حسين بن عبد الله بن حبوس ولد بفاس سنة ٥٠٠ هـ وتوفي سنة ٥٧٠ ، وله ترجمة في التكملة لابن الأبار ص ٣٧٠ وبعد كل ذلك فقد تصحف اسمه على صاحب تاج العروس فظنه ابن حَيَّوس وأورده في مادة (حاس) .

وأما الثاني فقد ذكره عبد الرحيم العباسي في معاهد التنصيص ٢٣٦ / ١ بعد ترجمة ابن حيوس الدمشقي فقال : « وابن حيوس الاشبيلي . . . له في أشتر العين لا تفارقه الدمعة :

١ عن الخريدة للعماد الأصفهاني ج ٢ ورقة ١٧٢ (نسخة مصورة في خزانة المجمع العلمي العربي) .
٢ المحمدون من الشعراء لجمال الدين القفطي .

شَتَّيرَتْ فقلنا زورقٌ في لُجَّةٍ مالتُ بإحدى دَفْتِيهِ الرِّيحُ
فكأَنَّمَا إنسانُها مَلَأَ حُسهُ قد خاف من غرقِ فظلَّ يَمِيحُ

فكتبت إلى الصديق الفاضل الأستاذ عبد العزيز محمد الأهواني ، وكان في مدريد يتمخصص بالأدب الأندلسي أسأله عن ابن حيوس الاشبيلي فأجابني بما يلي : « صاحب الأبيات في اشتر العين هو أبو العباس أحمد بن حنَّون (بنونين) ورد ذلك في كتاب المُغرب في حُلَى المغرب لعلي بن سعيد المغربي ، وهذا الكتاب مخطوط في دار الكتب المصرية بخط المؤلف نفسه ، والصواب في نص صاحب معاهد التنصيص أن يكون الاسم ابن حنَّون الاشبيلي لا ابن حيوس كما ذكر . »

علمه وأدبه

نشأ ابن حيّوس في بيت وجاهة وثراء ، وأهل أمه بيت علم وصلاح ؛ فجدّه لأمه القاضي أبو العباس أحمد بن هرون بن موسى المعروف بابن الجندي الغساني قاضي دمشق وخليفة القاضي بها ، وأبوه سلطان كان مع وجاهته وثرائه على أثارة من العلم .

لا نعرف كيف ابتدأ ابن حيوس يطلب العلم في حدائته ، وما هي الكتب التي درسها وعلى من درسها .

وكل ما اطلعنا عليه في هذا الشأن أنه وأخاه أبا المكارم سمعا خالهما أبا نصر — أي أخذنا علم الحديث عنه — كما رويَا عن أبيهما سلطان ، وكان ميل أبي المكارم إلى علوم الدين ، فبرع في الفقه وكان أوحد زمانه في الفرائض . أما أبو الفتيان فقد كان أميل إلى الشعر والأدب واللغة ، على أن ثقافته في علوم الدين وغيرها ظاهر أثرها في شعره .

ولما قدم أبو بكر الخطيب البغدادي دمشق سنة ٤٥١ وسكنها مدة صحب ابن حيوس ، وروى عنه وعن أخيه ابي المكارم ، كما روى عنه ابو محمد ابن السمرقندي^١، وسمع منه طائفة من شعره ابو المفضل يحيى بن علي القرشي قاضي دمشق وجدّ ابن عساكر لأمه وقرىء عليه ببغداد سماعه من شعر

١ تاريخ الإسلام الكبير للذهبي ج ١١ ورقة ٢٨٠ مخطوط ، كما ورد بمحاوية المؤلف .

ابن حيوس^١، وروى عنه أيضاً شيئاً من شعره أبو القاسم النسيب علي بن إبراهيم بن العباس خطيب دمشق .

وذكر ابن خلكان والصفدي أن ابن حيوس ، كان شيخ ابن الخياط الشاعر الدمشقي المشهور ، وأن ابن الخياط لما دخل حلب سنة ٤٧٢ وبها يومئذ ابن حيوس كتب إليه ابن الخياط :

لم يبق عندي ما يُباع بدرهم وكفاك مني منظري عن مخبري
إلا ببقية ماء وجهه صُنْتُهَا عن أن تباع وأين أين المشتري
فقال لو قال : « وأنت نعم المشتري » لكان أحسن .

أما ثقافته في العربية وآدابها فواسعة تظهر في كل قصيدة من شعره ، فهناك إشارات كثيرة إلى عيون من طرائف الأدب والتاريخ في الجاهلية والإسلام حيث يحسن إيرادها ، مثل الإشارة إلى أخبار العرب وأيامهم وملوكهم وفرسانهم وأجوادهم وخطبائهم وشعرائهم وفحول خيلهم وإبلهم ، والاقْتباس من أمثالهم والسائر من أشعارهم ، ومثل الإشارة إلى عظام الحوادث وأعلام الرجال في الإسلام من الخلفاء والملوك والقواد والفتاحين والشعراء وأصحاب الشأن ؛ وإيراد الشواهد على ذلك يطول كثيراً فإنها مبعوثه في مواطن كثيرة من شعره .

ولنكتف بإيراد شيء مما يدل على ثقافته في الدين والمنطق والنجوم ، فقد كان يتفقه في بعض المواطن من شعره ، من ذلك قوله :

والفقه غير مبيحة أحكامه^٢ من لا يؤدي الفرض^٣ أن يتنفلاً

١ مخطوطة ابن عساكر ج ١٠ ورقة ٨٠ بترجمة يحيى بن علي القرشي ، كما ورد بمباشرة المؤلف .

٢ الفرض : ما فرضه الله على عباده .

٣ النفل : ما تفعله زيادة على الفرض .

وقوله :

مواهبٌ لما لم تغادرُ فريضةً ولا سنةً في الجود جادت تنفلا

وقوله :

قد أعوز الماءُ الطهورُ وما بقي غيرُ التيممِ لو يطيبُ صعيدُ

وقوله :

بددتَ وفركَ في فرضٍ ونافلةٍ وسنةٍ فجمعتَ السؤددَ البدداً

وقوله :

تيممتُ لما أعوز الماءُ طاهراً فيمن بي بحراً كفاني التيمماً

وقوله وفيه مسألة في الفرائض^١ :

وأبو الرسول فجدُّكم أولى به من دون إخوته بلا إشكالٍ
أنسى يكون شريكه في عمه كشريكه في عمه والخال
نسبُ بنو العلات عنه بمعزلٍ وبذلك تقضي سورة الأنفال

وقوله وفيه من مصطلح المنطق الجوهر والعرض :

ومن الثنا عرّضٌ ومنه جواهرٌ ومن الجواهر جامدٌ ومُذابٌ

وقوله وفيه من مصطلح الفلكيين النعائم وهي من منازل القمر .

علا قيممَ النعائم مُستطيلاً وسار ومن قلائصه النُعامي

ومثله قوله وفيه من مصطلحهم القيران :

لأنك منذ صيرتَ لها قريناً بدا في الأرض تأثير القيران^٢

وأشباه هذا مما يدل على ثقافته العامة .

١ الفرائض : أحكام الموارث .

٢ ورد في شعره ذكر النسرين والفرقدين وبهرام وكيوان وزحل والمشتري والحمل والجوزاء
والثريا .

صفته وأخلاقه

كل من ترجم لابن حيوس لم يصف شيئاً من هيئته أو ملبسه أو ما يشير إلى شيء من ذلك ، فلا نعلم أكان طويلاً أم قصيراً ، بديناً أم نحيفاً ، أبيض أم أسمر ، وما إلى هذا من الصفات التي تعين على تمثله واستحضار صورته في الذهن .

ولكن سيرته مع الأمراء المرادسين في حلب وهو في عشر الثمانين من عمره ، تدل على أنه كان قوي البنية شديداً مملوءاً صحة ونشاطاً ، فقد كان يصحبهم ويجالسهم ويركب معهم ، وإلى ذلك يشير بقوله :

وما أضعفتُ عشرُ الثمانين مُنَّتي كما تضعفُ الضرغامَ وهو غَضَنفَرُ

ركب يوماً مع محمود بن نصر صاحب حلب إلى ظاهر حلب ينظر المد في النهر ، وقال في ذلك أبياتاً وردت في ديوانه ، وكان يوماً مع محمود أيضاً وقد زلّت قوائم فرس كان تحته ، فقال أبياتاً ، وبقي ممتعاً بعقله وإدراكه وشاعريته وحواسه إلى آخر أيام حياته ، ولعله يشير إلى ذلك بقوله يخاطب نصر بن محمود صاحب حلب :

عَلَّمْتَنَا الطَّلِبَاتِ مِنْ بَعْدِ الْغَنَى وَرُزِقْتَ شَيْخاً يَقْبَلُ التَّعْلِيمَا

ولم يظهر عليه من علامات الشيخوخة إلا انحناء ظهره قبل وفاته ، على أنه كانحناء السيف من غير عجز ، وإلى ذلك يشير في آخر قصيدة قالها قبيل وفاته ببضعة أشهر :

وَلَمَّيْنِ حَنْتُ ظَهْرِي السَّنُونَ بِمَرِّهَا فَالرَّمْحُ يَنْفَعُ وَهُوَ غَيْرُ مَقْوَمٍ .

وقبل ذلك قال وقد ملّ طول الحياة :

صَحَبْتُ لِيَالِي الدَّهْرِ حَتَّى مَلَّسْتَنِي وَثَقَلْتُ حَتَّى آتَى لِي أَنْ أُخَفِّفَهَا .

أما أخلاقه فقد كان يغلب عليه الجد والتصاوت . فليس في سيرته أو شعره لهو أو عبث أو مجون ، ولم يكن مختلفاً فخوراً ، ولا سبباً طعناً ، ويكاد ديوانه يخلو من الغزل ووصف الخمر والفخر والهجاء ، لولا أبيات في هذه المعاني أحسن في بعضها وظهر عليه التعامل في بعضها .

ولعل غلبة الجد عليه جعلته خشناً في بعض أحاديثه ؛ قال ابن عساكر : « كان أبو الفتيان بن حيوس يوماً مع الشريف أحمد بن علي النصيبي قاضي دمشق في أيام المستنصر ، فقال الشريف : وددت لو كنت في الشجاعة مثل علي ، وفي السخاء مثل حاتم ، وذكر غيرهما . فقال له أبو الفتيان : وفي الصدق مثل أبي ذر الغفاري ، يعرض له بأنه كذاب ، لأن المترجم كان يرمى بالكذب » .

وكذلك قوله لأبي العلاء المعري لما أنشده شيئاً من شعر عبد المحسن الصوري وقال هذا لتصيرك . فقال له ابن حيوس هو أشعر من طويلك ؛ يعني المتنبي ، فأراد أبو العلاء أن يحول مجرى الحديث . فمد يده إليه وقبض على ثوبه وقال : الأمراء لا يناظرون .

كان ابن حيوس طموحاً إلى الثراء والجاه والاستزادة منهما، عزوفاً عن اللهو والتصابي ، وقد أشار إلى ذلك في عدة مواطن من شعره منها قوله :

أما الحسانُ فما لهنَّ عهودٌ ولهنَّ عنك وما ظلمن محيدُ
وابغ النباهةَ والثراءَ بعزيمةٍ لم يشنها لومٌ ولا تفنيدُ

وهو إلى ذلك شاعر منصرف إلى قرص الشعر لا يشتغل بسواه ، فلم يكن له بُدٌّ إذن من التكبس به ، وانه كان يدعي وإن لا يريد بمدحه المال لأنه غني موسر ، فمدح ولكنه لم يمدح إلا أميراً أو وزيراً أو من في معناهما ، وابتدأ بمدح والي دمشق انوشتكين الذبيري سنة ٤٢٠ ، وهو مولى تركي ، واستمر بمدح ولاة دمشق واحداً بعد واحد إلى سنة ٤٥٤ ، حين اضطربت أحوال دمشق ولم تستقم حال الولاية بعدها ، ومدح ثلاثة من الوزراء ورحل إلى القاهرة لهذه الغاية ، وكأنه حين التزم ألا يمدح رجال الدولة وأصحاب السلطان ، أصبح شاعراً من شعراء الدولة الفاطمية ومن دعاها السياسيين ، فكان يهاجم خصومهم ويشتمد على الخارجين عليهم ، ولكنه قد شهد مصارع جميع أولئك الولاة والوزراء الذين مدحهم واتصل ببعضهم اتصالاً وثيقاً ولم يرث واحداً منهم .

كان في مدحه لرجال الدولة ينال من بني العباس ، ويعرض بضعف الخليفة في بغداد ، ويزين للفاطميين الاستيلاء على العراق ، من ذلك قوله :

عجبتُ مدعي الآفاق مُلكاً وغيابته ببغدادَ الركودُ
ومِنْ مُستخلفٍ بالهُونِ راضٍ يُنْدادُ عن الحياض ولا يتدوود

وقد كان على تسننه يمدح رجال الدولة الفاطمية بما يرتاحون إليه من النيل من بني أمية وبني العباس ، ولكنه لم يتعرض للصحابة بسوء ؛ قال :

حوادثٌ ورثتُ مروانَ ظالمةً خلافةً لم يُخلقْها له الحكْمُ
وعاودتُ ببني العباسِ قاهرةً بني أمية حتى زال ملكهم
حتى إذا أفلعتُ عن جورها عقدتُ من ذي الإمامة عقداً ليس ينقصم

وكان أول من مدح من ولاة دمشق انوشتكين الذبيري ، وهو مولى

تركي جاء على رأس جيش ضخم لمقاتلة عرب الشام الذين خرجوا على طاعة
الفاطميين ، فكان ابن حيوس في قصائده بالذبري يمدح الأتراك ويعرض
بالعرب من ذلك قوله :

وعزيمة مُدَّة أَلَمَّتْ بِالشَّامِ بَنَّتْ	دونَ الخِلافةِ سُوراً ليس يَنهدمُ
وطالما عَرَّسَتْ في أرضه فِيتَنُ	تَشيبُ منها قلوبَ الخَلْقِ لا اللَّسَمُ
وربَّ جيشٍ إذا سالَ الفِضاءَ به	رأيتَ فيه جبالَ الأرضِ تَصطَلِمُ
بحرٌ فإنَّ عسلتْ ^٢ فيه الرماحَ أرتُ	أمواجَ بحرِ المنايا كيفَ تَلطمُ
ثناه بأسكِّ ^٣ فانصاعتَ كِتابيهِ	كأنَّ آسادها من ذِلَّةٍ نَعَمُ
عَنَّتْ حُمأةُ بيوتِ الشعرِ راغِبَةٌ	مذ طُنِّبَتْ ^٣ لك في أوطانها الخِيمُ
وكَمَّ لهم موقِفُ جالِ الحِمامِ ^٤ به	لو كان غيرك فيه الخِصمَ ما خُصِموا
منعتَ آسادهم قَسراً فرائِسَها	فليس يُنكرُ أنْ تنبو بها الأجمُ
ذَرَهُمُ ونُصرةً من لا ذوا بعقوتِه	فقد وهتَ عربٌ بالارومِ تَعْتصِمُ

وله أشياء كثيرة في هذا المعنى موجودة في قصائده بالذبري . فلما
أفل نجم الفاطميين من الشام ، واضطر ابن حيوس إلى مغادرة دمشق إلى
حلب والالتجاء إلى بني مرداس الذين طالما نهش أعراضهم ؛ ورأى عندهم
ما لم ير عند غيرهم من حسن الوفادة تغيرت نعمته فقال معرضاً بالفاطميين :

فكل نَوْءٍ بمصرٍ جادني زمناً فداءً نَوْءٍ سقاني الرِّيِّ في حلبا

وكان محمود بن نصر صاحب حلب قطع خطبة المستنصر الفاطمي وخطب

١ اللسم : جمع لمة وهي الشعر المجاوز شحمة الأذن .

٢ عسل : اضطرب .

٣ طنب : شد الخيمة بالأطناب أي الخيال .

للقائم بأمر الله الخليفة العباسي ، وارسل الخليفة اليه الخلع مع نقيب النقباء ، فقال ابن حيوس في ذلك قصيدة عرض بها بالفاطميين وبما يُروى عنهم من التأويل ويُرْمون به من التعطيل ، وذكر الخليفة العباسي بالتعظيم والتبجيل يقول فيها :

ولك الأدلةُ أوضحتُ حتى رأى
ولمرهفاتك بالفُنَيْدِقِ وقعةُ
إثبات فضلكَ من رأى التعطيل
غُرُوا بأنْ شَرَقَتْ عنهم مذهباُ
مألتُ مسامعَ مَنْ بمصر صليلا
في الرأي ما عرفوا له تأويلا
ومنها :

مِنْ مَقْرَبَاتٍ أوردتُ أماتُها^١
فلتحذرِ الهممُ المذاللةُ في الثرى
بردى^٢ وأحزرِ بأنْ يردن النيل^٣
منذ انبرتْ دونَ الخليفةِ جُنَّةُ
همماً تجرُّ على السماء ذُيولا
ولقد دعاكَ إلى التي إدراكُها
عَسِيراً فكنتَ بما أراد كفيلا
أعلمتتهُ أن ليس يذهب ثأره
ما دُمّتَ للحقِّ المبين مُديلا
وأتاكَ من إكرامه وصفاته
ما جاوز الإكرامَ والتبجيلا
هذا هو الشرفُ الذي لا يَرتقى
أدناه والعِزُّ الذي ما نيلا

وأراد أن يقطع صلته بالفاطميين ، فعالج طبعه واقتصره على نظم قصيدة

١ أمات : جمع أم ، أصل الشيء ؛ أم الطريق معطيه ، أم النجوم المجرة ، أم الرأس جلدة الرأس .

٢ نهر بردى : في مدينة دمشق ينبع من قرب الزبداني التي تبعد عن دمشق مقدار خمسين كيلو متراً تقريباً .

٣ نهر النيل : نه مصر العظيم ينبع من بحيرة فيكتوريا نياز فيجناز أوغندا والسودان ثم يجري في بلاد النوبة وفي مصر .

هجا بها بدرأ الجمالي وزير المستنصر ومدح محمود بن نصر ، وليس له في الهجاء من القصائد غيرها ، لأنه لم يكن هجاءً .

وكان محمود بن نصر بعد أن أغدق على ابن حيوس عطاياه وغمره بإحسانه أراد أن يقرعه ضمناً ، فاقترح عليه أن يرثي أباه نصر بن صالح الذي طالما مزق ابن حيوس أديمه ، وعيّن له البحر والقافية ، وفي ذلك من المضايقة والحرج والتبكيك المعنوي ما فيه ، لما فرط من أقوال ابن حيوس في النيل من نصر .

كان ابن حيوس على نبل أسرته ويساره وعلمه وأدبه وشاعريته زاهداً في الفخر والاعتداد بالعصبية العربية ، وهو أقل الشعراء فخراً واعتداداً بالنسب ، يشير إلى ذلك قوله :

فقد تركت غنياً غير متقليةٍ لما تجددت لي في عامرٍ نسبُ
(وغني) قبيلته و(عامر) جد بني كلاب قبيلة المرداسيين .

ولم تستيقظ به العصبية العربية إلا حين طغى سيل الأتراك السلجوقيين على العراق والشام قبيل سنة ٤٥٠ وعلى رأسهم طغرل بك السلجوقي ، وفي ذلك يقول ابن حيوس مستنهضاً همة الوزير اليازوري لصد طغرل بك الذي وصفه بالحية :

وقد دبَّ من أقصى المشارق حيّةٌ لها لدغاتٌ لا تُداوى ولا تُرقى
فطبقت تلك الأرض ظلماً وظلماً فكن فلتماً^١ يجلو دجوجيةً^٢ فلتما
فمن دون دينٍ قد توليت نصره قبائلٌ من قيس وقحطان ما تُلقي

١ الفلق : الصبح .

٢ دجوجي : مظلم .

هُمُ سُلْبُوا كَسْرَى بِنَ سَاسَانَ مُلْكِهِ وَقَبْلَهُمْ عَقَّ الْمَلُوكَ وَمَا عُقِّقَا
 وَذَادُوا عَنِ الْيَرْمُوكِ ذَادَةَ قَيْصَرٍ بِكُلِّ حَسَامٍ يَمْنَعُ النَّاطِقَ النَّسْطَقَا
 وَلَا شَكَّ أَنَّ التَّرِكَ يَنْسُونُ رَمِيهِمْ بَطْعَنٍ بِهِ أَنْسِيَتْ صِنْوَانَةَ الزَّرْقَا
 وَيَقُولُ أَيْضاً :

لَقَدْ طَاحَ الرَّجَاءُ بَطْغَانُ بَيْكٍ وَكَمْ أَمَلٍ إِلَى أَجْلِ يَقُودُ
 كَأَشْدَقِ عَبْدٍ شَمْسٍ إِذْ تَبَغَّتِي تُرَائِنًا لَمْ يُخَافَقَهُ سَعِيدُ
 وَجَاوَرَ أَهْلَ تِلْكَ الْأَرْضِ مِنْهُ مَرِيدٌ^١ لِاجْتِيَا حَيْهِمْ مُرِيدُ
 وَأَرْسَلْتَ الْعَتَاقَ^٢ الْجُرْدَ قُبَّأً يُعَارِضُ مُمْتَطِي مِنْهَا مَقُودُ
 وَمَنْ أَدَدٍ^٣ وَعَدْنَانَ^٤ عَلَيْهَا جُنُودٌ لَا تُتْلَقِيهَا جُنُودُ
 مِنَ الْأَسْرِ الَّتِي أَلُوتَ بِكَسْرَى وَذَاكَ وَمَنْ سِلَاحِهِمْ الْجُرِيدُ

ويقول لمسلم بن قريش لما استولى على حلب سنة ٤٧٣ وهي آخر ما قال من الشعر :

يَا رَحْمَةً بُبِعَتْ فَأَحْيَيْتَ أُمَّةً قَدْ طَالَمَا مُنِيَتْ بِمَنْ لَمْ يَرْحَمْ
 فِي يَوْمٍ قَارٍ رَايَةٌ لَكَ فَهَيَّمَتْ مِنْ قَادَةِ الْأَتْرَاكِ مَنْ لَمْ يَفْهَمْ
 لَمَّا تَقَاصَرَتْ الصَّوَارِمُ وَالْحُطَّى حَذَرَ الْبَوَارِ وَتَبَسَّتْ وَثْبَةً ضَيْغَمْ
 فِي عَصْبَةٍ كَعَبِيَّةٍ تَرَكَوَا الْقَنَا مَتَعَوِّضِينَ بِكُلِّ أَبْيَضٍ مِخْدَمْ

١ المرید : الشيطان .

٢ العتاق : الخيول الأصيلة .

٣ أدد : بطن من كهلان من القحطانية .

٤ عدنان : شعب عظيم يتصل نسبهم بإسماعيل (ع) كانت مواطنهم بنجد إلا قريشاً التي تقيم بمكة .

يَلْقُونَ أَعْدَاءَ^١ بِكُلِّ كَرِيهَةٍ
 قَلْتُمْ^٢ عِدَدَ الْعِدَى بِقَوَاضِبِ
 مِنْ مُرْهَفَاتٍ لَمْ تَزَلْ أَيْمَانُكُمْ^٣
 مَا عَايَنْتَهَا التَّرْكُ تُحْكَمُ فِي الطَّلَى^٤
 مِنْ نَابِذٍ لِسِلَاحِهِ فَاتِ الرَّدَى
 فَنَخَصَصْتَ بِالْإِذْذَالِ كُلَّ مَقْلَنْسٍ^٥
 وَغَدَاً سَتُخْلِي الشَّامَ مِنْهُمْ^٦ مِثْلَمَا
 يَوْمٌ لِعَمْرِكَ لَمْ تَزَلْ أَخْبَارُهُ
 عَزَّتْ بِهِ عَرَبُ الْبِلَادِ كَعَزَّهَا
 أَصْفَيْتَ لِلْعَرَبِ الْمَشَارِبَ بَعْدَ أَنْ
 يَجْتَابُ^١ فِيهَا اللَّيْثُ ثَوْبَ الْأَرْقَمِ^٢
 كَثُرْنَ أَزْوَادَ النَّسْرِ الْحَوْمِ
 أَنْصَارَهَا فِي كُلِّ يَوْمٍ أَيُّومٍ
 حَتَّى تَوَلَّتْ طَائِشَاتِ الْأَسِيمِ
 سَبْقاً وَمِنْ مَسْتَلْتِمٍ مَسْتَسْلِمٍ
 وَعَمِمْتَ بِالْإِعْزَازِ كُلَّ مُعَمَّمٍ^٣
 أَخْلَعْتَ خِزَاعَةَ (مَكَّةَ) مِنْ جَرَاهِمِ
 مَسْمُوعَةٍ مِنْ مُنْجِدٍ أَوْ مُتَّهِمِ
 بِالْقَادِسِيَّةِ يَوْمَ مَقْتَلِ رَسَمِ^٤
 كَانَتْ كَرْمَحٌ لَا يُعَانِ بِلَهْزَمِ

وفي هذه القصيدة يذكر نسبه الذي طالما تناساه فيقول :

إِنَّ الْوَفَاءَ طَرِيقُ أَسْلَافِي الْأُولَى عَمَّرُوهُ مَا بَيْنِي وَبَيْنَ الْهِيمِ

هذه صورة استعنت على تصويرها بأخبار الشاعر وأقواله ، قد تكون غير تامة ولكن فيها مشابهة تحكيه في أخلاقه وأطواره ؛ وقد يكون له عذر في بعض ما يؤخذ عليه في سيرته ، وقديماً قيل : يباح للشاعر ما لا يباح لغيره .

١ اجتاب : لبس .

٢ الأرقم : الحية الحبيبة .

٣ الطلى : الرقاب .

٤ مقلنس : لايس القلنوسة .

٥ معمم : لايس العمامة .

٦ رسم : قائد الجيش الفارسي في وقعة القادسية التي انتصر بها المسلمون على الفرس واستولوا

إثرها على بلاد الفرس .

شعره

ابن حيوس شاعر محسن ، لم يدون شيء مما قاله من الشعر إلا بعد أن بلغ السادسة والعشرين من عمره ، فليس في ديوانه قصيدة قيلت قبل سنة (٤٢٠) والشعراء عادةً يبدأون بنظم الشعر قبل بلوغهم العشرين .

ولعله لم يرتض ما قاله في صباه فأتلفه ولم يدون منه شيئاً .

وبواكير قصائده تريك أنه كان ينحو منحى أبي تمام الطائي ويرسم خطاه على أصعب السبل ، وأعني بذلك أنه يذهب مذهبه في الصنعة اللفظية وفي الغوص على المعاني ، من ذلك قوله من قصيدة قالها :

أوصابٌ جسيمي من جناية بُعدكم والصبْرُ صبْرٌ بعدكم أوْ صابٌ^١
دامتُ سحابةٌ تحتَ ظلِّ سحابةٍ وجرى على دار الربابِ ربابٌ^٢
وسقى بقماعِ الجونِ جَوْنٌ مُرزمٌ^٣ ما للذّهابِ الغمرِ عنه ذهاب

وهي كما ترى صنعة لفظية متكلفة ، وفي القصيدة نفسها محاولة للغوص على المعاني على طريقة أبي تمام يقول فيها :

كانوا حديداً في الوغى لكنّهم لما اصطلوا نارَ المظفرِ ذابوا

١ الصاب : المر .

٢ رباب : المطر .

٣ مرزم : نجم في السماء ، وأرزم صوت .

ويقول :

وجواهرٌ غمرَ النَّضارَ شُعاعُها فعليه من أنوارها جلابُ

ومنها :

ومن الثنا عَرَّضَ ومنه جواهرٌ ومن الجواهر جامدٌ ومُنْدَابٌ
رَوَّيْتَ تَرَبَ المجد تَرَبَ مدائح لسهولها ووعورها أعشاب
والأرض تُجذب حين يهجرها الحيا ويُصَاب فيها الخِصْب حين تُصَاب

هذا في أوّل أمره ، فلما احتنك وملك زمام القول أحسن التصرف
في السير على نهج أبي تمام ، وبقي معجباً به إلى آخر حياته ، يلذ له أن يحاكيه
في أوزانه وما يسهل عليه من أغراضه ، كقصيدته في فتح حلب التي أولها :

سَلّ المقاديرَ ما أحببته تُجَب فما لها غيرَ ما تهواه من أرب

وقد عارض بها قصيدة أبي تمام في فتح عمورية :

السيفُ أصدقُ انباءٍ من الكتب في حدّه الحد بين الجِدِّ واللعبِ
وكأبياته في وصف القلم :

عجباً لها تجري بأسودَ فاحم يكسو الطروسَ ظلامه أنوارا

وهي تنظر لأبيات أبي تمام في وصف القلم :

لك القلمُ الأعلى الذي بشباته تُصَاب من الأمر الكُلى والمفاصلُ

وهو معجب أيضاً بالبحثري ، يشبهه في بعض قصائده من حيث استواء
الشعر وعدم التفاوت ، ولكن إعجابه بأبي تمام أشد؛ وبشعرهما تخرج وعلى
غرارهما تطبع ، وإلى ذلك يشير في وصف قصيدة له :

لو أن فحلتي طيء حضرا لها أمضى حبيب^١ حُكْمَهَا ووليد^٢

ولم يكن من المعجبين بأبي الطيب المتنبي .

أظهر خصائص شعر ابن حيوس الفصاحة والجزالة والاستواء وعدم التفاوت وطول النفس ؛ وقد عزا ابن فضل الله العمري^٣ فصاحة أسلوبه إلى أنه كان يخرج إلى البادية ويعاشر البدو؛ قال : « . . وكان يتردد إلى البادية أحيانا . ويتخذ مما حوّل الزمان أوطانا ، فأنت على أشعاره فصاحة البدو ولطف الحضر ، وجاءت فيها مواضع كأنما خرجت من ألسنة العرب » .

وكان حبه للجزالة والسمو أغراه بالإكثار من ذكر الجبال واليافع والتشبيه بها وذكر أسمائها كرضوى وحراء وشهلان ومُتَالع وشمام ويللمم ويذبل وأجأ وسلمى ؛ ولأمر ما لم يذكر من ملوك الغسانيين الا جبلة بن الأيهم ، وجبلة مشتق من الجبل والأيهم الجبل الصعب الطويل الذي لا يُرتقى . وهو أميل إلى الأوزان الجزلة الطويلة كالطويل والبسيط والكامل والوافر ، وقلما يختار الأوزان القصيرة ؛ وهكذا فالمتانة في شعره أظهر من الرقة ، وربما أرادها فاستعصت ، وقد كان هو نفسه يعلم ذلك من طبعه .

قال ابن عساكر^٤ : « سمعت جدي القاضي يحيى بن علي القرشي يذكر عن أبي الفتيان ابن حيوس أنه كان يقول : إني ليعرض لي الشيء من شعر أبي

١ حبيب : هو الشاعر أبو تمام الطائي الذي انتهت إليه رئاسة الشعر في العصر العباسي .

٢ وليد : هو الشاعر البحراني تتلمذ على أبي تمام وكان شاعر عصره بعد استاذه .

٣ ممالك الأبيصار ج (١٠) ص ٣٤١ مخطوط ، ورد في شرح المؤلف رحمه الله .

٤ تاريخ دمشق لابن عساكر ترجمة عبد المحسن الصوري ج ١٠ ورقة ٢٢٥ مخطوط ، ورد في شرح المؤلف رحمه الله .

تمام والبحثري وغيرهما من المتقدمين ، فأعمل في معناه فأبلغ مرادي منه ،
ولا أقدر على أن أبلغ من موازنة شعر عبد المحسن الصوري ما أريد ، لسهولة
الفاظه وعضوبة معانيه وقصر أبياته ؛ وذكر شيخنا أبو القاسم النسيب قال :
قال لي أبو الفتيان ابن حيوس : يقال إنَّ أغزل ما قيل قول جرير :

إنَّ العيونَ التي في طرفها حَوْرٌ قتلنا ثم لم يُحيينَ قَتَلنا
يصرعن ذا اللبِّ حتى لا حراكَ به وهنَّ أضعفُ خلقُ الله أركاناً

وقول عبد المحسن أغزل منه :

بالذي ألهمَ تعذيرَ بي ثنَّايكِ العذابا
ما الذي قالتَه عينا كِ لقلبي فأجابا

وشعره على كثرته بيَّينُ الاستواء غير متفاوت يشبه بعضه بعضاً ،
وقد يعاود في بعض قصائده ولكنه قلماً يسفّ أو يسخف ؛ فاه الحسن وله
الأحسن ، والرديء نادر جداً ، فهو من هذه الناحية يشبه البحثري ، على
أنَّ البحثري أطبع وأعذب .

وهو من أطول الشعراء نفساً ، تراوح أبيات قصائده بين السبعين والمائة
وقد تزيد ، وليس له من المقطعات إلاَّ مقدار يسير ، يشابه في طول نفسه
ابن الرومي ومهيار الديلمي ، ويقصر عن الأول في ابتكار المعاني وتعدد
المناحي .

والغريب في أمره أنَّ أحسن شعره وأمتنه وأكثره اطراداً وتسلسلاً
ما قاله بعد أن بلغ السبعين من عمره ، وهي السن التي يسكت فيها الشعراء
عادة ؛ والقصيدَة التي قالها قبل وفاته بأشهر وهو شيخ هرم قد بلغ الثمانين
وأنشدها بحضرة مسلم بن قريش من الصفوة المختارة من شعره ، وفي ذلك

دليل على قوة طبعه وتوقد شاعريته .

وقد كان على فصاحة أسلوبه ونصاعة بيانه يعتمد إلى الصنعة اللفظية ويذهب في ذلك مذهب أبي تمام ، وقد أخذ عليه ابن فضل العمري شدة ولعه بالجناس فقال : « . . . وديوانه كبير الحجم ، كأنما طلع في آفاقه النجم ، وقد اعتمد فيه الجناس فأكثر منه حتى كدر صفوه الزلال ، وستر عفوه حتى كاد يبطل به عمل السحر الحلال »^١ .

ومما يسترعي الانتباه أن لحاسة الشم محلاً في عدة مواطن من شعره من ذلك قوله :

مجدٌ تَضَوَّعتِ البلادُ بنشره طيباً فأغنى سائفاً^٢ أن يسمعا
ما إن أتى فهم القريب عبارةً حتى أتى أنفَ البعيد تَضوُّعا

وقوله يصف إحدى قصائده :

إذا قلَّ عَرَفُ المسك من طول لبثه أجدَّ لها مرَّ الليالي تَضوُّعا

ومثل ذلك غير قليل في شعره .

ويُعجبني من معانيه التي أحسن فيها قوله :

مخالفةً أقوالهمُ وفيعالهمُ^٣ كما خالف الصهباء لونُ الفواقع^٣

وقوله :

وقد تسلِّدُ المعروفَ أيدي كثيرةٌ ولكنَّها من قبله تُسكَّرُ الطَّلَاقا

١ مسائل الأبصار ج ١٠ ص ٣٤١ مخطوط ، نقلا عن حاشية المؤلف .

٢ السائف : المستنشق .

٣ الفواقع : نفاخات تملأ الخمرة .

وقوله :

تُضحى سَيُوفُكَ لِلبِلَادِ مَفَاتِحاً فإذا فتحت جعلتها أقفالا

وقوله :

وجواهرُ غمر النَّضَارِ شُعَاعُهَا فعليه من أنوارها جِلِبَابُ

وقوله :

فبكى وأضحكه الرجاءُ فما رأتُ عينُ سِيَوَاهِ ضاحكاً مُستعبِرا

وقوله :

ولم يكُ مِثْلَ الصُّبْحِ يَقدِمه الدُّجَى ولكنَّها شمسٌ تقدّمها فجرُ

وقوله :

زانتُ فضائلهُ بدائعَ نظمها كم معصمٍ أضحى يزِين سِيَوَارا

وقوله :

أناسٌ سَقُوا دَرَّ الإِبَاءِ لِيَتَخُوا كما سَقِيَ المَاءَ الحَديدُ لِيَصَلِبَا

وقوله :

تُذكى مصابيحُ الظلامِ عُلالةً أبدأ وما يَجْلوه كَابِنُ ذُكَاة

وقوله :

كذلك النارُ في نفعٍ وفي ضررٍ مَيِّمَمٌ نورُها مرهوبةُ اللّهبِ

وقوله :

شفع الشجاعة بالخشوع لربّه
ما أحسن المحراب^١ في المحراب^٢
وقوله :

وإذا النارُ نام موقدها عن
بها فأجدرُ بأنْ تحولَ رمادا
وقوله :

وَوَلَّوْا عَن حَرِيْمِهِمْ فِرَارًا
فكنتَ بصونٍ مَن تركوا حَقْمِيْقًا
وقوله :

تجارى بفرسانٍ تُضَاعَفُ أَيْدَاهَا
إذا صارتِ الأيدي من الرعب أرجلا
وقوله :

يَبْدُلُ^٣ وَلَمْ يَبْدُلْ عَلَى نَهْجِ سُودِد
كذلك النجومُ الزُّهُرُ تُتَهْدَى ولا تُهْدَى
وقوله :

ولا تُخَلِّ قَلْبًا فِي الْوَرَى مِنْ مَخَافَةٍ
فلولا حياة الخوف لم يمت الحِقْدُ
وقوله :

جناحا جارحٍ غرثان هِيضًا
فأصبح لا يطير ولا يصيد
وقوله :

به صمم^٤ عند السؤال فإن^٥ لحي^٣
على الجود لاح كان أسمع من خلد

١ المحراب : الشجاع .

٢ المحراب : القبلة التي يتجه المصلي نحوها .

٣ لحي : لام .

ومثل ذلك غير قليل ، تقدم بعضه في الأمثلة التي سبق لإيرادها من شعره .

ويلوح على شعره أثر الثقافة في الأدب واللغة والتاريخ ، إلى إلمام بالعلوم الدينية والعقلية ، وقد سبق تفصيل ذلك في الكلام على علمه وأدبه ؛ ولكن هناك أثراً آخر ، هذا مكان معالجته ، وهو أثر الباطنية في شعره .

كان ابن حيوس سنياً ولم يكن باطنياً ، ولكنه ولد ونشأ في حكم الدولة الفاطمية ، واتصل بولاتها ووزرائها زمناً طويلاً ؛ وقضى من عمره سبعين سنة في سلطانها ، فترك كل ذلك أثراً ظاهراً في شعره .

وكان هواه السياسي - على تسننه - مع الفاطميين حتى عُرف بمشايعته لهم وكان يمدح رجالهم بما يرتاحون إليه ، ويدعو إلى طاعة القوم ويحمل على خصومهم ، ولم يكن له بد من ذلك بعد أن أصبح وكأنه شاعر الدولة في الشام . وأبرز أثر للباطنية في شعره تقديس أئمتهم تقديساً يرفعهم إلى أفق أعلى ، ويجعل الدنيا مخلوقة لأجلهم ، وفي ذلك يقول :

وقد جرى القلم الأعلى بنصرته فقبلَ يُدعى به مستنصراً نُصراً
وخصُصَّ بالشرف المحض الذي ارتفعت له النواظرُ والنورِ الذي بهرا
نورِ النبيِّ الذي ما زال منتقلاً فيممنّ دعا ظاهراً منهم ومستترا
أهل الصفا كَرُمَتْ أَعْرَاقُهُمْ وزكت فكل صفوي سواهم عائدٌ كدرا
وما بقى خالفٌ منهم فما نقضت من الهندي والندي أيدي الردي مِردرا
هُم الألى أخذ اللهُ العهودَ لهم والناس ذرٌّ على من برّ أو فجرا
لأجلهم خلق الدنيا وأسكنها وذنّب آدمَ لولاهم لما غمّيرا
أئمةٌ لم يغبُ عنا لهم قمرٌ إلاّ وأعقبنا من سنخه قمرا
لا تسألنَّ القوافي عن فضائلهم إن شئتَ تعرّفها فاسأل بها السؤورا

وهذا بعض ما يعتقده الإسماعيليون في أئمتهم ؛ ولا بن هانيء الأندلسي
كبير شعراء الفاطميين وأقدمهم قصائد في المعز الفاطمي تشتمل على عقيدة
الإسماعيليين في الإمام منها قوله :

هو علّةُ الدنيا ومن خلقتُ له وليعلّةٍ ما كانت الأشياءُ
من صفو ماء الوحي وهو مُجاجة^١ من حوضه ينبوعٌ وهو شفاء
من أيكّة الفردوس حيث تفتتتُ ثمراتها وتغفياً الأفياء
من شعلة القبس التي عُرِضتُ على موسى وقد حارتُ به الظلماء
من معدن التقديس وهو سلالة^٢ من جوهر الملكوت وهو ضياء
من حيث يُقتبس^٢ النهارُ لمبصرٍ وتُشقُّ عن مكنونها الأنباء
فتمنّبوا من غفلةٍ وتيقظوا ما بالصباح عن العيون خفاءُ
ليست سماءُ الله ما تراونها لكن أرضاً تحويه سماء
أما كواكبها له فخواضعُ تُخفي السجودَ ويظهرُ الإيماء

وقوله :

ما شئتَ لا ما شاءت الأقدارُ فاحكم فأنتَ الواحدُ القهارُ

ولم يبلغ ابن حيوس هذا المبلغ ، لأن تسننه يحجز بينه وبين الغاية التي
جرى إليها ابن هانيء .

وفي قسم من شعر ابن حيوس ظاهرة غريبة وهي تهوين شأن العرب ؛
تجدها في كثير من القصائد التي مدح بها انوشتكين الدزبري ؛ مثال ذلك
قوله للدزبري :

١ مجاجة : عصارة .

٢ اقتبس : أخذ شعلة ، استفاد ،

بنيت للعجم المجده المبلغتهم ° مجداً بناه رسول الله للعرب
 لاذت بك العرب العرباء^١ واعتلقت من جود كفك حبلاً غير منقضب
 أصفيتها المال شرباً والعلى كلاً من بعد أن رضيت بالماء والعشب
 ناقضت حكمهم^٢ لسا أجتهم ما قد سليت بأطراف القنا السائب
 أعدمتها الجهل والإعدام مذ وجدت في ظلك الرغب^٢ المخلوط بالرهب

ومثل هذا تجده في بعض قصائده ، ولست أدري أكان ذلك اقتفاءً
 لأثر ابن هانيء الذي يقول :

ولم أقسك بشييان وما جمعت لكننما أنت عندي كل ربي^٢
 لا بل ربيعة والأحلاف من مضر بل أنت كل تيهامي ونجدي
 بل شسع نعلك عدنان وما ولدت بل أنت وحدك عندي كل إنسي^٢

على أن ابن حيوس رجع عن تهوين شأن العرب ، وتنبهت به العصبية
 لما رأى سيل الأتراك السلاجوقيين يطغى على العراق والشام .

ومن آثار الباطنية في شعره نسبة المعجزات إلى غير الأنبياء ، فقد طالما
 نسبها إلى ممدوحيه من الولاة والأمراء والوزراء ، وادعى أن سلطتهم من
 السماء ، وله في ذلك أقوال كثيرة ، منها قوله :

لتخذت إعجاز الأنام خليقة^٢ فغريب ما تأتيه لا يستغرب^٢

وقوله :

هناك انفرادك بالمعجزات ويومك ذا فهو يوم أغر^٢

١ العرباء : الصرحاء الخالص .

٢ الرغب : المرغوب .

وقوله :

قضى بحكم الكتاب مُتَّبِعاً وأظهر المُعْجَزَاتِ مُبْتَدِعاً

وقوله :

ما هذه الأفعال في قَدَرِ الوري فلذاك نحن نَظُنُّ بِمَقْضَاتِنَا كَدَرِي

وقوله :

وهل تَعَصِي ملوكُ الأرض مَلِكاً بِسُلْطَانٍ سَمَائِيٍّ أَعِينَا

وأمثال ذلك كثيرة جداً ؛ ومن آثار الباطنية في شعره أنه كان يصف بعض من يمدحهم بالتقية ، ويقرنها بصفات المدح كالحمية والحزم ، من ذلك قوله :

ولقد جمعت حميةً وتقيةً ثننا إليك عنانَ كلِّ ثناء

وقوله :

حميةٌ بأسٍ قد تلتها تقيةٌ فطالوا وهُمُ بدوٌ وطابوا وهم حَصْرُ

وقوله :

ذُدتَ الحميةَ بالتقيةَ^١ راغباً في الأجر تُعْرَبُ في الجميل وتُبدع

وقوله :

ولقد أضفتَ إلى التقيةَ هيبةً جبرتَ عُدوكَ أن يَدُلَّ ويخضعَا

وقوله :

١ التقية : التستر ، أظهرارك خلاف ما تخفي في نفسك .

فاق الملوك حميةً وتقيةً مليكٌ سرتُ عز مساتته وأقاما

وقوله :

حميةً أفنت المران^١ تنصرها تقيهً زال فيها الشك والوهم^٢

ومنها استعمال القول المأثور الذي يتمثل القوم به كثيراً (جفّ القلم)

قال :

جرى لك في اللوح ألاّ عزيز يعزُّ عليك وجفّ القلم^٣

ومنها إشارته إلى أحكام النجوم ، فقد كان القوم يعنون بها وبتأثيرها واختلاف مطالعها وقيرانها قال :

وأرى النجوم تخالفت أحكامها إلاّ عليك فإمن^٤ سعود^٥

وقال :

فلا تجعل لمقدمه أواناً عليه الطالع المختار دلاً
وأبعد^٦ أن تدبره نجوم تمنى أن تسحلّ بحيث حلاً

وقال :

وإذا نظرت إلى عواقب رأيه أيقنت أن ظنونه تنجم^٧

وقال :

لأنك منذ صرت لها قريناً بدا في الأرض تأثير القيران^٨

١ المران : الرماح .

٢ تنجم : رعى النجوم وراقبها .

٣ القران : السيف .

وهذا بحث طريف يحتاج استقصاؤه وشرحه إلى دراسة خاصة .

وأبواب شعره على كثرته قليلة طغى عليها باب المديح ، فليس له في الحكمة أو الفخر أو الهجاء ما يستحق الدراسة ، وليس له في الرثاء قصيدة خالصة ، وإنما له أربع قصائد يصح أن يكون عنوان ثلاث منها (مات الملك فليحي الملك) ، وذلك أن ابن حيوس كان يرثي السلف من الأمراء ويعزي الخلف ويمدحه وهو المقصود .

قال الصلاح الصفدي في الوافي بالوفيات : ولابن حيوس أبيات جمع في كل بيت منها بين الرثاء والمديح وهي :

فلا لله ملكٌ زَيْنَ الدستِ ١ ملكُهُ	وجاد الحيا ملكاً تضمَّنه القبرُ
وكنا نظنُّ الأرضَ تُظلمُ بعده	فقمتم مقام الشمس إذ أفل البدر
صبرنا على حكم الزمان الذي سطا	على أنه لولاك لم يكن الصبر
غزانا ببؤسى لا يفارقها الأسمى	تُقارن نُعمى لا يقوم بها شكر
وكاد شعارُ الخوفِ ينبثُ في الورى	فنادى شعار الأمن يا نصر يا نصر

فلم يبق له إلا قصيدة واحدة رثى بها محمود بن نصر وعزى بها والدته علوية ابنة وثاب النميري أولها :

يطمع الناسُ في البقاء وتأبى نوبٌ تسلَّب النفوس اغتصابا

وغزله قليل ، وقد يكون أقل الشعراء غزلاً ، وربما أشار في بعض قصائده إلى ذلك قال :

فضائلٌ ملأت شعري بكثرتها من أن يفوزَ به التشبيبُ والغزَلُ

١ الدست : صدر البيت ، المجلس .

وذلك الغزل القليل أحسن في بعضه :

أرقدتَ عن قَلْبِكَ الفؤادَ مشوقِهِ فأمرت بالسُلوانَ غيرَ مُطِيقِهِ
ممنطقَ يُغني النديمَ بوجهِهِ عن كأسه المألَى وعن إبريقِهِ
فِعْلُ المُدَامِ ولونها ومَناقِئُها في مقلتيهِ ووجنتيه وريقِهِ
وليس له في الغزل الخالص إلا قصيدتان، قَصُرَ فيهما نَفَسُهُ على خلاف
ما عرف به من طول النفس ، وليس فيهما ما يطرب .

على أن له أبياتاً حسنة في الحنين إلى دمشق والتفجع على فراقها ، ذكر
فيها مسارح صباه ، ومعاهد أنسه في متنزهاتها مثل النيرب^١ وسطرى^٢
ومقرى^٣ وفي ما يحيط بدمشق مثل آبل ودير قانون وعلمية وداعل .

وله في الوصف مقاطع حسنة ، ولكنها قليلة أتت ضمن قصائد المدح
كوصف موكب الأمير حيدرة بن مفلح والي دمشق ، ووصف الدار التي
بناها محمود بن نصر بن مرداس صاحب حلب .

أما المديح فهو الذي طغى على كل ما سواه ، يطول به نفسه ، ويتصرف
به كما يشاء وتنقاد له القوافي وتطيعه المعاني ، فيعبر عما يحيك بصدره ويجول
بخاطره بأسلوب جزل مبین ، وكأتما قصائده في المدح صور أو سير للممدوحين
تصف خصائصهم وتنطق بأعماهم وتشير إلى حوادثهم ، وليست من المدح
المبتذل الذي يمكن أن يمدح به كل إنسان .

وتشتمل قصائد مدحه على فنون من القول يقتضيها المقام ، كوصف
الوقائع والسلاح والخيل وغير ذلك ، ولكنه لا يتغزل في مطالعها إلا في
القليل النادر . وهي في جملتها أشبه بالشعر السياسي ، لأنها قيلت في الملوك

١ ، ٢ ، ٣ متنزهات في غوطة دمشق معروفة حتى اليوم وقد وصفها كثير من الشعراء .

والوزراء والأمراء ، وفي كل دعوة إلى سياسة الممدوح وحملة على خصومه ، حتى عُرِفَ بمشايعته لسياسة الفاطميين ثم لبني مرداس .

وهو على استواء شعره وعدم تفاوته ، له الحسن والأحسن ، وتعجبني من شعره ثلاث قصائد تعد من عيون الشعر أحسن فيها كل الإحسان ؛

مطلع الأولى :

كفى الدينَ عزاً ما قضاه لك الدهرُ فمن كان ذا نذرٍ فقد وجب النذرُ

والثانية :

قِفُوا في القبلى^١ حيث انتهيتم تدممًا ولا تفتنوا^٢ من جار لما تحكّمًا

والثالثة :

ما أدرك الطلّبات مثلُ مُصمّمٍ إن أقدمت أعداؤه لم يُحجمِ

أما منزلته بين الشعراء فقد اتفق على أنه من المحسنين المجيدين ، انتهت إليه زعامة الشعر في الشام بعد وفاة أبي العلاء المعري ، فلم يكن في الشعراء من يتقدم عليه .

قال ابن ماكولا : « الأمير أبو الفتيان محمد بن حيوس شاعر مجيد لم أدرك بالشام أشعر منه »^٣ .

على أن الذين سبقوه من شعراء الشام كأبي تمام الطائي والبحثري وأبي العلاء المعري كانت لهم زعامة الشعر العربي عامة ، أما ابن حيوس فقد آلت إليه زعامة الشعر ولكن في الشام خاصة .

١ القلى : التباغض .

٢ اقتفى : اتبع .

٣ الإكمال في رفع الارتباب عن المؤلف والمختلف من الأسماء والكنى والأنساب ج ١ ، ورقة ١٨٥/ مخطوط . ودعاه الذهبي في سير أعلام النبلاء ج ١١ ، ص ٤٧٩ بشاعر الشام ، كما دعاه المزني في الكشف والبيان ج ٢٢ ورقة ١٢ بأمر الشعراء ، وكلاهما مخطوط . هذا ما أورده المؤلف رحمه الله .

لغته

من خصائص ابن حيوس فصاحة لغته وجزالة ألفاظه من غير إغراب .
ومفرداته على كثرتها ليس فيها وحشي أو مستكره ، وهو بصير في
انتقائها وصوغها ووضعها حيث ينبغي أن تكون .

وتراكيبه محكمة رصينة يقل فيها التقديم والتأخير ، وقوافيه على طول
قصائده تدل على سعة ثروته اللغوية ليس فيها مجتلب أو مقتسر ؛ وقد يستعمل
في تراكيبه غير المؤلف ليدل على سعة اطلاعه في العربية وعلومها ، من
ذلك قوله :

مُتَوَرَّةٌ طالما أنضيتها تنعياً علماً بأن سيحني الراحة التعبُ

وهذا تركيب غير مؤلف ولكن سبقه إليه أبو السمراء الغساني فقال :

كلُّ الرجال وإن تعفَّ جهده لا بدَّ أن بنظرةٍ سيخونُ

ومن ذلك قوله :

لو كان ذبُّك في الزمان اللذُّ مضى لم تفتخرُ بحمي كليبٍ تغلبُ

والذُّ لغة في الذي ؛ قال أبو الطيب المتنبي :

لو لم تكن من ذا الوري اللذُّ منك هو عقتت بمولد نسلها حواءُ

وثناه بحذف النون فقال :

وراءها علما النصر اللذا كفتلاً لمن أظلا بعُ ليس ينتحل

وعدد الناعل في قوله :

ففرقهم^١ بحر الردى وهو ساكن فماذا يظنون الشقيون إن طمى

على أن الذي أريد أن أخصه بالذكر ، ألفاظ حظيت عنده فأكثر من ترديدها ، منها المساعي ويريد بها الأعمال العظيمة الصالحة ، ومادة (سطا) وما يشتق منها كالسطوة ويجمعها على سَطَى ، ويكثر من استعمال (تردي الخيل) أي ترحم الأرض بحوافرها ، كما يكثر من استعمال (ألوى به) أي ذهب به وأهلكه ؛ وقد سبقت الإشارة إلى كثرة ما يلهج به من ذكر الهضاب واليفاع والجبال وترديد أسمائها . ومما أغري به لإضافة كلمة أم إلى المعنى الذي يريده : كأم العزاء وأم الهم وأم الغادرين وأم المخافة وأم المدامة وأم الحمد وأم المعجد . قال :

وترى بها أمَّ المدامةِ عاقراً أبداً وأمَّ الحمدِ حُبلى متئماً^١

ويستعمل (ظافر) بمعنى ظاهر أو أيّد ، ويكثر من استعمال عاود بدلاً من عاد . وفي لغته كلمات وجمل لا يزال الدماشقة يستعملونها في أحاديثهم إلى اليوم مثل (العواني ، وحمل الثقلة ، والتثقيب ، والتخفيف ، وكفسي) .

قال :

وعوافٍ ترى ولا رؤيتُ منك ربوعُ العليا وهنَّ عوافٍ

وهي جملة دعائية لا يزال أهل دمشق يستعملونها فيقولون (على العواني) .

وقال :

١ متئم : وضعت اثنين في بطن واحد .

فلا يُأزمني شُكْرُها حملَ ثقله فمن لي بشعر حاملٍ منه ما خفياً
لعمري لقد خولت ما دونه الغنى وفي عشر معشار الذي نلت ما كفى

وقال :

صحبت ليالي الدهر حتى مللني وثقلتُ حتى آن لي أن أخفياً
وهذه كلها تعابير يصح أن يطلق عليها دمشقية .

واستعمل كلمة (جمعس) بقوله :

وجعمسني^١ مستنجداً فصفعته ففقتُ بلا أنفٍ وقام بلا راسٍ

ويظهر أنها من لغة العامة في دمشق بعصر الشاعر بمعنى هزّ رأسه أو رفعه . وقد بقيت إلى عصر ابن عنين (أوائل القرن السابع) فاستعملها بمعنى التيه قال :

تجمعس قلّ^٢ من يناظره في الناس إلاّ تعنفق^٢ الرّحبي

وقد وردت في شعره أسماء رومية لمجاورة الروم للشام ولكثرة الوقائع بين العرب وبين الروم في أيام الشاعر ، منها : الدوّقس وهي لاتينية أي الرئيس ، والدمستق وهو لقب قائد جيش الروم ، والبطريق وهو القائد من قواد الروم تحت يده عشرة آلاف رجل ، والقطبان وهو عامل انطاكية الرومي .

قال :

١ جمعس : في القاموس تجمعس أي أفحش .

٢ تعنفق : في القاموس عفق الحمار إذا أخرج ريحاً .

كالدوقس المغرور ظنَّ بجيئه أنَّ الوهاد^١ تُطاول الآكاما^٢

وقال :

وليلزم الحصنَ الدمستقُ محجماً عن حربها فسيحمد الإحجاما

وقال :

وافى ملك الروم منه مانعٌ عن نصر دوقسيه وعن بطريقه

وقال :

وقالوا بغى القسطنطينُ اللقاءَ وأوعد بالحرب فيما زعمُ

١ الوهاد : الأراضي المنخفضة .

٢ الآكام : جمع أكمة وهي التل .

ديوانه

رزق ابن حيوس السعادة بشعره ، فكان بنو مرداس يعطونه على القصيدة ألف دينار ، وكان الأدباء والعلماء في حياته يتلقون شعره عنه ، ويقرأونه عليه ، ويقراه الناس عليهم في الشام وغير الشام . فقد روى شيئاً من شعره أبو القاسم علي بن إبراهيم النسيب خطيب دمشق ، وسمع منه طائفة من شعره قاضي دمشق يحيى بن علي القرشي جد ابن عساكر لأمه وقرىء عليه في بغداد سماعه من شعر ابن حيوس .

وعني الأدباء بعد ابن حيوس بجمع شعره وتلويته ، فكان منه ذلك الديوان الضخم ، وجمعه غير واحد ؛ قال جمال الدين القفطي في كتابه «المحمدون من الشعراء» : (جمع ديوانه جماعة وأجود ما جمعه ابن أكبر بن المعري نزيل مصر فإنه أكبرها وأكثرها) .

والمعروف من نسخ ديوانه أربع :

الأولى : نسخة السلطان سليم المحفوظة في خزانة لالدي باستانبول

رقم ١٧٢٦

الثانية : نسخة رئيس الكتاب المحفوظة في خزانة عاشر باستانبول رقم ٩٤٩

الثالثة : نسخة دار الكتب المصرية بالقاهرة رقم ٥٩١ ، فهرس الدار

ج ٣ ص ١٠٧

والرابعة : في غوطا بألمانيا رقم ٢٢٤١ فُقدت مع ما فقد من كتب
غوطا في الحرب العالمية الثانية .

أما نسخة المرحوم أحمد تيمور باشا فهي منقولة عن نسخة دار الكتب
المصرية .

وفي خزانة مجلس النواب في طهران ديوان مخطوط ذكر في الفهرس أنه
ديوان ابن حيوس . وبعد تصويره اتضح لنا أنه لشاعر من أهل كرمان
متأخر عصره عن ابن حيوس الشاعر الذي انجبتة دمشق قبل نحو من
ألف سنة .

ابن الخياط

٤٥٠ - ٥١٧

حياته

أبو عبد الله أحمد بن محمد بن علي بن يحيى بن صدقة التغلبي ، المعروف بابن الخياط ، الشاعر الدمشقي الكاتب . يتصل نسبه بتغلب وهي قبيلة من العرب العدنانية .

ولد ابن الخياط بدمشق سنة خمسين وأربعمائة ، كما ذكر ذلك هو نفسه ، وكان أبوه خياطاً فاشتهر بالنسبة إليه ، وكان له أخ اسمه يحيى سيأتي ذكره .

وكانت دار ابن الخياط في درب القصاصين المعروف اليوم بحي الخضرية داخل باب الجابية ، وكان عند داره مسجد معلق وقناة ، ولم تكن داره بعيدة عن دار الأمير أبي الفتيان ابن حيوس شاعر الشام في ذلك الزمان .

نشأ ابن الخياط في جوار ابن حيوس ، ورأى الدنيا مقبلة عليه ، وهو يتقلب في أعطاف النعيم ، فود الفتى الناشئ لو يكون مثله ، وأنس في نفسه ميلاً للشعر ، ونفوراً من صنعة أبيه الخياط ، فأخذ يؤدب نفسه بحفظ أشعار المتقدمين وأخبارهم .

وكانت أحوال دمشق في حداثة ابن الخياط مضطربة غير مستقرة ، وأهل دمشق أحزاب يثورون بالولادة والقواد وينتقمون عليهم كرهاً لحكم الدولة الفاطمية .

وتأججت الفتنة سنة ٤٦٠ وعمر ابن الخياط وقتئذ عشر سنوات ،
فثار أهل دمشق بأمير الجيوش بدر الجمالي الأرمني والي الشام ، واضطروه
إلى الخروج من قصر الإمارة وأحرقوا القصر ونقضوا بقاياها^١ ، وكان ذلك
ليذناً بزوال حكم الفاطميين عن الشام .

واشتد الخلاف بين الجنود وبين أهل دمشق ، وطرحت النار في جانب
منها فاحترقت ، واتصلت منه بجامع بني أمية من غربيه فاحترق في شعبان
سنة ٤٦١ ولم يبق منه إلا حيطانه الأربعة^٢ ، ونهبت دور أهل البلد وأموالهم ،
فاشتد الأمر وعظم الخطب :

وفي سنة ٤٦٣ فتح أتز بن أوق الخوارزمي من أمراء السلطان ملكشاه
السلجوقي القدس ، وقصد دمشق فحاصرها وتابع النهب لأعمالها حتى خربها
وقطع الميرة عنها ، فضاقت الناس وصبروا ولم يمكنوه من ملك البلد . وبقي
يحاصرها من حين إلى آخر حتى دخلها في ذي القعدة سنة ٤٦٨ ، فأنزل
جنده في دور الدمشقيين ، واعتقل من وجوههم جماعة وشمسهم بمرج
راهط حتى افتدوا نفوسهم بمال أدوه له ، ورحل جماعة منهم عن البلد
إلى طرابلس^٣ .

وفي سنة ٤٦٩ لم يبق من أهل دمشق عشر العشر من الجوع والفاقة ،
بل لم يبق من أهلها سوى ثلاثة آلاف إنسان بعد خمسمائة ألف أفناهم الفقر
والغلاء والجلاء ؛ وكان بها مائتان وأربعون خبازاً فصار بها خبازان ، والأسواق
خالية ، والدار التي كانت تساوي ثلاثة آلاف دينار يُنادى عليها بعشرة

١ ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٩٣ كما أورده المؤلف رحمه الله .

٢ ذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي ص ٩٦ كما أورده المؤلف رحمه الله .

٣ تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٢ ص ٣٣١ كما أورده المؤلف رحمه الله .

دنانير فلا يشتريها أحد ، والدكان الذي كان يساوي ألف دينار ما يشتري
بدينار ، وأكلت الكلاب والسنانير والغيران ^١ .

في هذه الفترة العصبية ، ما بين سنة ٤٦٣ وسنة ٤٦٩ ، ترك ابن الخياط
دمشق ، وهو في عنفوان الصبا ، لم يشتهر بالشعر ، فقصده حماة واتصل
هناك بأمير اسمه أبو الفوارس محمد بن مانك ، وكتب له وخدمه مدة ،
فعرف بابن الخياط الكاتب ، ثم اشتهر بالشعر . وفي ديوانه قصيدة يمدح
بها هذا الأمير أولها :

سقوه كأسَ فرقتهم دهاقا وأسكره الوداعُ فما أفاقا

وقد كان هاجر من دمشق إلى حلب أبو الفتيان ابن حيوس جاره القديم
سنة ٤٦٤ ، وأحسن وفادته بنو مرداس أمراء حلب وأغدقوا عليه عطاياهم ،
فبدا لابن الخياط أن يزوره في حلب ، ولما اجتمع به وعرض عليه شعره
قال : قد نعاني هذا الشاب إلى نفسي ، فقلنا نشأ ذو صنعة ومهر فيها إلا
كان دليلاً على موت الشيخ من أبناء جنسه ^٢ .

وقال ابن الخياط : دخلت في الصبا على الأمير ابن حيوس بحلب وهو
مُسِينٌ فأنشدته :

لم يبق عندي ما يُباع بدرهمٍ وكفأك مني منظرٌ عن مخبر
إلا صباية ماء وجه صننتها عن أن تباع وأين أين المشتري

فقال له ابن حيوس : لو قلت : « وأنت نعم المشتري » لكان أحسن ،

١ خطط الشام ج ١ ص ٢٦٥ كما أورده المؤلف رحمه الله .

٢ وفيات الأعيان لابن خلكان ج ١ ص ٥٦ كما أورده المؤلف رحمه الله .

ثم قال : كرمتَ عندي ونعيتَ إليَّ نفسي ، فإن الشام لا يخلو من شاعر مجيد ، فأنت وارثي ، فاقصد بني عمّار بطرابلس فإنهم يحبون هذا الفن ، ثم وصله بشياب ودنانير .

وقبل أن يذهب إلى طرابلس مدح الأمير وثّاب بن محمود بن نصر بقصيدة أنشده إياها بحماة سنة ٤٧٤ ، أولها :

عتادكَ أن تشنَّ بها مُغاراً فقدُها شُزْباً قُبباً تبارى

ومدح بعد ذلك بشيزر الأمير سديد الملك أبا الحسن علي بن مقلد بن نصر بن منقذ صاحب شيزر سنة ٤٧٦ بقصيدة أولها :

يقيني^١ يقيني^٢ حادثاتِ النوائبِ وحزمي^٣ حزمي^٤ في ظهور النجائب

وتصح عزيمته على العمل بوصية شيخه ابن حيوس ، فيترك الكتابة عند محمد بن مانك في حماة ، ويقصد بني عمار بطرابلس في حدود سنة ٤٧٦ وهو ابن ست وعشرين سنة . وصحت نبوءة ابن حيوس ، فقد توفي بعد سنة من اجتماعه بابن الخياط في حلب ، وأصبح ابن الخياط بعد ذلك على حداثة سنه شاعر الشام ، وظل كذلك إلى آخر حياته .

دخل ابن الخياط طرابلس ، وكان صاحبها يومئذ القاضي جلال الملك أبا الحسن علي بن محمد بن عمار ، وبنو عمّار من خير الحكام ، ولهم أرباب بيض على العلم والأدب .

١ يقيني : إيماني .

٢ يقيني : فعل وقى يقي .

٣ حزمي : إرادتي .

٤ حزمي : أخذني بالشدّة ، وفعل الحزم .

فاتصل بجلال الملك ومدحه ولم يتوسل إليه إلا بما عرف به من العطف
على الشعر والشعراء ، وإلى ذلك يشير بقوله من أبيات مدحه بها :

آيت لا أبغي نذاك بشافعٍ ما لي إليك وسيلةٌ إلا كما

وذكر رحلته إليه في قصيدة مدحه بها فقال :

وخرقٍ كأنَّ اليمَّ موجُ سَرايهِ ترامتُ بنا أجوازه وخروقُها
كأنا على سُنْفَنِ من العيسِ فوقهُ مجاذيفُها أيدي المطيِّ وسوقُها
نُرَجِّي الحيا من راحة ابنِ محمدٍ وأيُّ سماءٍ لا تُشام بروقُها

ومدح أخاه فخر الملك بعدة قصائد هي من أحسن شعره ، منها قصيدة
فريدة ، هي في رأينا أحسن شعره ، سلمت جميع أبياتها وشرفت ألفاظها
ومعانيها أولها :

أعطى الشباب من الآراب ما طلبا وراح يخال في ثوبي هوىً وصبا
كما مدح غيرهما من آل عمار ومن رجال دولتهم وأسبابهم .

دخل ابن الخياط طرابلس وهو شاب لا يعتمد إلا على كفاءته في الشعر
وطبعه الفياض ، وما حفظه من شعر المتقدمين ، إذ إن بضاعته في الآداب
العربية من نحو وصرف ومعان وبيان وبديع وعروض بضاعة مزجاة ؛ وكان
في طرابلس شيخ أندلسي اسمه أحمد بن محمد الطليطلي له حلقة عامرة بالطلبة ،
يلقي عليهم فيها دروساً في العربية والأدب ، فجعل ابن الخياط يغشى هذه
الحلقة ، ولزم شيخها وأفاد من الأدب وفنونه . ولم يقتصر على حضور هذه
الحلقة ، بل جعل يختلف أيضاً إلى دار العلم التي أنشأها بنو عمّار في طرابلس

١ الحيا : النيث .

وجهزوها بأنواع الكتب ، ويعتبر نفسه من تلامذتها .

وصحب في طرابلس جماعة من الوجوه والرؤساء والأدباء فضلاً عن أمرائها بني عمّار ، وكان في أوقات فراغه يجلس في دكان بسوق من أسواق طرابلس مع بعض أصحابه من الأدباء ، وقد يخرج معهم إلى البساتين والأماكن النزهة ، يروحون عن أنفسهم ويتطرحون الشعر والأدب .

قال ابن عساكر : « حدث السابق وهو أبو اليمن محمد بن الخضر المعري قال : اجتمعت بأبي عبد الله بن الخياط بطرابلس ، وكنت أنا وهو نجلس في دكان إنسان عطار نصراني يعرف بأبي الفضل ، ذكي محب للأدب ، فخرجنا يوماً إلى ظاهر البلد فاخترنا موضعاً جلسنا فيه على غدير هناك ، فقال أبو عبد الله للسابق : أعملُ في هذا المعنى أبياتاً عاجلاً ؟ فقال : نعم ؛ فعمل ابن الخياط بديهاً :

أوَ ما ترى قلقَ الغدير كأنما يبدو لعينك منه حَسْبِي مناطق^١
مُتَرَقِّقٌ لِعِبِّ الشَّعاعِ بمائه فارتجَّ يخفقُ مثلَ قابِ العاشق
فإذا نظرتَ إليه راعك لمعه^٢ وعللتَ^٢ طرفك من سرابِ صادق

ولم يفتح الله على السابق ببیت ولا بلفظة ، فقال العطار : قد عملت بيتاً واحداً وهو :

قد كنتُ أملُ أن أجيء مُصَلِّياً حتى رأيتك سابقاً للسابقِ

فاستحسننا ما أتى به وجعلناه من مآثور الأخبار . وكان السابق لا يحفظ

١ المناطق : ما ينتطق به وهو شد الوسط بالنطاق .

٢ علّ : شرب شرباً ثانية أو شرب بعد الشرب تبعاً .

من شعره بيتاً واحداً وأبو عبد الله ابن الخياط بخلافه يحفظ شعره منذ عمله إلى أن مات .

والمدة التي عاشها ابن الخياط في طرابلس تقدر بعشر سنوات من سنة ٤٧٦ إلى سنة ٤٨٦ تزيد أو تنقص قليلاً ، نجا فيها من الفقر ، ولكنه لم يبلغ ما تصبو إليه نفسه من الثراء ، على أن ما حاز من مال وعقار هناك لم يسلم من محن الدهر ، فقد احترقت داره في طرابلس وأتت النار عليها وعلى ما فيها من أثاث ومتاع ، وقد قال في ذلك قطعة منها قوله :

قد نحت عظمي خطوباً لم تزل تاكلُ الأحرار أكلاً ممعنا
وأنتني بعدّها نساولةً أنزلتُ في ساحتيّ المحننا

وفي هذه المدة وفد من طرابلس على منير الدولة والي صور سنة ٤٨٤ ومدحه بقصيدة أنشده إياها بصور أولها :

إذا عزّ نفسي عن هواك قصورها فمثل النوى يقضي عليّ يسيرها

وعاد إلى طرابلس ولم يمكث بها طويلاً وتركها وعاد إلى دمشق في حدود سنة ٤٨٦ ، ولسانه رطب بالثناء على بني عمار ، فقد كتب من دمشق بعد خروجه من طرابلس قصيدة إلى جلال الملك أولها :

لئن عداني زمانٌ عن لقائِكُمُ لما عدانيّ عن تذكّار ما سلّفا

ولما عاد ابن الخياط إلى دمشق كان ملكها يومئذ تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان السلجوقي ، وكان وزيره هبة الله بن بديع الأصفهاني فصحبه وكان أثيراً عنده ، قال ابن القيسراني : وقع هبة الله بن بديع أبو النجم لابن الخياط بألف دينار وهو آخر شاعر في زماننا وقع له بألف دينار .

وسافر معه سنة ٤٨٧ إلى الريّ وأنشده هناك قصيدة مدحه بها وأولها :
أيا بينُ ما سُلطتَ إلا على ظلمي ويا حبُّ ما أبقيت مني سوى الوهم
ويقول وهو بالري مخاطباً هبة الله ، من أبيات :

وما كان لي لولاك بالريّ منزلٌ^١ وإن شعفت^١ غيري وتيمّ حبّها
ولم تطب له الإقامة فيها ، فتركها بعد أن هجا مستوفي أعمالها واسمه
فخراور بأبيات تطرّف فيها باستعمال كلمة فارسية ، وأول الأبيات :
قولا (لفخراور) قولَ امرىء في عرضه عاثَ وفي الريش راثُ

وذهب من الريّ إلى خراسان ، وفيها يقول متشوقاً إلى دمشق وغوطيتها :
ألا ليت شعري هل أبيتنّ ليلةً^٢ يروّحي^٢ بالغوطتين نسيمُ

ولم تطل مدة إقامته في بلاد العجم ، بل عاد إلى دمشق سنة ٤٨٧ واتصل
فيها بالأمير حسان بن مسمار بن سنان أمير الكلبيين ومدحه بقصيدتين : مطلع
الأولى :

هي الديارُ فعُجّ في رسمها العاري إن كان يُغنّيك تعريج^٣ إلى دار
ومطلع الثانية :

متى أنا طاعن^٤ قلبَ الفجاجِ ورامي الخرقِ بالقُلُصِ النواجي
كما اتصل في السنة نفسها بعرض الدولة أبق أحد مقدمي أمراء دمشق
ومدحه بالقصيدة المشهورة التي أولها :

١ شعف : غشى الحب قلبه .

٢ روّح : أنمش .

خذا من صبا نجد أماناً لقلبه . فقد كاد رباها يطير بلبه .

وصحب غضب الدولة وخص به ، ومدحه بعدة قصائد ، ونادمه على الشراب في مجالس اللهو والأنس والطرب ، وكان يرتجل الشعر في وصف تلك المجالس وما يجري فيها من اللهو .

وطالت صحبته لغضب الدولة حتى فرق بينهما الدهر بوفاة غضب الدولة سنة ٥٠٢ فرثاه بقصيدة ليست من جيد الشعر ، أولها :

أبعدك أتقي نوب الزمانِ أبعادك أرتجي درك الأمانِ

وبعد وفاة غضب الدولة اتصل بتاج الملوك أبي سعيد بوري بن طعتكين صاحب دمشق ، وكان حينئذ ولياً لعهد أبيه ، وصحبه كما صحب غضب الدولة ومدحه وكان يحضر مجالس لهوه وشرابه ويصفها .

وصحب أيضاً الرئيس أبا الذواد المقرج بن الحسن الصوفي رئيس دمشق ، والوزير طاهر بن سعد المزدقاني ، وأبا اليمن سعيد بن علي التنوخي المعري متولي الشرطة بدمشق ، وأبا يعلى حمزة بن أسد المعروف بابن القلانسي رئيس دمشق وصاحب التاريخ المعروف بذيل تاريخ دمشق ، ومدحهم وأخذ جوائزهم ، كما مدح غيرهم من القواد والوجوه والرؤساء .

وكان له عدد من الأولاد لا نعرف أسماءهم ، ولكن ورد في شعره ما يدل على ذلك ، فقد كتب إلى ابن الصوفي رئيس دمشق قصيدة ذكر فيها أنه ازداد عدد أولاده بمولود جديد قال :

غير أني أدعو نذاك إلى يو م به زاد في عبديك عبد
ولعمري ما كان يخرج نجل عن قبيل أبوه فيهم يعد
ولأنت الأولى بعبديك مني كل مولى بعبده مستبد

ومرض قبل وفاته مدة ، وكتب في مرضه سنة ٥١٧ إلى رئيس ابن
القلانسي قصيدة هي آخر ما ورد في الديوان من شعره أولها :
عسى باخلٌ بقاءٍ يجسودُ عسى ما مضى من تدانٍ يعود
يقول فيها :

مرضت فهل من شفاء يُصَابُ وهيهاتَ والداءُ طرفٌ وجيدٌ
وبا حبذا مرضي لو يكونُ مُمْرِضِيَّ اليومَ فيمن يعود

وتوفي بدمشق في الحادي عشر من شهر رمضان سنة ٥١٧ سبع عشرة
وخمسمائة ولم تعين المقبرة التي دفن فيها ولعلها مقبرة الباب الصغير لقربها
من داره .

ولم يشتهر أحد من أولاده بعده ولا من أولادهم ؛ ولكن ذرية أخيه
يحيى اشتهر منها جماعة بالعلم والأدب والوجاهة ، عرفوا ببناء سني الدولة ،
ويظهر أن يحيى هذا هاجر مع أخيه الشاعر إلى طرابلس وتديرتها ، وولد
له بها ابنه الحسن الملقب بسني الدولة أبي الكتائب ، ورجع سني الدولة إلى
دمشق « وتولى كتابة الإنشاء لصاحب دمشق قبل نور الدين الشهيد المشهور »^١ .
وعرف أولاده ببني سني الدولة ، وتولى منهم غير واحد القضاء في دمشق ،
منهم القاضي شمس الدين وابنه القاضي صدر الدين وابنه القاضي نجم الدين ،
كان كل منهم قاضي القضاة في دمشق .

١ المنهل الصافي لابن تغري بردي (مخطوط) كما ذكره المؤلف الحليل رحمه الله .

علمه وأدبه

نشأ ابن الخياط بدار صانع فقير ، بحي من أحياء دمشق الجنوبية ، في فترة من الزمن شديدة الاضطراب في كل ناحية من نواحي الحياة ، لا يكاد الإنسان ينال فيها قوت يومه إلا بالجد والكد ، فلم يتيسر للشاعر الفتى أن يتلقى العلم والأدب عن المشايخ كما ينبغي ، بل كان يحفظ ما يطلع عليه ويختاره من الشعر الذي يعجبه وينسج على منواله ؛ وكانت دار ابن حيوس شاعر الشام وقتئذ غير بعيدة عن داره ، وهو أمير موسر ، فودَّ ابن الخياط لو يكون مثله ، وبقي معجباً به طول حياته .

ولكن ابن حيوس هاجر من دمشق في أوائل سنة ٤٦٤ قبل أن يتمكن ابن الخياط من الأخذ عنه ، وما يذكر في كتب التراجم من أن ابن حيوس شيخ ابن الخياط يقصد به اجتماعهما في حاب كما سيأتي .

وتزداد الحال سوءاً في دمشق ، فيضطر ابن الخياط إلى الخروج منها وهو ابن عشرين سنة ، تنقص أو تزيد قليلاً ، ولم يحفظ من شعره شيء قبل خروجه من دمشق إلى حماة حيث عمل كاتباً للأمير أبي الفوارس محمد ابن مانك ، وكان لم يشتهر بعد بالشعر فعرف بابن الخياط الكاتب :

وزار حلب غير مرة واجتمع هناك بابن حيوس ؛ قال ابن خلكان :
« لما اجتمع ابن الخياط بأبي الفتيان ابن حيوس الشاعر المشهور ، بحلب وعرض عليه شعره قال : قد نعاني هذا الشاب إلى نفسي ، فقلما نشأ ذو صناعة ومهر فيها إلا كان دليلاً على موت الشيخ من أبناء جنسه » :

وتبدأ أخبار ثقافته وأخذه عن غيره من هذا التاريخ أي بعد بلوغه العشرين من عمره ، أما قبل ذلك فقد كان يأخذ نفسه بحفظ الشعر وأخبار الأدباء . قال الذهبي في سير أعلام النبلاء^١ : اجتمع ابن الخياط بحلب بالأمير أبي الفتيان ابن حيوس ، وروى عنه وعن السابق محمد بن الخضر بن أبي مهزول المعري ، وحسان بن الحباب وأبي نصر بن الحيسي وعبد الله بن أحمد ابن الدويذة . وروى عنه أحمد بن محمد الطليطلي ومحمد بن نصر القيسراني وتخرج به .

وفي آخر مرة اجتمع بابن حيوس فوصله بثياب ودنانير ، ونصح له أن يقصد بني عمار بطرابلس ففعل .

قال الذهبي في سير أعلام النبلاء : « قال أبو عبد الله أحمد الطليطلي : كان ابن الخياط أول ما دخل طرابلس وهو شاب ، يغشائي في حلقتي وينشدني ما أستكره له فأتهمه ، لأنني كنت إذا سألته عن شيء من الأدب لا يقوم به ؛ فوبخته يوماً على قطعة عملها ، وقلت أنت لا تقوم بنحو ولا لغة ، فمن أين لك هذا الشعر ؟ فقام إلى زاوية ففكر ثم قال اسمع :

وفاضلٍ قال إذْ أنشدتهُ نُخبياً من بعض شعري وشعري كلّه نُخبٌ
لا شيءَ عندك مما يستعينُ به من شأنه معجزات النظم والخُطَب
فلا عروضٌ ولا نحوٌ ولا لغةٌ قُل لي فمن أين هذا الفضلُ والأدب
فقلت قول امرئٍ صححتُ قريحتهُ إنَّ القريحةَ علم ليس يُكتسب
ذوتي عروضي ولفظي جُلُّهُ لُغني والنحوُ طبعي فهل يعتاقني سببُ

فقلت : حسبك الله ، والله لا استعظمت لك بعدها عظيماً . ولزمني بعد ذلك فأفاد من الأدب ما استقل به « ؟ حتى ان الطليطلي نفسه روى عنه .

١ المجلد ١٢ ورقة ١١٠ (مخطوط) كما ورد في حاشية المؤلف رحمه الله .

ولم يقتصر على حضور هذه الحلقة بل جعل يختلف أيضاً إلى دار العلم التي أنشأها بنو عمار في طرابلس وجهازها بأنواع الكتب ، ويعتبر نفسه من تلامذتها ويطلب بما يوزع عليهم من جراية وهبات . وأخذت تزداد ثقافته الأدبية مع الزمن ، وساعده على ذلك سرعة حفظه وقوة ذاكرته .

قال ابن عساكر : « كان ابن الخياط يحفظ أشعار المتقدمين وأخبارهم ، جالسته مرة عند جدي القاضي أبي الفضل وتفاوضنا في معان كثيرة وأجازني بجميع ما قاله من النظم والنثر سنة سبع وخمسمائة »^١ .

وصحبه في دمشق محمد بن نصر القيسراني الشاعر المشهور وكان فتي ناشئاً ، ولازمه وقرأ عليه الأدب وتخرج به . وهو الذي جمع ديوانه ورتبه ؛ واختار أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي مجلدة لطيفة من شعره وسمعها منه . وكان لابن الخياط نثر واشتهر بـ (الكاتب) قبل أن يشتهر بـ (الشاعر) ، وأجاز ابن عساكر برواية نظمه ونثره ، وكان يفخر بنثره كما كان يفخر بشعره ، على قلة شعره في الفخر ، وإلى ذلك يشير بقوله :

مما تنخَّلَهُ وَحَصَلَ مَاهِرٌ فَصَلَ الْبَرِيَّةَ نَائِرًا وَمُقَرَّرًا

ولكن لم يصل إلينا شيء من ذلك النثر .

على أن أثر الثقافة ضئيل في شعره ، فقد كان يعتمد على طبعه وذوقه أكثر مما يعتمد على ثقافته الأدبية التي اتسعت مع الزمن ، والناظر في شعره يجده يأخذ بالرخص ويستعمل الضرورات وبعضها أشبه بالخطأ واللحن ، ويصوغ ألفاظاً ويشتهقها على سبيل القياس ولو لم تسمع ، وسنبسط ذلك عند الكلام على لغته .

١ تهذيب تاريخ ابن عساكر ج ٢ ص ٦٧ عن حاشية المؤلف رحمه الله .

صفته وأخلاقه

لم يعن أحد ممن ترجم لابن الخياط بوصف هيئته ، ولولا جملة واحدة نقلها الذهبي في سير أعلام النبلاء عن العماد الكاتب لما علمنا شيئاً عنها قال : « . . . ومن كان ينظر إلى ابن الخياط يعتقدُه جمالاً أو حملاً لبزته وشكله وعرضه » ؛ فقد كان إذن ضخماً عريضاً خشن الهندام والهيئة واللبسة ، يلبس الغليظ الجافي من الكساء ؛ وعرفنا من شعره أشكالا من الثياب التي كان يلبسها ، فقد كتب إلى أحد أصحابه يفتضيه فوطة يلبسها مع ثوب كان وصله به قوله من أبيات :

قد وصل الثوبُ ولا عُدْر لي أن ألبسَ الثوبَ بلا فوطه°
« والفوطة واحدة الفوط وهي ثياب تجلب من السند غلاظ قصار مخططة
تتخذ مآزر يشترها الجمالون والأعراب والخدم فيأتزون بها » :
وكان يلبس على هذه الفوطة ثوباً ، وفوقه جبة من صوف أو خز إن
تيسر ، قال :

أسوم الجسبَ فلا خزها أطيعُ ابتياعاً ولا صوفها
وكيف السبيلُ إلى جُبَّةٍ لمن ليس يملك تصحيفها
وغني عن البيان أنه كان يرسل لحيته ، ويعتمُّ بعمامة يكوِّرها على رأسه .
ولا بدَّ من أن يكون استعاض عن تقشفه وخشونته بقسط من التنوق
بعد أن ارتاش وحسنت حاله ، وصحب الأمراء والوزراء والقواد والرؤساء
ونادمهم .

ويظهر أنه كان قوياً جلدأً على السفر ومشاقه وركوب الخيل والجمال ،
فقد وصف أسفاره وما كانت تعانیه فيها الخيل والإبل . ولقد سافر في شبابه
من دمشق إلى حماة وحلب وطرابلس وصور ، وعاد كهلاً إلى دمشق .
وفي ديوانه أبيات غير قليلة في وصف أسفاره .

وكان على ما يظهر ، مع سرعة خاطره ، وبداهته وارتجاله ، حلو
الحديث حسن المحاضرة ، فاصطفاه عليه القوم في طرابلس وفي دمشق ،
فضحبههم وحضر مجالسهم الخاصة ونادهمهم على الشراب .

وكان يميل إلى مخالطة الناس وملابستهم ، والترويح عن النفس والتفرج
بالجلوس في الأسواق في أوقات فراغه عند بعض أصحابه ومع بعض أصحابه
من الأدباء ، وقد يذهبون معاً إلى بعض الأماكن النزهة والبساتين ، فقد
ذكر عنه أنه كان يجلس في طرابلس في دكان عطار أديب ، وكان يجلس
في دمشق بدكان الحسن بن روبييل^١ الأبتار الشاعر في سوق الأبارين^٢ ،
يتناشدان الأشعار وكان يلعب بالنرد ، ووصفه الصلاح الصفدي بالذكاء .

وكان لما قاساه في حدائته من الفقر والحرمان والغربة ، كثير الشكوى
من الزمان وأهله . وظل هذا ديدنه حتى بعد أن حسنت حاله ، قال من قصيدة
وقد بلغ الأربعين يشكو المحارفة في العيش :

وقد وسمتني الأربعونَ بمرّها وحالتُ بشيبي للشبيبة حالُ
فليتَ الذي أرجو من العمر بعدها يطيب به عيشٌ وينعمُ بال

١ خريدة القصر ٢٦٢/١ ومرآة الزمان ص ١٠٠ ، نقلاً عن حاشية المؤلف .

٢ سوق الأبارين بباب الفرج قرب الجامع المعلق ، نقلاً عن حاشية المؤلف .

يقول أناسٌ "كيف يعجزك الغنى ومثلكَ يكفيه الفعّالَ مقال
وما عندهم" أنّ السؤالَ مدلّةٌ ونقصٌ وما قدّرُ الحياةِ سؤال
ويظهر أنه كان لبين الجانبِ دمثُ الأخلاقِ يألف ويؤلف ، يدل على
ذلك خلو شعره من الفخر والهجاء إلاّ قليلاً جداً من الأبيات في هذين المعنيين .
وفي قوله يعاتب صديقاً له من أبيات :

وما هي إلاّ حرمةٌ لو رعيتها رعيت فتى عن شكرها لا يُقصرُ
كربماً متى عاطيته كأسَ عِشرةٍ تعلّمتَ من أخلاقه كيف يشكّر

ما يدل على ذلك .

ويقول ابن فضل العمري في مسالك الأبصار : « كان ابن الخياط في
وقته ممن له القدر العلي ، والصدر الرحيب لفضله الجلي ، وهو دمشقي
الدار ، شقي الحظ باللثام لا بغلبة الأقدار ، هُجّي بما نبّه على جلالته ، ونوّه
بقدر أصالته ، وشبّه على حسوده فأكد له المدح بما يشبه الذم ، وأراد به
النقص في حقه وأراد الله خلافه فتم ، وتخيّل في إخفاء مسكه المتضوع وريحه
قد نم » ؛ فلم يأبه لمن هجاه من هؤلاء الحساد ومَرَّ بلغوهم مرّ الكرام ،
ولم يجب أحداً منهم لأنه غير طعّان ولا لعّان .

شعره

ابن الخياط شاعر مطبوع فصيح ، جزل الألفاظ من غير إغراب ، واضح المعاني ، في شعره حلاوة وطلاوة ، وأثر الطبع فيه أظهر من جميع العناصر التي يتكون منها الشعر .

وله بضع قصائد بلغ بها الذروة صحة معان وحسن أداء ، وفي بعضها من الجزالة والقوة ما يحاكي شعر الصدر الأول من المخضرمين والإسلاميين ، وذلك لصحة طبعه وسلامة ذوقه وكثرة حفظه من شعر المتقدمين .

وهو على قوة طبعه لا يستوي جميع شعره ، بل ربما تفاوت ولكن من غير إفراط في التفاوت ، فقد يعلو حتى يبلغ الذروة ، وينحط عن تلك المكانة ، ولكن قلما يسف .

وسيله في النظم سبيل المطوعين ، يعتمد على طبعه وسليقته ، ولو خالف القواعد والرسوم ، ولذلك يكثر في شعره الزحاف الذي يلفى في الشعر القديم قبل أن يحرر الخليل بن أحمد قواعد العروض ، ولعله هو والبحثري من أكثر الشعراء زحافاً ، من ذلك قوله :

أمرٌ بالروض فيه منكمُ شَبَهٌ فأغتدي بارئاً وأنفي دَنِفاً

وقوله :

وما مَنَّ رَمَى من غيرِ عمدٍ فأقصدتُ نوافذُهُ كمن تعمد أن يرمي

وقوله :

يقولون تـربٌ للغمام وإنـسما رجاءُ الغمام أن يُعدَّ كـتـربـهـ

وقوله :

كفى مـينٌ شـجـايَ عبـرة بعد زفرة ولـبُّ مـطار أمٍ سقام مـهـيـجٌ

وقوله :

من كان يفخر أنـه من أسرة كـرمت ويضرب في الكرام مـعـرقا

وقوله :

فأنت الحقيق بالعلاء وبالثنا إذا الحقُّ يوماً أوجبته الحقائقُ

وتجوزة في اللغة في طائفة من شعره جريء وغير قليل ؛ وسنسط الكلام عليه في فصل خاص يلي هذا الفصل .

وسعة روايته للشعر القديم جعلت في نفسه ملكة على حسن البيان وإشراق الديباجة ، وقوة على محاكاة الفحول من الشعراء والطبع على غرارهم في أصالة الأسلوب وشدة الأسر في طائفة صالحة من شعره .

لا نعلم متى بدأ يقول الشعر ، ولا بدءاً من أن يكون قاله في سن مبكرة لأنه شاعر بالفطرة ، ولكن ليس في الديوان إلا ما قاله بعد أن بلغ العشرين من عمره واجتازها قليلاً .

وشعره في شبابه من أحسن شعره وهو قليل الصنعة لولا قصيدة واحدة من أول ما قاله من الشعر أولها :

سـقـوهُ كـأسَ فـرقتهم دهاقا وأسكره الوداعُ فمسا أفاقا

فمنها قسط من الصنعة بخلاف سائر شعره ، ثم أقلع عن هذه الطريقة
وسلك طريقة الطبع ، على أن هذه القصيدة لم تدون إلا في نسخة من ثماني
نسخ مخطوطة من ديوانه رجعنا إليها ، ولم يروها عنه تلميذه القيسراني الذي
جمع ديوانه .

وفي بعض قصائده أثر من استعارات أبي تمام الطائي وتشبيهاته وكنائياته .
من ذلك قوله :

وكيف ترى مياه الفضل إلا وقد رُشفتُ بأفواه العقول
وقوله :

هربتُ من ارتياحك حين أنحى على حمدي بعضب ندى صقيل
ولما عُدتُ بالعلياء قالتُ لعلك صاحب الشكر القليل

فأفواه العقول والشكر القليل وبعضب الندى أشبه بمعاني أبي تمام .
وقلما يسلك طريقة أبي تمام في الصنعة اللفظية ، من ذلك قوله :

فإلى ارتياحك ينتمي صوبُ الحيا وعلى اقتراحك ينتهي صرف القضا
فقابل إلى بعلى ، وارتياحك باقتراحك ، وينتمي بينتهي ، وصوب
بصرف . ولكن مثل ذلك في شعره نادر .

وفي بعضها نفحة من نفحات البحري منها قوله :

وليس يبين الدهر إخلاصُ باطن إذا أنت لم تُدلل عليه بظاهر
وهو ينظر إلى قول البحري :

ولن تستبين الدهرَ موضعَ نعمةٍ إذا أنت لم تدلل عليها بحاسدٍ^١

وفي بعضها عبقة من نفس أبي الطيب المتنبي ، مثال ذلك قوله :

إذا ما النارُ كان لها اضطرَامٌ^٢ فما الداعي إلى قدح الزنادِ
رجوتُ فما تجاوزه رجائي وكان الماءُ غايةَ كلِّ صادِ
إذا ما رُوِّضتْ أرضي وساحتُ فما معنى انتجاعِي وارتيادي

وقوله :

إذا عاينتَ من عود دُخاناً فأوشكُ أن تُعاینَ منه ناراً

وقد يكون هذا التشابه صدر عفواً عن غير قصد ، أو يكون من باب
توارد الخواطر أو تقارب السبل ؛ أما الشاعر الذي قصد ابن الخياط أن يسلك
طريقته فهو جاره وشيخه ابن حيوس ، للذي رآه من علو منزلته وإقبال
الدنيا عليه حتى جعله مضرب المثل في الشاعرية ، قال يصف إحدى قصائده :

يضيق الأعصريُّ بها ذراعاً ويبعدُرُ عجزَه عنها الخفاجي

والأعصري هو ابن حيوس ، أما الخفاجي فهو عبد الله بن سنان الخفاجي ،
وأرجو أن لا تكون القافية هي التي جرته .

وكان ابن الخياط يطبع على غرار ابن حيوس ويقتفي أثره في عدة أمور ،
منها : أن له عدة مدائح لم يستهلها بالنسيب ، وهذه طريقة ابن حيوس ،
ومنها قلة الغزل في شعره وخلو ديوانه من الفخر والهجاء إلا قليلاً ، آخذاً
بطريقة ابن حيوس ، ومنها استعمال ألفاظ أكثر ابن حيوس من استعمالها

١ ديوان البحّري ص ٥٤ ، عن حاشية المؤلف .

على وجه خاص ، مثل ظافَرَ بمعنى ظاهر أو أَيْدٍ ، وإضافة كلمة أم إلى
المعنى الذي يريده تأكيداً له ، قال ابن الخياط :

وعيشٌ يرفُّ عليه النعيمُ وجِدُّ تظافَرُ فيه السعودُ

وقال :

فَتِي ظافَرْتُ هَمَاتُهُ عَزَمَاتِهِ كَمَا ظافَرْتُ سُمَرَ الصَّعَادِ نِصَالُ

وقال :

لَقَدْ طَرَّقَتْ بِكَ أُمُّ الْعَلَاءِ بِيَوْمٍ لَهُ كُلُّ يَوْمٍ حَسُودُ

وقال :

فَإِنْ أَنَا لَمْ أَطْلُقْ لِسَانِي بِحَمْدِهَا فَأُمُّ الْعَلِيِّ وَالْمَجْدِ مَنِي طَالِقُ

وقال :

فَتِي لَمْ تَزَلِ عَاقِرًا فِي ذَرَا هُ أُمُّ الْخَوَادِثِ وَهِيَ الْوَلُودُ

وقد يجمع الأم فيقول :

بَصُرْتُ بِأُمَمَاتِ الْحَيَا فُظُنْتُهَا أَنَامَلَهُ إِنَّ السَّحَابَ أَشْبَاهُ

ويقول :

مِنْ مَعَشَرٍ كَانُوا لِأُمَمَاتِ الْعَلِيِّ أَبْدَاءً فَحَوْلًا أَنْجَبْتُ وَبُعُولًا

وتلاعب ابن حيّوس مرة بالحروف فقال : (ديوان ابن حيوس ٢-٥٧٨)

وَتُرْبِيَةِ الْمَرْحُومِ وَالْحَاءُ جِيمٌ لَقَدْ ثَوَى فِي النَّارِ مِنْهُ رَجِيمٌ

فقال ابن الخياط قطعة تلاعب بالحروف في كل بيت من أبياتها أولها :

صيرت بين الصادين يا ابن المُجسَّي بين صفع يوهي ففناك وصرِف

وقريب من ذلك قوله :

وبكتك كلُّ عَرَوْضِيَّةٍ تُرِنُ بها كلُّ ميمٍ ولامٍ

وقوله :

إنَّ خيرَ المعروف ما جاءَ لا سيَّ نُ سؤالٍ فيه ولا واو وَعَدِ

وقوله :

لدى بِرِكةٍ حُرِّكتُ راؤها فليست تقيلُ ولا تنقصُ

وكان ابن حيوس يزعم في مدائحه أنه لا يمدح للعطاء لأنه من ذوي اليسار ، ولكنه ينبغي المجد والعلاء ، فبدأ لابن الخياط على فقره ومرارة شكواه من الحرمان أن يقول في إحدى قصائده :

أُتيتك للعَلْيَا فإن كنت مُنعماً فبالعزّة القعساءِ لا العيشة الرغدِ
إذا نائلٌ لم يحببني الفخرَ نيلُهُ فإنَّ انقطاعَ الرّفدِ فيه من الرّفدِ

ولكنه لم يعد إلى هذا المعنى خشية أن يصدقه الممدوحون .

وليس هنا محل المفاضلة بينه وبين ابن حيوس ، ولكن لا بأس بإيراد ما قاله العماد الكاتب في هذا الشأن : « ابن حيوس أصنع من ابن الخياط ، لكن لشعر ابن الخياط طلاوة ليست له »^١ .

ومن دلائل طبعه كثرة ارتجاله ، ففي الديوان مقدار غير قليل من الشعر الذي كان يقوله بداهةً وارتجالاً في مجالس الطرب ومع أصحابه إجابة

١ سير اعلام النبلاء للذهبي (مخطوط) نقلا عن حاشية الخليل رحمه الله .

عن مقترحهم ، أو غير ذلك من بواعث الشعر ، والشواهد على ذلك كثيرة .
ولئن خصت ألفاظه في أكثر شعره بالجزالة والعدوبة والطلاوة فقد
« كان ولوعاً بتصحيح المعنى »^١ كما يقول ابن فضل الله العمري ، يعرضه
أحسن ما يكون ؛ وأوضح ما يكون ، فقد يتناول المعنى المتداول المعاد الذي
ملكه السمع ، فيعرضه بثوب جديد حتى كأنه مبتكر ترتاح له الأذن ، وتهش
له النفس .

لقد أكثر الشعراء من عهد امرئ القيس من الوقوف في ديار الأحباب
الخالية ورسومها البالية حتى عافت الناس هذا المعنى ، فقال ابن الخياط :
هي الديار فتعج في رسمها العاري إن كان يُغنّيك تعريج على دارٍ
إن يخل طرفك من سُكّانها فيها ما يملأ القلب من شوقٍ وتذكار
وقال :

لقد وجدّت وجدّي الديارُ بأهلها ولولم تجدّ وجدّي لما سَقِمْت سُقْمِي

فكأنه أوّل من قال هذا المعنى بعد أن نفخ فيه روحاً جديدة .

وبينا تسمعه يهدر بمثل هذه الجزالة التي شبهها ابن فضل الله العمري
بصليل السيوف وصرير الأقلام ، إذا به يرق حتى تظنه من الشعراء المعاصرين
إذ يقول مهناً بمولود :

أطلعت بدرأ في سماء ممالكٍ سَهَرِ الجمالُ ونامَ في تلويده

ويقول وقد رماه فتى صبيح بجمرة مازحاً :

١ مسالك الأبصار (مخطوط) نقلا عن حاشية التحليل رحمه الله .

يا مؤذياً بالنارِ جسمَ مُحِبِّهِ نارُ الجوى أحرى بأن تؤذيه
عَدَبُ بها جسدي فذاك مَعَدَّباً واحذرْ على قلبي فإنك فيه

وله قصيدة في الحروب الصليبية قالها في ليلة واحدة ، حين شاع خبر
هجيء الجيوش الصليبية ، وقدمها إلى الأمير غضب الدولة زعيم الجيوش في
دمشق يحضه على الجهاد، ولعلها أول قصيدة قيلت في الحروب الصليبية، أولها:

فدتك الصواهل قُبَيْماً وجُرُداً وشمُّ القبائل شيباً ومُرُداً

وبعض شعره في الوصف يصف وجوهاً من الحياة الاجتماعية في أيامه ،
وحياة القصور ، ومجالس اللهو والتصف والأنس والطرب ، وما يجري
فيها من شراب وغناء ونعيم وترف ، في المقاصير وفي متنزهات دمشق ،
ويصف الأزهار والفواكه والثمار والخضر في الغوطة وقراها .

وله في الرد (طاوله الزهر) قصيدة طريفة فريدة في بابها أولها :

أقول واليومُ بهيمٌ^١ خطبُهُ مُسَوِّدٌ أوضاع الضحى دَغُوشُهَا^٢

والحسن من شعره أكثر من الوسط ، وقد يعلو حتى يبلغ الأوج .
وله قصيدة هي في رأينا أحسن شعره ، ومن مختار الشعر العربي في جميع
عصوره ، سلمت جميع أبياتها ، عذبة الألفاظ ، خلاصة المعاني ، جعل نسيبها
لآراب الشباب ونزغات الصبا ، ونزوات الفتوة ، يصلح ان يكون عنوان
هذا القسم منها (الشباب) أولها :

أعطى الشبابَ من الآراب ما طلبا وراحَ يَخْتالُ في ثوبتي هوى وصبا

١ بهيم : مظلم .

٢ دغوش : ظلام .

وقصيدته الثانية التي سلمت له كل أبياتها مع الجزالة والعدوية أولها :
هي الديار فعُجج في رسمها العاري إن كان يغنيك تعريج على دار
وله قصيدة سما بغزها حتى تغنى الناس به إلى اليوم ، أولها :
خُدا من صبا نجد أماناً لقلبه فقد كاد ربّأها يطير بلسببه
واستقصاء محاسنه يطول ، وليس كل شعره مستويّاً فبعضه أحسن من بعض .
أما منزلته بين شعراء عصره ، فقد اتفق على أنه كان من المحسنين ،
بشهادة معاصريه من طبقة شيوخه ومن دونهم ، فقد شهد له شيخه ابن حيوس
بالإجادة وهو في ريق الشباب وجعله ولي عهده .
وقال ابن عساكر^١ : ابن الخياط ختم به ديوان اشعر بدمشق ، وكان
شاعراً مكثراً مجيداً محسناً .
وقال السلفي : كان ابن الخياط شاعر الشام ، وقد اخترت من شعره
مجلدة لطيفة وسمعتها منه .
وقال أبو الفوارس نجا بن إسماعيل العمري : ابن الخياط في عصره
أشعر الشاميين بلا خلاف .
وقال الذهبي : ابن الخياط شاعر عصره ، من كبار الأدباء ، ونظمه
في الذروة .
وقال ابن خلكان^٢ : كان من الشعراء المجيدين ، وأكثر قصائده غرر .
والذي نراه أنه ومعاصره أبا اسحق إبراهيم الغزي طبقة واحدة ، وكلاهما
محسن ، ولكن الغزي رحل عن الشام ودخل بلاد العجم ، وبقي هناك بقية
حياته ، فأصبح ابن الخياط وحده شاعر الشام .

١ تهذيب تاريخ ابن عساكر ٦٧/٢ عن حاشية المؤلف .

٢ وفيات الأعيان ٥٦/١ عن حاشية المؤلف .

لغته

لغة ابن الخياط في أكثر قصائده جزلة عذبة ذات طلاوة ، لصحة ذوقه ،
وكثرة محفوظه من الشعر المختار ، يجزل حتى كأنه من شعراء الأعراب
إذ يقول :

الطاعن الطعنة الفوهاء جائشةً تردُّ طاعنها عنها بتيَّار
يكاد ينفذ منها حين يُنفذها لولا عُبَابُ دم من فورها جار

ويرق ويعذب دون أن يفارق جزالته فيقول :

خذا من صبا نجد أماناً لقلبيهِ فقد كاد رِيَّاهَا يطير بلسبيهِ

ومثل ذلك غير قليل في شعره . ولكن ليس كل شعره كذلك .

وله ألفاظ أغري باستعمالها تدور على لسانه أكثر من غيرها منها رَوْضٌ .

قال :

أضاعت بك الأوقاتُ والشمسُ لم تنرِ وروَّضتِ الساحاتُ والغيثُ لم يهـمـ

وقال :

إذا ما رَوْضتُ أرضي وساحتُ فما معنى انتجاعِي وارتيادي

وقال :

فلم يأتِ عندي غيرُ ما أنت أهلهُ ولا عجبٌ للغيثُ أن رَوْضَ المحلا

وقال :

يُسْخِجِلْنَ مَا حَاكَ الرَّبِيعُ مُفَوِّفًا وَيَزِدْنَهُ خِجْلًا إِذَا مَسَا رَوْضًا

وقال :

تَرَوْضُ قَبْلَ الرُّوضِ أَخْلَاقُهُ الثَّرَى وَتَبْعُثُ قَبْلَ السُّكْرِ سُكْرًا لِشِرْبِهِ

وقال :

سَقَاكَ وَمَنْ سَقَى قَبْلِي سَحَابًا تَرَوْضُ قَبْلَ مَوْعِهِ السَّحَابَا

وقال :

وَرَوْضُ سَاحَتِيهِ كَأَنَّ وَشِيَاءَ يَحِلُّ بِهَا وَدِيَابِجًا نَشِيرَا

سبق لنا أن قلنا في الفصل الذي عقدناه لعلمه وأدبه إن ثقافة ابن الخياط شخصية ، يعني أنه أخذ نفسه في أول الأمر بحفظ الشعر ، فكانت ثروته الأدبية باشتغاله على نفسه أكثر من اشتغاله على شيوخه ، ولعل ذلك جعله يقدم بجرأة غريبة على أمور منها : إتيان الرخص ، والتساهل في تعدي الحدود اللغوية ، والتجوز في الاشتقاق وصوغ المشتقات ، والتوسع في القياس ، حتى صارت هذه الأمور مذهباً له ، إن صح أن تُدعى مثل هذه المآخذ مذهباً ، وبقي على هذه الطريقة بعد أن أثرى من الأدب وصار من شيوخه .

قال الصلاح الصفدي في الوافي بالوفيات في ترجمة ابن الخياط : « روى ابن القيسراني شعره وبه تخرج ، وكان حافظاً لشعر الأقدمين ذكياً عارفاً باللغة » . ولكنه بعد أن صار عارفاً باللغة وحدودها بقي يتعدها في عدة أمور ، منها قوله : على ما فيه من الحسن والرشاقة :

مَنْ ظَنَّ أَنَّ لَا بَدَّ مِنْهُ فَإِنَّ مِنْهُ أَلْفَ بَدٍّ

(فلا بُدَّ) لا يستعمل إلاّ في النفي كما في تاج العروس وكما ورد في الشطر الأول من هذا البيت .

وقوله :

وهل من ضمّر الجرد المذاكي كمن جعل الطراد لها ضمّارا

يريد بالضمّار : تضمير الخيل ، ولم أجدها بهذا المعنى .

وقوله :

إذا ما الكأسُ لم تلك كأسَ بينِ فليست بالحميم ولا الغساقا

فعطف المنصوب على المجرور .

وقوله :

تعيرني بأحداثِ الليالي وكيف يُدافع البدرُ المحاقا

والمختار في فعل عيّر أن يتعدى بنفسه لا بالباء ، يقال عيّرهُ الأمر .

وقوله :

وأقبل بالهناء عليك عيد حذاه إليك إقبالٌ وساقا

والهناء بالمدّ غير صحيح على شيوعه على الألسنة والأقلام . وإنما هو :

هَنَاءٌ هَنَاءٌ ؛ وَهَنْؤُ هِنَاءَةٌ وَهِنَاءٌ وَهِنَاءَةٌ .

وقوله :

تناقلُ بي أيدي المهاري حثيثةٌ كما اختلفت في العقد أنملُ حاسبِ

يريد بأنمل جمع أنملة ، والموجود في المعاجم أنامل وأنملات وهي رؤوس الأصابع .

وقوله :

هبُّ ذا الرميِّ من الحوادثِ جُنَّةٌ ولذا الأسيْر من الخطوب فكاكا
والمشهور في فعل وهب أن يتعدى إلى المفعول الأول باللام لا بنفسه .

وقوله :

أرى البيضَ الحدادَ ستقتضيبي نزوعاً عن هوى البيض الخِرَادِ
الخريدة : المرأة الحبيبة والبكر لم تمس ، تجمع عل خرائد وخُرْد وخُرْدُ .
لا على خراد .

وقوله :

ومهما هفت يوماً من الجونفحة فهبَّ بخصنيك النسيمُ المندلُ
المندل : اشتقه الشاعر من المندل ، وهو أجود العود ، وهذا الاشتقاق غير موجود .

وقوله :

تنلُّ أجراً وذكرأ سوف يبقى عليك مع الليالي الباقيات
جزم الفعل المضارع بلا جازم .

وقوله :

فيا ليتني أبقى ليَ المجرُّ عبرةً فأقضي بها حقَّ النوى وأريقها

الفاء بعد التمني تنصب الفعل المضارع ، وقد رفعه الشاعر هنا .

وقوله :

وأعرضُ عَنْ مَحْضِ المودَّةِ باذِلٍ وقد عَزَّيْني ممن أودُّ مُدْبِقُهَا

يريد : وأعرض عن باذلٍ محضَ المودة ، ففصل بين الجار والمجرور هذا الفصل المنكر .

وقوله :

أبلغُ أبا الفضل الذي شهدتُ بالفضلِ منه البدؤُ والحَضْرُ

الحَضْر بفتح الضاد وقد سكنها تقليداً لشيخه ابن حيوس القائل :

فجدُّ له دانتُ نزارٌ ويعربُ وجد رعايا ملكه البدؤُ والحَضْرُ

وقوله :

وهل تنهض الأيام بي في مقاومٍ تطولُ بناهٍ لآزمانٍ وأمر

جمع مقام على مقاوم غير مسموع .

وقوله :

تري الطيرَ والوحشَ من جانبيه هـ يشكو البطينَ بها الأخمصُ

والأخمص : باطن القدم ولا معنى لها هنا ، وإنما أراد الشاعر الخميص

وهو الضامر جوعاً فقال الأخمص .

وقال :

تخالَفُ في الشكل تيجانُهُمُ وتحكي غلائلِهَا الأقمصُ

يريد بالأقمص : جمع قميص وليس بصحيح ، وإنما يجمع على قُمص
وأقمصة وقمصان .

وقال :

تهبتُ ركابُنَا ما يَمَمْتُهُ تُخَالِجُنَا أزمَتَها خِلاجًا

والخلاج : البرد المخططة ، فظنه مصدر خالج .

وقال :

أعدتْ له ببيض الهند كميًّا وأشفي الكيِّ أبلغه نضاجًا

يريد بالنضاج النضج .

وقال :

وقيلٍ قد دلفتَ له بجِيلٍ كشهبِ القذف ترهيج ارتهاجا

يريد بقوله ترهيج ترهيج ، أي تثير الغبار ، فاستعمل ارتهيج على سبيل
الاشتقاق ولو لم يكن مذكوراً .

وقال :

فلولا بنو الصوفيِّ أعوز مُفضِلٌ إلى بابهِ للوفد مَسرى ومَدلجٌ

المسرى سير عامة الليل ، والإدلاج السير في أوّل الليل وآخره ، وهذا
مراد الشاعر ، أما المدلج فهو الموضع الذي يمشى فيه بالدلو بين رأس البئر
والحوض .

وقال :

فيا ليّ منه صوّالاً فتوكاً ويا ليّ منه ختلاً بآ سحوراً

يريد فاتكاً وساحراً ، فاشتق فتوكاً من الفتك ولو لم تذكر في كتب اللغة ، وسحوراً من السحر ، وإنما السحور ما يتسحر به من الطعام أو الشراب .

وقال :

ويا حاثي الترابِ عليه مَهْلاً كسنتَ بهاءَ ذاك البهيرا
أراد الباهر فقال البهير ، والبهير من انقطع نفسه من السعي الشديد .

وقال :

وروّضَ ساحتيه كأنّ وشياً يَحُلُّ بها وديباجاً نشيرا
يريد بالنشير المنشور . ومعنى النشير في كتب اللغة المتزر والزرع ، جُمِعَ وهم لا يدوسونه .

وقال :

إذا خطر النسيمُ عليه أهدى إلى زوّاره أرجأ عطيرا
أراد بالعطير العَطِير . ولم تذكر دواوين اللغة العطير .

وقال :

تتوقُ إلى الغمودِ البيضُ فيها وتشتاقُ الرماحُ بهما الرّكازا
يقال ركز الرمح ركزاً : غرزه في الأرض . أما الرّكاز : المعادن تحت الأرض .

وقال :

ولئن غدوت الفردَ في نيل العلى والمجدِ فالقمرُ المنيرُ فُرادُ
يريد : (فرد) أنه فرد ، ووجه الصواب في استعمالها ليس كذلك .
ومما أغري به استعمال صيغة استفعل ومستفعل فيما يشاء من الأفعال
قياساً مطرداً ولو لم ينص عليه ، من ذلك قوله :

ويومٍ أخذنا به فرصةً من العيش والعيش مُستفرض

وقوله :

وتوجهها الشربُ نارنجيةٌ فخلت المذبذبةً تستخوصُ

يقال أخوصت النخلة : أخرجت الخوص وهو ورق النخلة ، ولم يقولوا
استخوصت .

وقوله :

ودوحٍ أغانيٌ قمريةٍ يهزُّ اللبيبَ ويسرقصُ

وقوله :

يا قولُ قولةٍ مكمدٍ مستنزرٍ ماءَ الشؤونِ له ونارَ الأضلع

وقوله :

قد كنتَ أمرعهم لمرتادِ الندى كتمّاً وأسرعهم إلى المستفزع

وقوله :

كتم الصنائعَ فاستشاع ثناؤها من ذا يصدُّ الصبحَ عن أن يُشرقاً

وقوله :

وقد استشاد لك الثناء فما ترى إلاً بليغاً بامتداحك مُفلقاً

وعجيب قوله :

قد نال من شرف الفعال ذخيرةً تبقى إذا كاد الزمانُ يزولا

فقد نصب الفعل المضارع ولا ناصب له هنا .

وفي شعره تعابير محلية لا تزال جارية على ألسنة الدماشقة إلى اليوم ، منها

قوله :

وما إنْ ذاك تقصير بحقٍّ ولكنَّ الأسي قيدُ اللسانِ

وقوله :

لا يأتلي منْ ذهب يَلْفُهُ مني ومن دراهم يحوشها

فقوله (تقصير بحق) تعبير يستعمل كثيراً في كلام أهل دمشق إلى

اليوم . وكذلك (لفّ) الشيء يلفه أي اختلسه أو اغتصبه ، وحاشه أي

أصابه وجمعه .

هذه أمثلة من المآخذ لم نوردها على سبيل الاستقصاء بل على سبيل المثال ،

ونرجح أن ثقافته اللغوية كانت تزداد مع الزمن حتى عدّ (عارفاً باللغة)

كما يقول الصلاح الصفدي . ولعل قوله يعاتب قوماً من العرب :

مواعد مرضى كلِّما قلت قد بوا لكم موعداً بالبدل عاوده التُّكسُّ

يدل على معرفة باختلاف لغات العرب فان (بَرأ) لغة حجازية في

(بَرىء) .

ولكنه كان مميّلاً إلى الأخذ بالرخص والتوسع بالقياس .

ديوانه

المفروض أن يكون ديوان ابن الخياط مشتملاً على جميع شعره ، ومن أصح الشعر رواية ، لأن الذي جمعه ورواه عن الشاعر وسمعه منه وقرأه عليه هو تلميذه محمد بن نصر القيسراني الشاعر المشهور (٤٧٨ - ٥٤٨) .
فقد رتبه ترتيباً يكاد يكون زمنياً ، فأول قصيدة فيه أنشئت سنة ٤٧٤ وعمر الشاعر أربع وعشرون سنة ، وآخر قصيدة فيه كتب بها الشاعر إلى ابن القلانسي سنة ٥١٧ وهي السنة التي توفي فيها الشاعر .
وقد ذكر عن هذا الشاعر أنه « كان أكثراً محسناً مجيداً وأنه كان يحفظ شعره منذ بدأ يقول الشعر إلى أن مات »^١ واختار أبو طاهر أحمد بن محمد السلفي العالم المحدث الأديب (٤٧٢ - ٥٧٦) مجلدة لطيفة من شعره وسمعتها منه .

والذي نراه أنَّ الديوان لم يحط بجميع شعر ابن الخياط ، بل جُمع على سبيل الاختيار مما ارتضاه الشاعر لنفسه وأجاز روايته عنه وأسقط ما سواه ، لأن الديوان متوسط غير كبير لا يزيد على (٣٣٠٠) بيت ، على ما اشتهر عن صاحبه من أنه مكثر شديد العارضة ، متدفق الطبع ، كثير الارتجال ، يضاف إلى ذلك خلوّ الديوان من شعر الصبا ، أي ما قاله قبل أن بلغ العشرين من سنه ، وشاعر مطبوع مثله لا بد من أن يكون قد قال غير قليل من الشعر قبل العشرين .

١ سير أعلام النبلاء للذهبي مجلد ١٢ ورقة ١١٠ (مخطوط) . عن حاشية المؤلف .

ومهما يكن فهذا هو الذي ارتضاه الشاعر لنفسه . ونسخ الديوان المخطوطة
ثمانى نسخ ترجع إلى أصليين وفرع .

الأصل الأول : رواية القيسراني وترتيبه ، وعدد نسخ هذا الأصل
ست .

فرع من الأصل الأول : نسخة من رواية القيسراني ولكنها مرتبة على
حروف المعجم .

الأصل الثاني : نسخة تختلف في ترتيبها عن كل ما تقدم كما تختلف
بالزيادة والنقص وقد يكون جامع هذه النسخة أبا طاهر أحمد بن محمد السلفي
الذي عاصر الشاعر ، فقد ذكر عنه أنه اختار مجلدة لطيفة من شعر ابن الخياط
وسمعا منه .

ابن عنين

٥٤٩ - ٦٣٠

حياته

يتصل نسب ابن عنين بالأنصار ، هاجر آباؤه الأولون من المدينة إلى الكوفة في زمن لا سبيل إلى تعيينه ، ولكن بعد الإسلام على كل حال ؛ - فالأوس والخزرج سموا بالأنصار بعد الهجرة النبوية ، والكوفة مدينة إسلامية مصّرت في عهد الخليفة الثاني .

وكانت منازل أولئك الآباء في الخطة المعروفة بمسجد بني النجار^١ بالكوفة ثم تركوا الكوفة - كلهم أو بعضهم - في زمن لا نتمكن من تعيينه أيضاً إلى زرع^٢ في حوران ، وعرفوا هناك ببني غالب . ولا نعلم أول من نزع من زرع إلى دمشق من آباء ابن عنين ، ولكننا نعلم أن ابن عنين ولد بدمشق يوم الاثنين تاسع شعبان سنة تسع وأربعين وخمسمائة .

وهو شرف الدين أبو المحاسن محمد بن نصر بن الحسين بن علي بن محمد بن غالب المعروف بابن عنين ؛ نشأ بدمشق وكان منزله قبلي الجامع الأموي . فلما يفع أو كاد تتلمذ لشيخ نحويّ جليل كان يتصدر بالجامع لإقراء النحو ، هو أبو الثناء محمود بن نعمة بن ارسلان الشيزري ، قرأ عليه الأدب

١ معجم الأدباء لياقوت ج ٧ ص ١١ : كما ورد في حاشية المؤلف .

٢ يقال لها زرعاً وزرع كما في معجم البلدان ، وتدعى اليوم ازرع : نقلاً عن حاشية المؤلف .

وبرع في النحو ، وكان الحافظ الكبير أبو القاسم علي بن الحسن بن عساكر
يدرس بالمقصورة الغربية من الجامع أيضاً ، وعلي كمال الدين الشهرزوري
قاضي قضاة دمشق ، ورحل إلى بغداد وسمع من منوچهر بن تركمان شاه
راوي مقامات الحريري .

وابتدأ يقول الشعر سنة خمس وستين وخمسمائة وهو ابن ست عشرة
سنة .

وكان ذلك في عهد الملك العادل نور الدين محمود بن زنكي ، ونور
الدين أشبه بعمر بن عبد العزيز في عدله وتمواه ، يقرب العلماء الأتقياء ،
ولا يقبل على الشعراء ، حتى قال فيه أسامة بن منقذ :

سلطاننا زاهدٌ والناسُ قد زهدوا له فكُلُّ على الخيرات منكمشُ
أيامهُ مثل شهر الصوم طاهرةً من المعاصي وفيها الجوعُ والعطشُ

وقال في دولته ابن الدهان :

أمدح التركَ أبغي الفضلَ عندهمُ والشعر ما زال عندَ التركِ متروكا

ولعل لإهمال نور الدين للشعراء كان من أشد العوامل في توجيه ابن
عين في شعره ، وصرفه إلى النقد والغمز واللمز ، وتهيته لأن يكون من
كبار الهجائين المعدودين على استعداد فطري شديد .

ويختار الله إلى جواره نور الدين سنة (٥٦٩) وابن عين في ريعان
الشباب ، ولا تستقيم أمور الملك الصالح ابن نور الدين في دمشق ، فيخرج
منها إلى حلب سنة ٥٧٠ ويستولي على دمشق السلطان صلاح الدين .

والمملكان العظيمان نور الدين وصلاح الدين يتشابهان في الاستقامة والعدل
والجد والحزم ، ولكن صلاح الدين أكثر تذوقاً للأدب وألين حجاً للشعراء ،

فقد روي عنه أنه كان يحفظ كتاب الحماسة لأبي تمام الطائي^١ ويتمثل بالشعر ،
ويجيز الشعراء .

يشهد ابن عنين الشاعر الفتي يومئذ قيام الدولة الصلاحية في دمشق ،
فلا يحاول التقرب من السلطان ولا من رجال دولته أو المقربين إليه ، بل
يقف موقف الناقد المشتع العايب الساخر ، يغمز الدولة والقائمين بها من
وزراء وقواد وقضاة ، كما يغمز علماء دمشق ورؤساءها وأعيانها ، ولقد
بلغت به الجرأة مبلغاً بعيداً حتى تمرّس بصلاح الدين وتعرض له :

سلطاننا أعرج وكاتبه ذو عمّش^٢ والوزير منحذب^٢

فضجر منه الناس وضاقوا به ذرعاً ، وأخذ الموفق بن المطران أحد المقربين
من السلطان المعروفين بدماثة الخلق ولين الجانب ، وأحد من هجأهم ابن
عنين وسخر منهم ، أخذ يخرص السلطان على نفيه ، فخرج منها رافعاً
صوته بقوله :

فَعَلَّامَ أَبَعَدْتُمْ أَخَا ثِقَةٍ مَا خَانَكُمْ يَوْمًا وَلَا سَرَقَا
انفوا المؤذنَ من بلادِكمْ إنْ كان يُسْنِفِي كُلُّهُ مِنْ صَدَقَا

وطاف البلاد من الشام والعراق والجزيرة وأذربيجان وخراسان وغزنة
وخورزم وما وراء النهر ، ثم دخل الهند واليمن وملكها يومئذ سيف الإسلام
طغتكين بن أيوب أخو صلاح الدين ، وأقام بها مدة ، وكان يتردد بين
اليمن ومصر لتثمير ماله على سبيل التجارة ، ثم ترك اليمن ورجع على طريق

١ الروضتين ج ٢ ص ١٨ والبداية والنهاية لابن كثير ج ١٢ ص ٣٠٧ ؛ نقلا عن حاشية المؤلف .
٢ الوزير هو القاضي الفاضل وكان أحدب الظهر .

الحجاز إلى الديار المصرية ، وعاد إلى دمشق بعد وفاة صلاح الدين وخروج ابنه الملك الأفضل من دمشق واستيلاء الملك العادل عليها .

ربما كانت مدة غربته عن دمشق عشرين سنة أو تزيد ، فقد ذكر الصلاح الصفدي في الوافي بالوفيات : أن ابن عنين سمع ببغداد من منوچهر بن ترکان شاه راوي المقامات ، ومنوچهر هذا توفي سنة (٥٧٥) ، ولم يستتب أمر الملك العادل في دمشق إلا في أواخر سنة (٥٩٧) .

أما إقامة الشاعر في بغداد بعد أن نفي من دمشق ، فليس في ديوانه ما يدل على أنه حمدها :

وقالوا غدت بغدادُ خلواً وما بها جميلٌ ولا منٌ يُرتجى لجميلٍ

وفي ديوانه بيتان أسقط جامع الديوان كلمات من عجزيهما تخرجاً واستنكاراً ، لأن الشاعر على ما يظهر هجا بهما الخليفة ورجال دولته .

وفي الديوان مقطوعتان يسخر بهما من أحكام الخليفة وأحكام قضاة قال :

فزانٍ ما عليه من جناحٍ وقوادٍ بتوقيع الخليفة

رحل عن بغداد ميمماً شطر الشرق ، وزار جميع ممالكة الإسلامية ، فلم يجد من ملوكه ما خفف عنه ألم الغربة ، أو لم يحاول التقرب منهم ، فبدأ يشعر بالندم على ما فرط منه ، وأيقن أن ملوك بني أيوب ألين حجاً وأندى يداً ، وأرحب صدرأ ، وقصيدته التي قالها وهو في بلاد ما وراء النهر يحن إلى دمشق ويذم الأعاجم ويمدح بني أيوب ، تصور ما يساور نفسه من الحنين والندامة ، يقول فيها :

أحنُّ ومن وراء النهر داري حنين العود^١ أو ثقه العيراس^٢
 وكيف تبيت تطمعُ في مديحي رجاءَ نوالها العجمُ الحساس
 ولو أني مدحت مُلوكَ قومي تراغت حولي النعمُ الدخاس^٣
 فإنَّ الناسَ في طُرُقِ المعالي لهمُ تبعٌ وهمُ للناسِ راس

ولم يسعد ببلاد المشرق إلاّ بلقاء الفخر الرازي ، فهو الذي عرف قدره ،
 وأغدق عليه العطايا ، فاستفاد الشاعر من علمه وهباته ، وأخذ عنه بالري ،
 وحضر دروسه بها وبغيرها من البلدان ، ومدحه وأطال الثناء عليه ؛ وما
 سوى ذلك مما قاله في بلاد المشرق لا يدل على الرضا بما كان فيه .

هجا بخارى ورئيسها ابن مازة ، ووصف أهلها بالشح وأنهم يغلقون
 أبوابهم في وجه الغريب ويلحقونه إلى الخان ، ليأكلوا زاده ويسلبوا متاعه ،
 ويقترحوها عليه ما يضيف كيسه ويثلم ناموسه .

ولئن راقته صباحة الوجوه في خوارزم ، فقد أقلقته المؤذنون ، فكل
 منهم كالسليم لا ينام ولا يُنيم ، يصعد المنارة بعد نصف الليل فلا يزال
 يزعق حتى الفجر .

ويبدو له أن يزيد إيغالا^٤ في الشرق وهو القائل :

أشقق قلب الشرق حتى كأنني أفتش في سودائه عن سنا الفجر
 فيذهب إلى الهند ، ولكنه لا يحمد مغبّة السرى ، ولا يجد السنا الذي
 يتطلع إليه ، فيدعو للهند بالسقيا ، ولكن بالصواعق والدماء :

١ العود : المسن من الإبل .

٢ العيراس : الخيل يعرس به البعير أي يشد به من عنقه إلى ذراعه .

٣ الدخاس : العدد الكثير .

وإذا سقى الله البلاد فلا سقى بلد الهند سوى الصواعق والدماء

ويسخر من قضاتها :

لله قاضي دينبور فإنه قاض إذا أسدى أطال وأعرضا

وفي الهند صحت عزمته على العودة إلى بني أيوب واسترضائهم بعد
أن أغضب سيدهم صلاح الدين :

ولو أني مدحت ملوك قومي تراغت حولي النعم الدخاس^١

فترك الهند إلى اليمن وملكها يومئذ سيف الإسلام طغتكين أخو صلاح
الدين ، فاحتفى به وأحسن لقاءه وأكرم وفادته ، وجعله من خواص بطانته
وندمائه ، وأغدق عليه الهبات والعطايا ، فلقي عنده الراحة بعد العناء واستقر
في ظله بعد طول الاضطراب :

فلما استقرت في ذراه بني النسوي وألقت عصاها بين مزدحم الوفد
تنصل دهرى واستراحت من الوجي^١ قلوصي^١ ونامت مقلتي وعلا جدي

وشعره في سيف الإسلام على تنوع معانيه من أحسن شعره ؛ والغريب
أن كل ما لقيه من بره وإحسانه لم يخفف من شوقه إلى دمشق ، بل إن
عدداً من قصائده التي مدحه بها ، يتشوق بها إلى دمشق ويصف رياضها
ومتنزهاتها، ولكنه في الوقت نفسه لا يكظم غيظه على رؤساء دمشق وحكامها
ورجال الدولة فيها .

بقي في كنف صاحب اليمن مدة غير قصيرة ، تردد فيها بين اليمن

١ انقلوص : الأثني الشابة من الإبل ، ولد النعام .

ومصر ذهاباً وإياباً ، فالحادثة التي وقعت له في مكة وهو عائد من اليمن إلى مصر كانت سنة (٥٨٤) ، لأنها قرنت بفتح صلاح الدين للساحل الشامي ، وكان ذلك الفتح في السنة المذكورة ، ونجد ابن عنين في اليمن بعد هذا التاريخ ، ففي الديوان قصيدتان قالهما في صاحب اليمن ، قال الأولى سنة (٥٨٧) والثانية سنة (٥٨٨) وفي ديوان ابن الساعاتي ج ٢ ص ١٠ أبيات ودع بها ابن عنين في سفرة سافرها من مصر إلى اليمن ؛ ويظهر أنه كان يتجر في أسفاره ويصحب معه أنواعاً نفيسة ، حتى طمع به في مكة بعض أشرافها ، وله في ذلك أبيات .

ثم لما جاء إلى مصر طُوب بدفع الضريبة عما معه من العروض ، فقال يهجو الملك العزيز بن صلاح الدين صاحب مصر :

ما كلُّ من يتسمى بالعزيز لها أهلٌ ولا كلُّ بَرِّقٍ سحبهُ غَدِقهُ
بين العزيزين^١ بون في فعالهما هناك يُعطي وهذا يأخذ الصدقهُ

بقي على هذه الحال إلى أن توفي صلاح الدين سنة (٥٨٩) وقام بعده في دمشق ابنه الأفضل علي ، ولم تطل مدته فيها ، فخرج منها إلى صرخد سنة (٥٩٢) وقام بها الملك العادل نيابة عن صاحب مصر .

وكان لابن عنين أخ يُكنى أبا حسن فكتب إليه يستدعيه إلى دمشق ، فأجابه بقصيدة يتكلف بها التصبر عن دمشق لسوء سيرة الحكام ولطفغان الملك العادل أبي بكر علي ابن أخيه الملك الأفضل علي :

لا الحاكمُ المصريُّ ينفذُ حكمهُ^١ فيها عليّ ولا العواني الموصلي

١ يريد بالعزيزين : الملك العزيز صاحب اليمن والملك العزيز صاحب مصر ؛ نقلاً عن حاشية المؤلف .

هيهات أن آوي دمشقَ وملكها يعزى إلى غير المليكِ الأفضل
ومن العجائب أن يقومَ بها أبو بكرٍ وقد علم الوصية في علي
مهلاً أبا حسن فتلك سحابةٌ صيفيةٌ عما قليلٍ تنجلي

ومهما يكن فقد ترك اليمن موقر الركاب بالمال والمتاع والطرائف ،
قبل وفاة صاحب اليمن سنة (٥٩٣) ووجهته مصر ، وأقام بها مدة غير
قصيرة ، صحب بها جماعة من الشعراء كانوا معجبين به وبخفة روحه وظرفه
ودعابته وفكاهته ؛

قال ابن خلكان في وفيات الأعيان ج ٢ ص ٢٤٩ بترجمة ابن سناء
الملك :

« واتفق في عصره بمصر جماعة من الشعراء المجيدين ، وكان لهم
مجالس يجري بينهم فيها مفاكهات ومحاورات يروق سماعها ، ودخل في
ذلك الوقت إلى مصر شرف الدين بن عنين ، فاحتفلوا به وعملوا له دعوات ،
وكانوا يجتمعون على أرغد عيش ، وكانوا يقولون هذا شاعر الشام ، وجرت
لهم محافل سطرت عنهم ، ولولا خشية الإطالة لذكرت بعضها » .

وتوفي صاحب مصر الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين سنة (٥٩٥)
وابن عنين في مصر على ما نرجح ؛ واتفق الأمراء على تولية المنصور محمد
ابن العزيز ، ولصغر سنه استدعوا من صرخد عمه الملك الأفضل ليقوم
بتدبير الأمر .

وجرت بين الأفضل وعمه العادل أمور ووقائع انتهت بخروج الأفضل
من مصر واستيلاء العادل عليها ، ودخول مصر والشام في ملك العادل سنة
(٥٩٧) . عند ذلك قطع ابن عنين أمله من نجاح الأفضل ، وأيقن أن

لا بد من الدخول في طاعة العادل إذا أراد العودة إلى دمشق التي طالت غربته عنها ، فكتب إلى الملك العادل قصيدته الرائية يستعطفه بها ويستأذنه في الدخول إلى دمشق ، وهي من حر الشعر ، وقد تكون أحسن شعره ، وأولها :

ماذا على طيفِ الأجابةِ لو سرى وعليهمُ لو ساعحوني بالكرى

فأذن له العادل ، فلما دخل دمشق قال :

هجوتُ الأكابرَ في جلقٍ ورعتُ الوضيعَ بسبِّ الرفيعِ
وأخرجتُ منها ولكنني رجعتُ على رغم أنفِ الجميعِ

كانت غربته طويلة ومحنته بها شديدة ، ولكن طول الأسفار في مختلف الأقطار زاد معارفه ، ووسع تجاربه ، وفتح لعينيه آفاقاً جديدة واسعة من دروس الحياة واختبار الناس ، وأضاف إلى شعره عناصر جديدة ، ونقض عليه ألواناً شتى ساحرة .

وأبلغ أثر من ذلك الحنين إلى الوطن ووصف محاسنه ومباهجه ، حتى أصبح لا يرى الدنيا إلاّ في دمشق ، ويستصغر كل ما كسبه من مال ومتاع ومعرفة في جنب الإقامة فيها :

ولو اني خيِّرت في هذه الدن يا لما اخترتُ غيرَ أهلي وداري

سأله يوماً الملك المعظم عن عجائب ما رآه في البلاد التي سافر إليها فقال :

« كل ما في الدنيا مفرِّق هو في بلدك مجموع موجود »^١ .

على أن مغريات السفر ظلت تعاوده حيناً بعد حين ، فيسافر مختاراً لا

١ حوادث الزمان لابن الجزري (مخطوط) كما ورد في حاشية المؤلف .

مضطراً أو رسولاً لا طريداً . قال ابن الديلمي :

« . . . قدم ابن عنين بغداد وارداً صادراً غير مرة ولقيته بها وكتبت عنه شيئاً من شعره بالجهد لأنه كان ضنيناً به »^١ .

وبعد ان استقرت به النوى في دمشق لم يحنّ إلى بلدة من البلدان الكثيرة التي زارها أو أقام بها إلاّ إلى مصر ، قال من قصيدة :

أحنّ إلى مصر ويا ليت أن لي إذا ذُكرت مصر جناحاً أعاره

عاد ابن عنين إلى دمشق ، والقائم بها الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل ، لأن العادل قسم البلاد في حياته بين أولاده ، فكانت للمعظم دمشق والقدس ومضافاتهما ؛ والمعظم في بني أيوب كالمأمون في بني العباس ، عالم فاضل أديب ؛ برع في الفقه واللغة والنحو ، يقرب العلماء والأدباء ويخالسهم ويجري عليهم الجرايات ، ويقترح عليهم تأليف الكتب ، ويضع الخطط لها ، من ذلك أنه أمر أن يجمع له كتاب في اللغة جامع لصحاح الجوهري ، وتهذيب الأزهري ، وجمهرة ابن دريد ، وغيرها من دواوين اللغة ، كما أمر أن يرتب مسند أحمد بن حنبل على الأبواب^٢ . وكان يميز من يحفظ كتاب المفصل للزنجشري بمائة دينار وخلعة ، فحفظه جماعة رأى ابن خلكان بعضهم^٣ .

وهو نفسه من المؤلفين ألف كتاباً يرد به على الخطيب البغدادي^٤ ،

١ مجلة المجمع العلمي العربي ١٨ / ٢٤٨ كما ورد في حاشية المؤلف .

٢ الكامل لابن الأثير حوادث ٦٢٤ : نقلا عن المؤلف .

٣ وفيات الأعيان لابن خلكان ١ / ٥٠١ .

٤ طبع هذا الكتاب بعنوان الرد على الخطيب البغدادي بمطبعة السعادة بمصر نقلا عن حاشية المؤلف .

منتصراً للإمام أبي حنيفة، ذكر في مقدمته أنه ألقه وهو يدفع هجوم الصليبيين عن نابلس .

أقبل هذا الملك الفاضل على ابن عنين . وقتن به وجعله من خواص بطانته ، يسمر معه في مجالسه الخاصة ، فيرتاح لحسن حديثه وسحر مناديمته ، ويهش لدعابته ونكاته ، وكان لا يصبر عنه فيصحبه إذا سافر ، ويعتمد عليه في كل أمر ذي بال ، وفي أواخر دولة المعظم تولى الوزارة بدمشق ، فضبط الأمور وأحسن السيرة ، وعف عن الأموال ، وكان يسفر عن المعظم في المهمات إلى الممالك المجاورة ؛ قال ابن خلكان :

« رأيت بمدينة إربل سنة ٦٢٣ رسولاً عن المعظم » ؛ وهكذا أصبح عند المعظم شاعراً ونديماً ووزيراً ومستشاراً . وهو على رغبته في صحبة المعظم زهد في الوزارة واستقال منها وتوسل إليه أن يعفيه من عملها :

أقني عثاري واحتسبها صنيعاً
يكونُ برحماها لك اللهُ جارياً

ولكن المعظم لم يقبل استقالته ، فبقي على ذلك حتى توفي المعظم سنة ٦٢٤ فترثاه ابن عنين بأنفاسه ودموعه ، كما مدحه في حياته بأحسن شعره . وتولى بعد المعظم ابنه الملك الناصر داود فاستبقاه في الوزارة .

ولما أخذ الملك الأشرف موسى دمشق سنة ٦٢٦ ، لزم ابن عنين بيته وكان قد بلغ من الكبر عتياً ، ومدح الملك الأشرف بشعر دون شعره في أخيه الملك المعظم .

وليس في أخباره أو شعره ما يدل على أنه أعقب أولاداً أو تزوج ؛ فقصائده التي قالها في غربته يتشوق إلى دمشق وأهله وأصحابه ، لم يرد بها ذكر ولد أو زوج له ، وهما في هذا المقام أجدر بالذكر من كل ما يحن إليه

الغريب ، ولم يرو أنه كان معه في غربته أحد من أولاده ، ولا نعلم من أقاربه
إلا أخاً له كان يكاتبه من الهند وغيرها ويكنيه بأبي حسن :

مهلاً أبا حسن فتلک سحابة صيفية عما قليل تنجلي

وابن أخت صغير داعبه بأبيات يتعسر عليه النطق بكل كلمة من كلماتها
للتغته .

ونرجح أن أخاه توفي قبله ، لأن الشاعر أهدى مماليكه في مرض موته
إلى الملك الأشرف ، ووقف داره على غير أهله .

ويظهر أن علة طال قبل وفاته ، فقد أشار إليها في الأبيات التي كتبها
إلى الملك الأشرف يسأله أن يقبل مماليكه هدية :

لي أعبد^١ قد ضاق ذرعي بهم^٢ وأضجرتهم علسي مني

وتوفي بدمشق وهو ابن إحدى وثمانين سنة عشية نهار الاثنين لعشرين
من شهر ربيع الأول سنة ثلاثين وستمائة .

أما قبره فقد قال ابن خلكان إنه دفن بمسجده^١ الذي أنشأه بأرض المزرة^٢ ،
ثم قال إنه رأى على باب تربة بلال بمقابر الباب الصغير قبراً كبيراً قيل له
هذا قبر ابن عنين .

فابن خلكان الذي عاصر الشاعر وعرفه وأعجب به ، والمشهور بتحقيقه
وتثبته لم يجزم بمكان قبره ، فذكر الروايتين وفوض العلم إلى الله حين قال :
والله أعلم .

١ لا يعرف اليوم مكان هذا المسجد . نقلنا عن حاشية المؤلف .

٢ من ضواحي دمشق تبعد مقدار خمسة كيلومترات ، وهي من المنتزهات .

علمه وأدبه

ابن عنين شاعر أديب عالم ، تقدم في ترجمته ذكر مشايخه — وكلهم من أئمة العلم والأدب — مع الإشارة إلى ما أخذ عنهم ، كان عالماً بالأدب ، واسع الرواية للشعر وأخبار العرب ، متمكناً من اللغة متقناً لها ، يستحضر كتاب الجمهرة لابن دريد ؛ عالماً طويل الباع بالنحو ، مشاركاً في الحديث والفقه ، ساهماً بفروع الثقافة الإسلامية لعهد من تفسير ومنطق وفلك وحساب وهندسة ، يظهر أثر كل ذلك في شعره ، ولا سيما النحو ، فقد كان ينتزع مصطلحاته ويحسن في استعمالها بشعره غاية الإحسان .

وكان يحتكم إليه الأدباء فيما يشجر بينهم من خلاف .

قال ابن خلكان : « سئل ابن عنين وكان أخبر الناس بنقد الشعر عن قصيدة العكوك التي أولها :

ذاد ورد الغي عن صدّره ° فارعوى واللهو من وطره °

وقصيدة أبي نواس الموازية لها ، التي أولها :

أيها المنتساب من عفره ° لست من ليلى ولا سمّره °

وهي من نوادر الشعر أيضاً ، فلم يفضل إحداها على الأخرى ، وقال ما يصلح أن يفاضل بين هاتين القصيدتين إلا شخص يكون في درجة هذين الشاعرين . »

وكان يرجع إليه أيضاً في العويص من مسائل الفقه المتعلقة بالعربية من نحو وغيره ، ليحقق القول فيها الثقات ، كبعض مسائل الجامع الكبير^١ لمحمد بن الحسن .

وله من المؤلفات مختصر الجمهرة^٢ لابن دريد ، والتاريخ العزيزي^٣ الذي يظهر أنه ألفه للملك سيف الإسلام طغتكين بن أيوب صاحب اليمن ، والكتابان لا يُعرف مكانهما .

-
- ١ الرد على الخطيب البغدادي للملك المعظم ص ٢٤ نقلا عن حاشية المؤلف .
 - ٢ كشف الظنون ١ / ٢٢٨ نقلا عن حاشية المؤلف .
 - ٣ كشف الظنون ١ / ٤٠٤ نقلا عن حاشية المؤلف .

صفتة وأخلاقه

كان ابن عنين خفيف الروح ، كثير الدعابة ، بارع الفكاهة ، حاضر النكتة ، طريفاً ماجناً ساخرأً متهكماً ، يؤثر الهزل على الجدل ، متوقد الذهن ذكي القلب ، تعجبه النكتة ولو كان فيها حتفه .

أغري بالسخر من علية القوم وصدورهم ، فهو أشبه الناس بأبي نواس في مجونه ، وابن حجاج في هزله ، والجاحظ في تهكمه واستخفافه بما درج عليه الناس من رسوم المجاملة .

أحبُّ شيء إليه أن يستهزىء بذوي الهيئات والوقار والتزمت من القضاة والفقهاء والمحدثين والخطباء والواعظين ، ولقد ألح عليهم بالتهكم والسخرية حتى رموه بسوء الاعتقاد والزندقة ، وقالوا إنه سب الأنبياء وتهاون بالصلاة وجاهر بشرب الخمر . أما التهاون بالصلاة ففي شعره ما يدل على التبرم بها ، كما فيه ما يدل على معاقرة الخمر ؛ وأما سب الأنبياء فلعلهم يريدون بهم علماء هذه الأمة الموصوفين بأنهم كأنبياء بني إسرائيل .

اعتاد أن يختلف إلى الجامع الأموي ، والجامع يومئذ مثابة للناس في جميع أمورهم من دين ودنيا ؛ يجتمع فيه المصلون ، وطلاب العلم والمعتكفون ، وتعد مجالس الوعظ والمناظرة والجدل ، في حرمة وزواياه ومشاهده وأروقته ويجلس في الشباك الكمالي غربى الجامع^١ قاضي القضاة أو نائبه يحكم بين

١ الدارس في المدارس ٢/٦٥٣ (مخطوط) : نقلا عن حاشية المؤلف .

المتخاصمين ؛ وعلى مقربة منه رجاله وأعدوانه وعدوله ، كما يجلس كاتب العقود تحت الساعات^١ شرقي الجامع .

وللجامع خطيب جهوري الصوت يخطب الناس يوم الجمعة ويصلي بهم ، وواعظ يجذب الأبصار والأسماع ويلين القلوب بحسن وعظه .

والجامع غاصّ بالناس على اختلاف طبقاتهم ، وفيهم من يأتي لتسقط الأخبار والاطلاع على مجرى الحوادث ، أو التفرج بتلك المشاهد الطريفة .

وابن عنين يتنقل بين حلقات الدروس ومجالس الوعظ والجدل ، ويخطر في صحن الجامع يستطلع الأخبار ، ويمدّ عينه إلى قاضي القضاة في مجلس حكمه ، ويرمي بنظره كاتب العقود بين سجلاته ، يستفتح بذلك موضوعاً يصور به بعض هذه المشاهد تصويراً هزلياً يستثير الضحك والإعجاب .

قادته يوماً خطاه إلى الرواق الشمالي من الجامع ، فوجد قرب باب الكلاسة محدثاً يروي الحديث لجمهور من الطلبة والمستمعين ، فوقف معهم ساعة ثم انسل من الحلقة ، وتناشد الناس بعد ذلك قوله :

رأيتُ النبيَّ عليه السلامُ فقامتُ إليه وقبّلتُهُ
فقال أيعقوبُ يروي الحديثَ ؟ فقلتُ نعم ، قال ما قلتُهُ

ورأى يوماً فقيهين يتناظران ، ينز أحدهما بالبغل والآخر بالجاموس ، فقال :

البغلُ والجاموس في جدليهما قد أصبحا مثلاً لكل مناظرٍ
برزا عشيةً ليلةٍ فتناظرا هذا بقرنيه وذا بالخافر

١ شذرات الذهب ٥ / ٢٨٥ : نقلا عن حاشية المؤلف .

وأمر السلطان أن تسلسل أبواب الجامع في أيام الجمع ، لئلا تدنو منها
خيول رجال الدولة فتؤذي المصلين ، فاتخذ ابن عنين من ذلك موضوعاً
هزلياً نهش به القاضي والخطيب وسدنة الجامع ونوابه :

لما رأى الجامعُ أمواله مأكولةً . ما بين نوابه
جنٌّ فمن خوفٍ عليه غداً مسلسلاً من كلِّ أبوابه
وكيفَ لا تعتاده جِنَّةً وقد رأى المسخَ لأربابه
القردُ في شبَّاكه حاكمٌ والتيسُ في قبة محرابه

وله من مثل ذلك مقطعات في الواعظين والمستمعين من الرجال والنساء
والمصلين والمعتكفين والسدنة والقوام ، تجدها في باب الدعابة والتهكم والسخرية
وباب الهجاء وغيرها .

فإذا انقضى النهار قصد القلعة ليسمر عند الملك المعظم ويطرفه بهذه
الملح والأضاحيك ، ويعبث بالسماز من الكتاب والشعراء والأدباء .

ولقد بدا له يوماً أن يتوب ، شأن المسرفين على أنفسهم الذين توقعهم
ذنوبهم إلى الإنابة ؛ فاعتكف في مسجد يتعبد ، وتفقد المعظم ، فأخبر
بشأنه ، فأتحفه على سبيل المداعبة بزجاجة من خمر وفصوص للنرد وبعث
إليه يقول : (سبح بهذا) ، لما عُرِف عنه من الدعابة والمجون ؛ ومن
اشتهر بخلق وتكأف الإقلاع عنه لم يثق الناس بصدقه ولو جده .

ويظهر أنه اعتمد على عفو الله ونقض التوبة .

وهو على دعابته ومجونته كان في وقت من الأوقات يطمح لأعلى رتبة :
ولا بدَّ أن أسعى لأفضل رتبة وأحمي عن عيني لسديداً منامي

ولم يزل يعظم في عين الملك المعظم حتى ولاة الوزارة وأقامه مقام نفسه ،
فقام بها أحسن قيام ، وأثبت أنه يحسن الجحد كما يحسن الهزل ، ثم زهد بها
وآثر الاستقالة ، ولكن المعظم كان حريصاً على بقائه بها .

وعمله هذا يذكرنا باللاحظ لما ولاة المأمون ديوان الإنشاء ، فاستقال
ولم يطق العمل فيه ، ولم يصبر عليه المأمون .

والفكاهة لا تفارق ابن عنين في أقواله وأفعاله حتى في عمل البر والإحسان
والقربة إلى الله تعالى .

روي عنه أنه : « وقف داره على من التحى من المردان ، فلما سئل عن
ذلك قال : هؤلاء تشغلهم المرودية عن تعلم الصنعة ، فإذا التحى أحدهم
لم يجد ما يتقوت به ؛ وهي جهة من أوجه البر لم أسبق إليها » .

والأمر الذي يسترعي الانتباه ، تعصبه للعرب على العجم في زمان طغت
فيه عصبية الدين على عصبية الجنس ، محاكاةً للصليبيين الذين غزوا الشرق
تحت راية الصليب . ففي الوقت الذي كان يقول فيه ابن سناء الملك الشاعر
المعاصر لابن عنين :

« بدولة الترك عزت دولة العرب »

ويقول ابن النبيه المعاصر له أيضاً :

« الله أكبر ليس الحسن في العرب »

كان ابن عنين يقول :

وكيف تبیت تطمع في مديحي رجا نواها العجم الحساس

ولما مدح الفخر الرازي احتاط لهذا الأمر فمدحه بأنه عربي قرشي وإن

استوطن آباؤه بلاد العجم ، وذلك حين يقول :

من دوحةٍ فخريّةٍ عمريةٍ طابت مغارس مجدها المتأثّلـ
مكية الأَنسابِ زاكٍ أصلها وفروعها فوق السماك الأعزلـ

وهو متشدد في أمر العصبية ، يعيب أبناء الإمام ولو كان آباؤهم من
خلص العرب بل يعيب من استرضع في غير العرب ولو كان عربي الأبوين ، قال :

فألفيته يهوى الندى فتردّه عروق إلى أخواله الزرق تنتمي
إذا أيقظته نخوةٌ عربيةٌ إلى المجد قالت أرمنيتهُ نمـ

وقال :

وقلت فتىً من دوحةٍ عربيةٍ تشابه منها الفرعُ في الطيب والأصلُ
لم أدر أنّ الأرمنيةَ ظنّرهُ وفي الأرمنيات النجاسةُ والبخلُ

ولا يعجبه إلاّ من لم تهجنه الإمام دماً ولبناً :

من أسرةٍ عربيةٍ جسات به عربيةٌ آباؤها أحرارُ
لم يُغذّ من لبن الإمام ولم تحيل أخلاقه عن طبعها الأظارُ

أما مدحه لبني أيوب فقد كان يعتبرهم على ما نظن مستعربين ، سكنوا
بلاد العرب وشيدوا دولتهم فيها وحموها من الصليبيين ، ولم يصطنعوا غير
العربية في شؤون الدين والدولة والعلم والأدب ، حتى أن المعز إسماعيل
ابن طغتكين صاحب اليمن ادعى^١ أن الأيوبيين أمويون .

١ شذرات الذهب ج ٤ ص ٣٣٤ نقلا عن حاشية المؤلف .

شعره

قبل أن يولد ابن عنين بسنة واحدة ، مات شاعران انتهت إليهما الرئاسة في الشعر ببلاد الشام ، هما ابن القيسراني^١ وابن منير الطرابلسي^٢ .

ولم يبق بعدهما من هو في طبقتهم حتى نبغ ابن عنين ، فأشبهه الأول بجزالته وممانته ، وضارع الثاني بالهجاء ونهش الأعراس ، وفاقهما بخفة الروح والدعابة والتهكم والسخرية .

حاكى في كثير من شعره جزالة المتقدمين ، ولكن الطابع الشخصي واللون المحلي ظاهران في شعره أشدّ ظهور .

وقلّ في الشعراء من تراءت على شعره صورة بيئته وزمانه كما تراءت على شعر ابن عنين ، فأكثر قصائده تنادي على نفسها أن قائلها شاعر دمشقي عاش في العصر الأيوبي ، وكم من شاعر مذكور لا تتبين في شعره زمانه ولا مكانه .

وشعره كثير الفنون ، متعدد النواحي ، جم الأغراض ؛ وعناصره منتزعة من مصادر شتى يتجارى فيه طبع الشاعر وفن الصانع ، وتتبين فيه مقدرة اللغوي وتهذيب العالم المثقف ؟ فهناك محسنات البيان والبديع ، وهناك

١ محمد بن نصر القيسراني ، توفي سنة ٥٤٨ ، ابن خلكان ٢ / ٢١ عن حاشية المؤلف .

٢ أحمد بن منير الطرابلسي ، توفي سنة ٥٤٨ ، ابن خلكان ١ / ٦١ عن حاشية المؤلف .

استعمال مصطلحات العلوم من نحو وصرف وفقه وحديث ومنطق وطب
وفلك وهندسة وحساب .

وهو أبرع ما يكون إذا استعمل مصطلحات النحو كقوله وقد كتب
به إلى الملك المعظم :

أنا كالذي أحتاج ما يحتاجه فاعلم^١ ثوابي والثناء الوافي

وكقوله في عامل صرف من عمله :

ولا تغضبني إذا مسا صُرفت فلا عدلَ فيكَ ولا معرفته^٢

ولعلَّ ميل الملك المعظم إلى النحو وبصره فيه كان يحمل الشاعر على
الإلمام به في شعره على هذا النحو .

وهذه الصنعة في شعره جارية على ذوق العصر الذي عاش فيه ، على
أنه مقتصد بها إذا قيس بغيره من شعراء عصره .

أما لغته فجزلة منقحة إذا جد ، وحفظه للمفردات وحسن انتقائه لها
عجيب ، وما أعرف بيتاً أحاط بصفات الطفيلي كبيتته هذا :

واغل^٣ وارش^٤ نماه طفيل^٥ أرشم^٦ قد مللت^٧ من إبرامه^٨

وهكذا إذا ترك وشأنه استفاد من بصره في اللغة ومعرفته الواسعة بها
فائدة بليغة ؛ ولكنه قد ينزل على اقتراح بعض ممدوحيه فيضم الشعر في

١ الواغل : الداخِل على القوم في شراهم . الوارش : الداخِل عليهم في طعامهم ولم يدع .
٢ وطفيل رأس الطفيليين الذين ينسبون إليه . الأرشم : من يتشمم الطعام ويتحين له . نقلا
عن المؤلف .

سبيل اللغة ، كما فعل في القصيدة السينية التي اقترحها عليه الفخر الرازي ،
وأولها :

مرسي السيادةِ سُدَّةَ سيفيةٌ محروسةٌ مسعودة التأسيسِ

ومثلها القصيدة الخائية ، وأولها :

حَيًّا محلَّ الحاجبية بالحمى والسفح سفح مُدْلَحِ سَحْحِ

وهو على طول باعه في اللغة ومقدرته على حسن السبك ومتانة الرصف ،
حسن ذوقه في انتقاء الفصيح ، لا يتحرج في مواضعه الهزلية من اللحن
أو ما يشبهه ، واستعمال الألفاظ والتراكيب العامية الشائعة في دمشق لعصره
مما له أصل فصيح ، أولاً ، مثل : (العواني والعلق والنصب ودق حنك
وما قصر وذقن) .

وهكذا شعره غير جار على أسلوب واحد ، بل يختلف جزالةً وليناً ،
ويتفاوت قوة وضعفاً ، فبينما تراه مخلقاً في قصيدته التي أولها :

ماذا على طيف الأحبة لو سرى وعليهم لو ساعحوني بالكرى

إذا به يسف إلى مثل قوله :

هذا ابن هرون الذي في عصرنا لا يفلحُ

ولعل السبب في ذلك ، أن كثيراً من شعره كان يقوله للإحماس والنكته ،
لا يقصد به التجويد أو التنقيح ، وهو في ذلك كثير الشبه بأبي نواس في
مجونه وهزله . وأجلُّ ما في شعره وأطرفه في رأيي الحنين إلى دمشق ، والدعابة
والتهكم والسخرية :

كثر حنينه إلى دمشق حتى أفرد له باب خاص من ديوانه ، على أنه

شائع أيضاً في بقية الأبواب ؛ فدمشق ، وقد ذيد عنها كما يذاد الطائر الظامئ
عن الماء ، قبلته ومهوى قلبه ومسرح خياله لا يجد لها مثيلاً ولا يبغى بها بديلاً :

وَلَوْ أَنِّي خَيْرْتُ فِي هَذِهِ الدَّنَى يَا لِمَا اخْتَرْتُ غَيْرَ أَهْلِي وَدَارِي

بتخيل أن يسلك إليها سبل السماء ، بعد أن سُدَّتْ في وجهه سبل
الأرض ، لذلك كثر في شعره ذكر الشهب والكواكب والبروج والأتواء
ومنازل الشمس والقمر .

وقد أحسن في وصف متنزهاتها ورياضها ، وأشجارها وأنهارها ، وجبالها
وسهولها وأوديتها ، ورقة هوائها ، وعدوبة مائها ، وعبير أزهارها ،
وسجع أطيارها ، وتلهف على ماضي أيامه في وادي بردى^١ والغوطة والمرج
والنيرب وغيرها من معاهد أنسه وميادين صبوته ؛ وإيراد الأمثلة على ذلك
يطول أمره .

أما الدعابة والتهكم والسخرية ، فقلَّ من يضارعه من الشعراء في هذا
الباب ، ترى فيه خفة روحه وتوقد ذكائه ، وشدة ملاحظته وقوة نقده ،
وحسن تصرفه في إيراد الهزل بمعرض الجدل ، والجد بمعرض الهزل ، والتفنن
في تصوير غرضه تصويراً هزلياً يبلغ به ما لا يبلغ بالجد .

وفي هذا الباب إبداع تعجب به النفس مسرورة وتقبل عليه ضاحكة ،
وسلاحه أمضى من سلاح المجداء ، والأمر على استشارة الضحك ليس بالأمر
اليسير ؛ والشاعر الساخر المتهمك بين الشعراء ، كالمصور الهزلي بين المصورين ،
لا تكاد تظفر بواحد بين العشرات .

١ وادي بردى ، الغوطة ، المرج ، النيرب : متنزهات معروفة خارج مدينة دمشق ولا تبعد
كثيراً عنها .

ومن هنا قلَّ هذا النوع من الشعر ، يشفي به الشاعر غيظه ، ويدرك مبتغاه ، ويظهر على خصمه ، ويكسب قلوب السامعين وإعجابهم ، ويجعلهم من حزبه على عدوه من حيث لا يشعرون .

كتب ابن عنين إلى الملك المعظم يتهم قاضيه بالميل إلى النساء :

أقولها لو بلغت ما عسى فالطبلُ لا يُضرب تحت الكُسى
قاضيك إن لم تقصه فاحصه أو لا فلا يحكم بين النساء

ويا ليته اجتزأ بهذا النوع عن الهجاء الذي أقذع فيه وأفحش ، وتعدى حدود المروعة والأدب ، ولم يردعه رادع من خلق ، أو وازع من دين ، ولم يكد يسلم من لسانه أحد حتى هجا نفسه وأباه ؛ واجترأ على التعرض لصلاح الدين الأيوبي والملك العادل والملك الأشرف والملك المنصور من الأيوبيين في عنفوان سلطانهم وإقبال دولتهم ؛ وتلك جرأة لم يقدم عليها شاعر .

أما الوزراء والأُمراء والقضاة والحكام فقد شنَّ عليهم حرباً لا هوادة فيها ، وشنَّع عليهم واتهمهم في نفوسهم وأعراضهم وحرمتهم ، ورماهم بالفواحش والدنايا والجهل والحسة والخيانة ، وكان مغرئ بهجو القضاة أكثر من غيرهم ، لم يكد يسلم منه أحد ممن ولي قضاء القضاة بدمشق في زمانه ، كابن عصرون وابن الحرساني وابن الزكي والجمال المصري .

وهاجم عليّة القوم والرؤساء والصدور من العلماء والوجهاء في دمشق كبنّي عساكر علماء دمشق ومحدثيها ، وهجا القواد والولاة والكتاب والوعاظ والفقهاء والخطباء والصوفية والمحدثين والأطباء والأدباء والشعراء ، فشنَّها حرباً شعواء على رجال الدولة ورؤساء الأمة :

« وما زالت الأشراف تُهَجَى وتمدحُ » .

وهو في هجائه شرس عنيف ، وقع بلذية يتفنن في مهاجمة خصمه ، فيسخر منه ويتهكم به ويرميه بالفواحش ، ويرسم له صوراً مضحكة فاحشة ، ويختلق له من الحوادث ما يتلم عرضه وشرفه ، وهو في هذا الباب غزير المادة واسع الخيال كثير الابتكار ، يشبه ابن الرومي في إقذاعه وإبداعه ، فضلاً عما امتاز به من خفة الروح والتندر .

قال في قاضي القضاة وقد أوصى أن يُدفن في داره :

ما قَصَّرَ المصريُّ في فعله إذ جعل الحفرةَ في دارِهِ
فخلَّصَ الأحياءَ من رجمِهِ وخلَّصَ الأمواتَ من نارِهِ

وشعره في الهجاء أكثر من شعره في كل باب ، ولولا أمانة العلم وصدق الرواية تقضي بنشر ديوانه كما هو ، لكان حذف الفاحش من الهجاء أولى ، على أن ما ضاع منه ولم يجمع أضعاف ما بقي كما يقول ابن خلكان .

وباب المديح في ديوانه غير قليل إذا قيس ببقية الأبواب ، وأحسنه القصيدة التي قالها في الملك العادل يستأذنه بها في العودة إلى دمشق ، وهي من القصائد المختارة في الشعر العربي ، سماها حتى بلغ الذروة ، وتصرف في كل مقطع من مقاطعها تصرف الشاعر المطبوع الحاذق البصير ، ترقق في وصف لوعته وحنينه إلى دمشق ، وأحسن في وصفها غاية الإحسان ، وترقق في إلانة قلب العادل حتى استجاب له وقد سبقت الإشارة إليها .

ويأتي بعد هذه القصيدة قصائده في الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل ، فقد كان ابن عنين يحبه ويخلص له ، فقصائده في الملك العزيز صاحب اليمن .

أما قصائده في الملك الأشرف موسى ابن الملك العادل فيظهر عليها شيء من التعمل والتكلف .

والشيء الطريف في غير واحدة من قصائد المدح ، وصف دمشق ورياضها وامتزهاتها وما خُصت به من المحاسن والبدائع .

ويؤخذ عليه في باب المديح تكراره لبعض معانيه في عدة قصائد ولا سيما هذا المعنى :

عدلٌ يميّتُ الذئبُ منه على الطوى غرثانَ وهو يرى الغزال الأعفرا

فقد كرر هذا المعنى في عدد من قصائد المدح ، فضلاً عن غيره من المعاني .

أما الرثاء فليس له فيه إلاّ ثلاث قصائد ، أحسنها مرثيته في الملك المعظم ، فلقد كان صادق الحزن واللوعة عليه .

وباب الوقائع والمحاضرات ، باب طريف ممتع ، فيه أخبار وحوادث وقصص ووقائع ، سجلت تسجيلاً شعرياً ، يميّط اللثام عن كثير من أخبار الشاعر وأخبار معاصريه ، وحسن تأتبه وسرعة بديهته .

وقد ضمّ إليه مقطعات في الغزل والوصف والأدب والحكمة والفخر مما لا يمكن إفراده في باب خاص لقلته .

وفي الديوان باب لا يستسيغه الذوق العصري ، وهو باب الألغاز ، نحلّو هذا الموضوع من أعظم عناصر الشعر وهو العاطفة ، ولما يقتضيه اللغز من التعمل والتكلف ، على ما فيه من البراعة والدقة ؛ وابن عنين ممن اشتهر بنظم الألغاز والإجابة عليها ، ولعل سبب إكثاره من نظمها أنه كان يطرح بها الندماء في مجالس سمر الملك المعظم ، وهي تدلُّ على ذكائه وسرعة خاطره ،

وفي بعضها وصف حسن فضلاً عن المحاجة والمعاياة .

مثل هذا الشاعر كان ينبغي أن يكون من المقرين عند صلاح الدين ، كالعماد الكاتب مثلاً ، يرافقه في سفره وحضره ، ويستلهم من بطولته وأعماله العظيمة ، ما يتغنى به الناس جيلاً بعد جيل ، وينظم ذلك الفصل الذي كتبه صلاح الدين بحسامه ، فكان أروع فصل في كتاب الحروب الصليبية ، ولكن سوء الطالع جعله بعيداً عن هذه البلاد مدة حكم صلاح الدين ؛ ولما عاد إليها كانت انقضت تلك المشاهد الرائعة التي مثلها صلاح الدين ، بل طمع بنو أيوب بعضهم ببعض ، واشتغلوا بعض الشيء عن مقاومة الصليبيين .

على أن لابن عنين مواقف من أنبل المواقف الشعرية المحمودة في هذا الباب ، وذلك في وقعة دمياط التي انجلت عن كسر الصليبيين سنة (٦١٨) فاستجاشت الشعر في صدره ، وكان قد بلغ السبعين من عمره فنظم قصيدة أولها :

سلوا صهوات الخيل يوم الوغى عننا إذا جهلت آياتنا والقنا اللدنا
وصلت إلى الملك الكامل في مصر قبل جميع القصائد التي قالها الشعراء
في هذا الموضوع ، وكانت أحسن ما قيل .

وأشار إلى هذه الوقعة في قصيدة مدح بها الملك المعظم فقال :

وأذكرته أيام دمياط بيننا وبين العدى والموت تهوي عقابيه

وقصائده في الملك الأشرف أيضاً تشير إلى وقائعه مع الفرنج بكثير من العزة والحماسة ؛ على أن مجال القول في أيام صلاح الدين أوسع ، لو قدر لابن عنين أن يكون من شعرائه .

وقبل أن نختم هذا الفصل ، نريد أن نسجل شهادة ابن خلكان بهذا الشاعر ،
فقد كان معجباً به وبشعره ، ختم به ديوان الشعر إذ قال :
« . . . خاتمة الشعراء ، لم يأت بعده مثله ، ولا كان في أواخر عصره
من يقاس به »^١ .

١ وفيات الأعيان ج ٢ ص ٣٣ . ولشدة إعجاب ابن خلكان بابن عتير وحرصه على أخباره
ورواية شعره ، ذكره في عدة مواضع من تاريخه ، وكأنه كان يلهج به كثيراً حتى رآه في
منامه ينشد قصيدة حفظ منها هذا البيت :
والبيت لا يحسن إنشاده إلا إذا أحسن من شاده
نقلنا عن حاشية المؤلف رحمه الله .

ديوانه

بدأ ابن عنين يقول الشعر وهو ابن ست عشرة سنة ، وظلَّ يقولهُ طول أيام حياته حتى أسكته الموت وهو ابن إحدى وثمانين سنة .

ولكنه لم يعن بجمع شعره وتدوينه ، وإذا استنشدَه أديب أو مؤرخ شيئاً من شعره ضنَّ عليه .

قال ابن الدبيثي وقد لقيه ببغداد : « . . لقيته بها ، وكتبت عنه شيئاً من شعره بالجهد لأنه كان ضنيناً به » .

وقال ابن خلكان في ترجمته : « لم يكن له غرض في جمع شعره ، فلذلك لم يدونه ، فهو يوجد مقاطيع في أيدي الناس ، وقد جمع له بعض أهل دمشق ديواناً صغيراً لا يبلغ عشر ما له من النظم ، ومع هذا ففيه أشياء ليست له » .
هذا الديوان إذن لا يجمع إلا بعض شعر ابن عنين ، والفضل في جمعه لذلك الدمشقي الذي لم يسمه ابن خلكان .

يوجد ثماني نسخ مخطوطة ، اثنتان سقط منهما اسم جامع الديوان مع ما سقط من أوراقهما ، وهما النسخة الظاهرية ونسخة الصافي^١ .

ولم يذكر اسم جامع الديوان في نسخة كبردج ؛ ولا في النسخة الموصلية الثانية .

١ هو الشاعر السيد أحمد الصافي النجفي نزيل دمشق .

أما في النسختين الحجازية والمصرية فقد ورد اسمه هكذا : «عُني
بجمعه الفقير إلى الله عزَّ وجل محمد بن المسيَّب بن نبهان بن محمد الدمشقي
الثعلبي » .

وورد اسمه في النسخة الباريزية : « محمد بن السيد نبهان الحلبي » .

وفي النسخة الموصلية الأولى : « محمد بن السيد الحلبي » .

ولا نشك في أنَّ السيد تصحيف المسيَّب ؛ والحلبي تصحيف الثعلبي ؛
فجامع الديوان من أهل دمشق عاصر ابن عنين ، لأن نسخة كبردج ونسخة
الصافي منقولتان عن نسخة كتبت سنة (٦٣٨) كما جاء في آخرهما ، أي
بعد وفاة الشاعر بشماني سنوات ؛ ولا شكَّ في أنَّ هذا الثعلبي كان ممن
يجب الأدب ، وله الفضل في جمع هذا المقدار من شعر ابن عنين ، ولكني
لم أجد له ترجمة فيما رجعت إليه من كتب التراجم والتاريخ .

وجميع النسخ مرتبة على الأبواب ، إلا النسخة المصرية فإنها مرتبة على
حروف المعجم ، ويظهر أن هذا الترتيب من عمل بعض المتأخرين ، أخذ
النسخة الحجازية فجعلها منسوقة على الحروف .

ولا يمكن أن تتخذ إحدى هذه النسخ أمأ ، أو تعتمد أصلاً ، لأن جميع
النسخ تختلف زيادة ونقصاً ، وتقديماً وتأخيراً ، وإن كان بعضها يقارب
بعضاً .

فالنسختان الموصليتان متقاربتان ، ونسخة كبردج ونسخة الصافي نُسختا
في دمشق في سنة واحدة بقلم ناسخ واحد ، ولكن الثانية منهما مخرومة ،
سقط من أولها ما يساوي ثلثها ، وهما تختلفان عن النسختين الموصليتين .

والنسختان الحجازية والمصرية تتفقان في كل شيء إلا في الترتيب ،
وتختلفان عن البقية .

والنسخة الباريزية تشابه النسختين الموصليتين من أكثر الوجوه .

والنسخة الظاهرية ترجح الجميع من حيث القدم والزيادات ، ويرجحها
الجميع من حيث الصحة وقلة الخطأ .

عَبْدُ الْمَلِكِ بْنِ عَبْدِ الرَّحِيمِ الْحَارِثِي

أبو الوليد ، عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي ، شاعر شامي من فحول الشعراء في صدر الدولة العباسية ، لم يبق من شعره إلا نزر يسير ، وهذا النزر اليسير ، نسب بعضه إلى غيره ، فأصبح من الشعراء المغمورين ، على علو منزلته في الشعر .

ينتسب عبد الملك إلى بني الحارث بن كعب ، وهم بطن من مذحج من العرب القحطانية ، كان منهم في الجاهلية ملوك نجران ، ومنهم بنو عبد المدان وبنو الديان^١ ؛ رهط عبد الملك من بني الحارث بن كعب فقد كانوا بالفلججة من أرض دمشق . قال المقدسي في صفة جزيرة العرب ص ١٣٠ : « ومن بني الحارث بن كعب بيت يسكنون بالفلججة من أرض دمشق ، منهم عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي » ؛ وقال أيضاً في ص ١٣٢ : « جبل عاملة يطل على الأردن والفلججة^٢ ، وبها رهط من بني الحارث وهم رهط ابن عبد الرحيم الحارثي » .

١ العبر لابن خلدون ٢/٢٥٥ . ملاحظة : أوردنا شرح الحواشي في دراسة هذا الشاعر نقلاً عن شرح العلامة المرحوم خليل مردم بك فاقتضى التنويه .

٢ ورد في معجم البلدان : فلجة بالتحريك ، أحسبه موضعاً بالشام والفلجات في شعر حسان بالشام كالمشارف والمزلف بالعراق .

وورد في تاج العروس : الفلجات : المزارع ، قال حسان :

دعوا فلجات الشام قد حال دونها طعان كأفواه المخاض الأوارك

ضاعت أخبار الحارثي ، وضاع شعره إلا قليلاً منه ، حتى ببلدته فقد درست منذ زمان بعيد ، وخفي مكانها ، وتعذر تعيينها على صاحب معجم البلدان ، ولولا المقدسي الذي ذكر الفلجة عرضاً لما عرفنا أنها من أرض دمشق وعلى الأردن .

ولعل السبب في ضياع أخباره وشعره ، أنه عاش في زمان غير زمانه من حيث السياسة والشعر أيضاً ، فهو عربي قحطاني شامي ، والدولة حينئذ كانت قد انتقلت من الشام إلى العراق ، وأصبح للفرس فيها نفوذ عظيم ، كما تضاعل نفوذ العرب ، وأصبح الشامي محلاً للريبة والتهمة ، ولمع نجم الشعراء الموالي كبشّار بن برد ، وأبي العتاهية وصريع الغواني ، والعباس بن الأحنف ، وأبي نواس الذي كان يتعاجم في شعره .

وأسلوب هؤلاء في الشعر يختلف عن أسلوب الشعراء الأمويين ، والحارثي أشبه بالأمويين منه بهؤلاء المحدثين الذين عاش في زمنهم .

قال ابن المعتز في طبقات الشعراء^١ ص ٢٧٦ : « كان الحارثي شاعراً مفلحاً مفلحاً مفلحاً مقتدرًا مطبوعاً ، لا يشبه شعره شعر المحدثين الحضريين ، وكان نمطه نمط الأعراب ، ولما قال قصيدته المعروفة العجيبة انقادت الشعراء وأذعنوا ، وهو أحد من نُسَخ شعره بماء الذهب ، والقصيدة التي ذكرناها هي هذه :

ها أنذا يا طالبي ساعي محضراً بَرِّي^٢ إلى الداعي
أحمي حمى من غاب عن مذحج ويحمد والشاهد لإيقاعي

١ طبعة دار المعارف بمصر تحقيق عبد الستار أحمد فراج .

٢ البز : السلاح . ويرى محقق الكتاب أن الصواب بري ، ولا نرى ذلك لأن المقام مقام حماسة ونجدة لا مقام إحسان وصلة .

لا هَالَعٌ في الحرب هاع^١ إذا رنَّق^٢ فيها كسل هلواع
 قد باضتِ الحرب على هامتي وصممتني أذنأً واعي
 واستودعتني مقلتي أرق لا يضع الجنب لتهجاع
 مستحصد الميرة ذي همة ضرار أقوام ونفَاع
 لا تؤخذ الغيرة منه وإن هيج به هيج بمنصاع
 أشوس ينضو الدرع عن منكب مثل سنان الرمح شعشاع^٣
 كما ترى أفتح^٤ ذا رُقطة تنجاب عنه هبوة القاع

فاجتمعت الشعراء والأدباء على أن هذه الأبيات ليست من نمط عصره ،
 وأن أحداً لا يطمع في مثلها . ولعمري إنه لكلام مع فصاحته وقوته ، يُقدَّر
 من يسمعه أنه سيأتي بمثله ، فإذا رامه وجده أبعد من الثريا ، وكذلك الشعر
 المتناهي الذي ليس قبله في الجودة غاية . وقد سئل بعض العلماء فقيل له :
 ما الشعر عندك ؟ قال : « السهل الممتنع » .

لا نعلم من أخبار الخارثي إلا شيئاً يسيراً جداً ، يؤخذ من شعره على
 سبيل الاستدلال في الأحوال والحوادث التي قيل فيها ، أو أشير إليها .
 من ذلك :

إن عبد الملك لم يبق في بلدته الفلجة ، فهي أضيق من أن تتسع لنبوغه
 في الشعر ، وطموحه فيه ، وقد ذكرها في شعره بصيغة التصغير فقال :
 تصيَّفت اللُّجون ثم تخيَّرت لها من شماريخ الفلّسجة مرتعا

١ هاع : خف وجزع . ورجل هاع لاع : جبان ضعيف .

٢ في الأصل : ريق . ومعنى رنق : أقام واحتبس وانتظر ؛ والهلواع السريع .

٣ الشعشاع : الطويل .

٤ الأفتح : العريض الرأس والأرنبة ، ويريد به الثعبان .

فقصد بغداد كعبة الشعراء يومئذ ، ويظهر أنه أخفق في مسعاه ورضي من الغنيمة بالإياب ، ولكن حيل بينه وبين الإياب ، فقد غضب عليه الرشيد وأمر بسجنه لسبب لا نعلمه ، فكتب إلى أخيه من سجن الرشيد^١ شعراً يقول فيه معاتباً :

فلو كان^٢ ما بي - لا يكن - بك لاغتدى إليك وراح البرُّ بي والتقرُّبُ
وقال أيضاً :

فإني إذ^٣ أريك يقيق مني - فلا تسبق به - علق نفيس
واسم أخيه سعيد وقد توفي قبله ، فرثاه عبد الملك بقصائد أعجب بها الرواة والأدباء ، ودلت على حسن إخائه ووفائه ، وسنقل ما بقي منها .
وخالف عبد الملك ولداً اسمه محمد كان شاعراً أيضاً ، ورد في حماسة ابن الشجري^٤ ص ٢٣٥ قوله :

وكتيبة كالليل بل هي أظلمُ فيها شعار بني النزال تقدّموا
نهنتُ أولها بضرب صادقٍ هبّيرٍ كما شقّ الرداء المعانم
وعليّ سابعةُ الذبول كأنها سلخٌ كسانيه الشجاع الأرقم

وحفيده الوليد بن محمد ، كان شاعراً أيضاً ، ورد في حماسة ابن الشجري ص ١٨٢ في باب صفات النساء ، ما نصّه : قال الوليد بن محمد بن عبد الملك الحارثي :

١ قانون البلاغة ، ضمن رسائل البلاغة للأستاذ محمد كرد علي ص ٤٨ ؛ الطبقة الثانية .

٢ في الأصل : فلو يك ما بي . . .

٣ في الأصل : إن .

٤ صحفت نسبة الحارثي في هذه الطبعة إلى الحلبي .

عُقْمِدِ الْحَقَابُ^١ عَلَى نَقَاً مِنْ فَوْقِهِ لَدُنَّ يَمِيسٍ مِنَ الْقَتْنَا الْخَطَّارِ
فَكَانَ أَغْصَانًا تَهَزُّ بِرُودِهَا وَالْحَلِي فَوْقَ نَقَا الْكَثِيبِ الْهَادِي
وَتَنْفَسَتْ^٢ عَنْ خَمْرَةٍ مَسْكُوبَةٍ بِمَسِيلٍ رَابِيَةٍ عَلَى نَوَّارٍ
فَغَدَتْ مِبْرَقَةً فَلَمْ أَرَ قَبْلَهَا شَمْسًا تَلَاثَ بَبْرَقِمْ وَخِيَمَارٍ
وَهَكَذَا تَسْلُسِلُ الشَّعْرَ فِي عِبْدِ الْمَلِكِ وَنَسَاهُ جَيْلًا بَعْدَ جَيْلٍ .

١ الحَقَابُ : شيءٌ تتخذُهُ الْمَرْأَةُ تَعْلُقُ بِهِ مَعَالِيْقَ الْخَلِي ، تُشَدُّ عَلَى وَسْطِهَا .
٢ فِي الْأَصْلِ : وَتَنْفَسَتْ .

شعره

أما البقية الباقية من شعر عبد الملك ، فهي في الحكمة والحماسة والفخر والمروعة والفروسية والغزل والرثاء وما إليها ؛ وليس له في المدح والمجاء شيء .

وأسلوبه عربي خالص ، متأثر بالإسلام ، جزل فصيح محكم رصين ، بعضه أشبه بشعر الأعراب .

والذين يروون شعره من الرواة والأدباء والنقاد ، يبالغون بتقريبه فيجعلونه فوق المحدثين ، وفي الطليعة من الشعراء الإسلاميين .

وهذه البقية الباقية من شعره موزعة في كتب الأدب ، والمختارات منها : حماسة أبي تمام الطائي ، وطبقات الشعراء لابن المعتز ، وأخبار أبي تمام الطائي للصولي ، ومحاضرات الراغب الأصفهاني ، والاعجاز ، والايجاز ، وخاص الخاص للثعالبي ، وربيع الأبرار للزخشمري (مخطوط) ، وسر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ، وزهر الآداب للحصري ، والعمدة لابن رشيقي ، وحماسة ابن الشجري ، والحماسة البصرية لابي الحسن علي بن أبي الفرج البصري (مخطوط) ، وجمهرة الإسلام ذات النثر والنظام (مخطوط) للشيزري ، وشرح مقامات الحريري للشريشي ، والمضنون به على غير أهله لعبد الوهاب الخزرجي الزنجاني ، وغيرها .

وهذه أمثلة من شعره تدل على طبقته العالية وأسلوبه الجزل ، قال يتغزل^١ :

١ شرح حماسة أبي تمام الطائي للتبريزي ج ٣ ص ١٩٦ .

سلبت عظامي لحمها فتركنتها
وأخليتها من مئخها فتركنتها
إذا سمعت باسم الفراق تمعقت
خذي بيدي ثم ارفعي الثوب فانظري
فما حيلتي إن لم تكن لك رحمة
فوالله ما قصرت فيما أظنه
مجردة تضحى إليك وتخصر
أنابيب^١ في أجوافها الريح تصفر
مفاصلها من هول ما تنتظر
بي الضر^٢ إلا أني أتستر
علي ولا لي عنك صبر فأصبر
رضاك ولكني محب^٣ مكفر

وقال^٣ :

وكذبت طرفي عنك والطرف صادق
وما أسكن الأرض التي تسكنينها
فلا كمدي يغني ولا لك ذمة^٤
لقيت أموراً فيك لم ألق مثلها
وأسمعت أذني فيك ما ليس تسمع
لثلا يقولوا صابر^٥ ليس يجزع
ولا عنك إقصار^٥ ولا فيك مطمع
وأعظم منها منك ما أتوقع

وقال يرثي أخاه سعيد بن عبد الرحيم الحارثي^٥ :

إني لأرباب القبور لغابط
وإني لمفجوع به إذ تكاثرت
فكنت كغلوب^٦ على نصل سيفه
أئيناه زواراً فأجدنا قيرى
بسكني^٦ سعيد بين أهل المقابر
عُداتي ولم أهتف سواه بناصر
وقد حزّ فيه حزّ حرّان نائر
من البث والداء الدخيل الماخمر

١ ويروي : قوارير في ...

٢ ويروي : خذي بيدي ثم انهضي بي تبدي .

٣ سر الفصاحة لابن سنان الخفاجي ص ٢٢٤ .

٤ في العمدة لابن رشيّق ٢/٢١ : فلا كمدي يغني ولا لك رقة .

٥ شرح حماسة أبي تمام الطائي للتبريزي ٢/١٧٧ وزهر الآداب للحصري ٤/١٠٧ .

٦ في زهر الآداب : لسكني .

وأبنا بزراع قدّ نما في صدورنا
ولما حضرنا لاقتسام تراثه
وأسمعنا بالصمت رجوع جوابه
وفي أخيه سعيد يقول^١ :

إن سليماً وإن ظرفاً
نعيم دنيا وكل دنيا
إذا أرت فرحة أخاها
وكل خير وكل شر
إن سعيداً شقيق نفسي
وإن جريالة^٢ شمولاً
مصيرها عنه أن تزولا
مالت إلى ترحة بديلاً
فيها قمين بأن تحولا
أبقي لنفسي جوي^٣ دخيلاً

وقال يتغزل :

أتى دون حلو الوعد من تكتم المطل^٤
فقلت وأبدى الوجد ما دون صدرها
أشعرت بي أهلي عشية زرتنا
فقلت فذا قد كان ما ليس راجعاً
فقلت وما أزرى بنا من تحفظ
فقلت لها ما زرتكم قاصداً لكم
وما جئتكم^٥ عمداً ولكن^٦ ذا الهوى
وقد قرظ^٧ الثعاليبي البيت الأخير من هذه القطعة وأكبره ؛ قال في
كتابه خاص الخاص : « من عجيب الشعر وطريفه ومليحه ، قول عبد

١ طبقات الشعراء ص ٢٧٨ .

٢ وما زرتكم . . . الاعجاز والايجاز للثعاليبي ص ١٧٧ وخاص الخاص له ص ٨٩ .

الملك بن عبد الرحيم الحارثي في معنى الصوفية ، جوّده وأحسنه وأحسن الإفصاح عنه وأبرزه في أبهى معرض وأرسله مثلاً سائراً ، وإن كان لم يعرف الصوفية ومذهبهم : وما زرتكم عمداً . . . » .

وقال في كتابه الإعجاز والإيجاز : « أمير شعره الذي لم يُقل مثله :
وما زرتكم عمداً . . . »

وقال ١ :

أقول وقد صاح ابن دأية^٢ غدوة ببين النوى لا أخطأتك السبائك
أني كل يوم رائعي أنت روعة بينونة الأحباب عرسك فارك
ولا بضت في خضراء ما عشت بيضة وضافت برحباها عليك المسالك

وقال ٣ :

وما روضة^٤ دارية أسدية منمنة^٥ زهراء ذات ثرى جعد^٤
بأحسن من حر تضمن حاجة لحر فأوفى بالنجاح مع الوعد

وقال في شهر رمضان^٥ :

شهر الصيام وإن عظمت حرمة شهر^٥ طويل^٥ بطيء السير والحركة^٥
يمشي الهوينا إذا ما رام فرقتنا كأنه : بطة تنجر^٥ في شبكه

١ ربيع الابرار للزنجشري ج ٤ ، ورقة ٢٠٣ مخطوط في دار الكتب الظاهرية .

٢ ابن دأية : الغراب .

٣ شرح مقامات الحريري للشريشي ج ١ ص ٥٨ .

٤ في الأصل (صعد) والصواب ما أثبتناه ، يقال تراب جعد : أي ند .

٥ ديوان المعاني لأبي هلال العسكري ج ٢ ص ٢٣٤ .

لا يستقر^١ فأما حين يطلبنا
كأنه طالب^٢ ثأراً على فرس
يا صدق من قال أيام مباركة
فلا سليك^٣ يدانيه ولا سلكه
أجد^٤ في إثر مطلوب على رمكه^٥
إن كان يكتنئ عن اسم الطول بالبركة
وقال^٦ :

وأسوأ أيام الفتى يوم لا يرى
له أحداً يزري عليه وينكر^٧
وقال فيمن قصر عن آبائه^٨ :

شريف بجديهِ وضيع بنفسه
لثيم^٩ محياه كريم المركب^{١٠}

قال الراغب : أخذه أبو تمام فقال :

يا أكرم الناس آباءً ومفتخرأ
والأم الناس مبلوأً ومختبرأ
وقال^{١١} :

لاقيت من حبيها ما لو على جبل
يلقى لطارت شقاقاً منه أفلاق^{١٢}
وقال^{١٣} :

أرانا به الله ما لم تنزل^{١٤} تبشرنا حسنات الظنون

-
- ١ كذا في الأصل ولعل الصواب (لا يستغز) .
 - ٢ سليك بن السلكة : من عدائي العرب المشهورين .
 - ٣ الرمكة : البرذونة .
 - ٤ محاضرات الراغب الأصفهاني ج ١ ص ١٦٢ .
 - ٥ محاضرات الراغب الأصفهاني ج ١ ص ٢١١ .
 - ٦ محاضرات الراغب الأصفهاني ج ٢ ص ٥٠ .
 - ٧ محاضرات الراغب الأصفهاني ج ٢ ص ٧٠ .

قصيدته اللامية

أما قصيدته اللامية التي مطلعها :

إذا المرء لم يدنس من الأثوم عرضه فكل رداء يرتديه جميل

فالمشهور بين الناس اليوم أنها للسموأل بن عادياء، وعلى ذلك يرويها الأدباء في العصر الحاضر، ويستظهرها الطلاب؛ وهي من عيون الشعر العربي.

على أن عدداً من الرواة الثقات، والأدباء والعلماء، كان يرى أن القصيدة ليست للسموأل، وإنما هي لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي، وبعضهم كان يرى أن بعض أبياتها للسموأل وأكثرها للحارثي، فممن يرى أنها للحارثي ابن الأعرابي^١ والمرزوقي؛ وروى أبو بكر الصولي في أخبار أبي تمام ص ١٤٠ بضعة أبيات منها، قال: (ومما يروى للسموأل وهو للحارثي).

أما صاحب الأغاني فلم يثبت للسموأل منها إلا ثلاثة أبيات، وأوردها المرزوقي في شرحه لحماسة أبي تمام على أنها للحارثي، وقال وتُنسب للسموأل، وقال التبريزي في شرحه لحماسة أبي تمام إنها تنسب لعبد الملك الحارثي، ونقل ذلك عن ابن الأعرابي.

وأورد صاحب المصنوع به على غير أهله ص ٣٧ بضعة أبيات من أولها ونسبها للحارثي وقال: ويُقال إنها للسموأل.

١ ديوان سموأل تحقيق الأب لويس شيخو ص ٢٥ و ٢٧.

ومن الأدلة على أنها للحارثي قوله فيها :

وما مات منا سيد حتف أنفه ولا طُلَّ منا حيث كان قتيل

قال المرزوقي : « وقوله مات حتف أنفه ، يقال إن أوّل من تكلم به النبي صلى الله عليه وسلم » . وقال التبريزي : « ويقال إن أوّل من تكلم بقولهم حتف أنفه النبي صلى الله عليه وسلم » . فلا يمكن والحالة هذه أن يقال هذا في الجاهلية .

ومن الأدلة أيضاً قوله :

فإن بني الديّان قطب لقومهم تدور رحاهم حولهم وتجول

وبنو الديّان أجداد عبد الملك الحارثي .

قال التبريزي : « قال أبو محمد الأعرابي في رده على النمري قوله قال السموأل :

وأسيافنا في كل غرب ومشرق بها من قراع الدارعين فلول

هذا البيت لعبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي لا للسموأل بن عادياء الغساني ، وبدلك على ذلك قوله في القصيدة : (فإن بني الديّان قطب لقومهم) والديّان هو يزيد بن . . . بن الحارث بن كعب ، قبيلة عبد الملك الحارثي : وجاء في كتاب عيار الشعر لمحمد بن أحمد بن طباطبا العلوي المتوفى سنة ٣٢٢ هـ المطبوع في مصر سنة ١٩٥٦ م .

عقد ابن طباطبا في كتابه المذكور فصلاً متهّداً له بقوله : « فمن الأشعار المحكمة المتقنة ، المستوفاة المعاني ، الحسنة الرصف ، السلسلة الألفاظ ، التي قد خرجت خروج النثر سهولةً وانتظاماً ، فلا استكراه في قوافيها ،

ولا تكلف في معانيها » . وأورد مختارات من أحسن الشعر لجماعة من كبار الشعراء ، حتى انتهى إلى قوله : وكقول عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي :
تعيّرنا أنا قليلٌ عديدُنا فقامت لها إن الكرام قليل
ثم أورد بعد هذا البيت أربعة عشر بيتاً على سبيل الاختيار على أنها للحارثي^١ :

* * *

وأطول ما بقي من شعره قصيدة عينية يبلغ عدد أبياتها نحواً من مائة بيت يرثي بها أخاه سعيد بن عبد الرحيم الحارثي ؛ أعجب بها الرواة والشعراء ، وفضله بها الأصمعي على جرير والفرزدق والأخطل ، ظفرونا بها كاملة برواية الرياشي عن الأصمعي في مخطوطة جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام لأمين الدين أبي الغنائم مسلم بن محمود بن نعمة بن رسلان الشيزري .

١ انظر عيار الشعر ص ٤٨ ؛ ٦٥ ؛ ٦٦ .

قصيدته العينية

هذه القصيدة ، مرثية رثى بها الشاعر أخاه سعيد بن عبد الرحيم ، وهي من القصائد الطوال ، يبلغ عدد أبياتها نحواً من مائة بيت ، تدل على طول نفس الشاعر ، ومقدرته ، وجزالة أسلوبه ، وحسن تصرفه في تصوير حزنه ، وذكر محاسن أخيه ، ومبلغ الفجعة بفقده ؛ فقد مثّل لكل ذلك صوراً كاملة ومشاهد ماثلة ، يمكن أن ينتزع الرسام منها لوحات تنبض بالحياة .

وهو على تفننه بها لم يفارق عمود الشعر العربي ، بل جلاها مثلاً للأسلوب العربي الخالص ؛ ومزيتته بها : سعة الخيال ، وتنوع الصور وتسلسلها ، في سبيل الإفصاح عما يترأى له ويحيش في صدره .

ولا أعرف كتاباً غير مخطوطة جمهرة الإسلام^١ ذات النثر والنظام اشتمل على هذه القصيدة بتمامها ، على أن ابن المعتز أورد منها في كتابه طبقات الشعراء أربعة عشر بيتاً .

قال ابن المعتز في طبقات الشعراء ص ٢٧٧ : « وللحارثي قصيدة يرثي فيها أخاه سعيد بن عبد الرحيم ، ليست بدون قصيدة متمم^٢ التي يرثي بها

١ في خزانة المجمع العلمي العربي نسخة مصورة من هذا الكتاب .

٢ هو متمم بن نويرة اليربوعي ، وقصيدته التي يرثي بها أخاه مالكاً من المرثي السبع المعدودة من عيون الشعر العربي وأولها :

لمعري وما دهري بتأبين مالك ولا جزعاً مما أصاب فأوجعا =

أخاه مالكا وهي على روي تلك .

وورد في جمهرة الإسلام ما نصه :

قال الرياشي : سألت الأصمعي عن محمد بن مناذر وجودة شعره ، فقال لي : أين أنت والحارثي ؛ قلت وهو أشعر منه ؟ قال : إي والله ومن جرير والفرزدق والأخطل . قلت : ما علمت أنه كذلك ؛ قال : ويحك ما سمعت مرثيته في أخيه سعيد ؟ ثم أنشدني :

فما أم سَقب^١ أودعته قرارة^٢ من الأرض وانساحت لترعى^٣ وتمجعما
لخيس^٣ كمثل الأيهقان ابن ليلة أمد^٤ قواه أن ينوء فيركعا^٥
ويهتر^٦ في المشي^٦ القريب كأنه قضيب من البان ارتوى^٧ فترعرعا

= وفيها يقول :

فإن تكن الأيام فرقن بيننا
وعشنا بخير في الحياة وقبلنا
وكنا كندماني جذيمة حقة
فلما تفرقنا كأني ومالكا
فتى كان أحيا من فتاة حية
وأشجع من ليث إذا مس تمنعا

والقصيدة من قصائد جمهرة أشعار العرب لأبي زيد القرشي ص ١٤١ .

١ السقب : ولد الناقة . وفي طبقات الشعراء لابن المعتز « فما أم خشف ... » والخشف ولد الظبي .

٢ في الأصل لتروى ، واخترت رواية طبقات الشعراء .

٣ لخيس : أي لا تزال أمه تلحسه لقرب عهده بالولادة . وفي الطبقات : « كلون الأيهقان » والأيهقان الجرجير البري .

٤ في الطبقات : (أمر قواه ...) .

٥ في الأصل : « ويركعا » والترجيح من الطبقات .

٦ في الطبقات : « في المشي ... » .

٧ في الطبقات : « التوى » .

فَظَلَّتْ بِمُسْتَنَ ١ الصَّبَا مِنْ أَمَامِهِ تَبَغَّمَ ٢ فِي الْمَرَعَى لِإِيهِ لِيَسْمَعَا
 إِذَا غَفَلَتْ ٣ نَادَتْ ٤ وَإِنْ نَابَ نَبَأَةٌ عَلَى سَمْعِهَا تَذَكَّرُ طَلَاهَا فَرَفَعَا ٥
 فَخَالَفَهَا ٦ عَارِي الْفَوَاهِقِ شَاسِبٌ أَخُو قَفْرَةٍ أَضْحَى وَأَمْسَى مَجْوَعًا ٧
 فَأَنْهَلَ مِنْهُ بَعْدَ عَمَلٍ وَلَمْ يَدْعُ لِلتَّمَسِ إِلَّا ٨ وَشَيْقًا ٩ مُدْعِدَعًا ٩
 فَعَجَاءَ بِرِيَّاهُ نَسِيمٌ مِنَ الصَّبَا إِلَيْهَا ١٠ وَرِزْءٌ جَرٌّ ثَكْلًا ١١ فَأَوْجَعَا ١١
 فَأَعْمَجَلَهَا عَنْ حَمَلِهَا الْوَجْدَ فَارْتَمَتْ عَلَى دَهَسٍ ١٢ لَا تَأْتِي أَنْ تَشْنَعَا ١٣
 مُوَلَّهَةً ١٤ لَمْ يَتْرِكِ الْوَجْدُ عِنْدَهَا بَوَاحِدَهَا إِلَّا ١٥ فَوَادًا ١٦ مَرْوَعًا

١ المستن : المضطرب والمذهب .

٢ بغمت الناقة وتبغمت : قطعت الحنين ولم تدمه . وفي الطبقات : « تنعم . . . »

٣ في الطبقات : إذا أغفلت . . . ولعلها : إذا قفلت أي عادت .

٤ في الأصل : « زادت » . والترجيح من الطبقات .

٥ رفع البعير في سيره : بالغ . ورواية الطبقات (فتربعا) وربع : توقف وانتظر .

٦ خالفها : أي قصد ولدها وهي مولية عنه .

٧ في الأصل : « فخالفها عاري التراقي ابن قفرة » والترجيح من الطبقات ، وكأنه أراد

بالفوايق جمع فهمة وهي عظم عند مركب العنق ولكن جمعها فهاق ، ولذلك رأى محقق

الطبعة المصرية أنها مصحفة عن النوايق وقال : « النوايق العظام الشاخصة بجوار العين » .

ولكن يرد على ذلك أن النوايق لذوات الحافر وليست للسباع المفترسة . والشاسب : الضامر

المهزول .

٨ الشيق : لحم يقدد حتى ييبس . وفي الطبقات : « الا شريحا » و الشريح : القطة من اللحم ،

وكل سمين من اللحم تمتد .

٩ المددع : المبدد . وفي الأصل « مددعا » .

١٠ في الطبقات : « صباحاً ودر . . . » .

١١ قال ابن المعتز في الطبقات بعد هذا البيت : « هذا كلام يعجز الشعراء ويفضحهم » .

١٢ الدهس : المكان السهل ليس برمل ولا تراب ، ويجوز أن يكون : « على دهس » .

١٣ شنع البعير وتشنع : انكمش وجد في السير .

فطافت بملقاه ومصرع جنبه فسافت^١ دماً منه وشلبوا^٢ مُتَقَطِّعاً
لحارت وبارت واستطارت ورجعت^٣ حينئذ فأبكت^٤ كل من كان مَوْجِعاً
ونذت^٥ على وحشيها تركب الربى وتنفي الحصى أخفافها قد تصدعا
فلأياً^٦ بلائي ما تنوها عشية وشدوا^٧ بعينها الحبال لتربعاً
فقامت^٨ أخير البرك^٩ يدعو حنينها حنين المواليه^{١٠} الثكالي المرَجِّعاً
وقمن^{١١} بجنبها فأسعدن شجوها كما أسعد الحي المصاب المفجعاً
فإن سجرت^{١٢} وهنأ سجرن لسجرها وإن سجعت^{١٣} وهنأ تجاوبن سجعاً

• • •

فحن نساء الحي من بعد هجمة لصوت دعا إثكالهن فأسمعا
وأقبلن من هنأ وهنأ وأسفرت ستور^{١٤} الدجى عن ماتم قد تجمعا
فما شق ضوء الفجر حتى تصدعت^{١٥} جيوب^{١٦} وحتى فاض دمع^{١٧} فأسرعا^{١٨}

- ١ سافت : شمت ؛ والشلو : العضو من أعضاء اللحم وكل مسلوخ أكل منه شيء وبقيت منه بقية .
٢ ند البعير : نفر وذهب على وجهه شارداً . وحشي كل دابة : شقه الأيمن ، وإنسيه : شقه الأيسر .
٣ اللائي : الإبطاء والاحتباس والشدة .
٤ في الأصل : « لترفعا » ولعل ما أثبتناه الصواب . يقال رفع البعير : بالغ في سيره ، وربع : توقف وانتظر وتحبس .
٥ البرك : إبل أهل الحواء كلها التي تروح عليهم باللغة ما بلغت وإن كانت أولفاً .
٦ المواليه : جمع ميلاء وهي الشديدة الحزن والجزع على ولدها .
٧ سجرت الناقة سجرأ وسجورأ : مدت حنينها . والوهن : نحو نصف الليل أو بعد ساعة منه .
٨ سجعت الناقة : مدت حنينها على جهة واحدة .
٩ شق ضوء الفجر : طلع . الجيوب : جمع جيب : وهو القلب والصدر .

بأوجع مني يا سعيدُ تحرقاً عليك ولكن لم أجد عنك مدفعا

* * *

فلو أن شيئاً في لقائك مطمعٌ صبرتُ ولكن لا أرى فيه مطمعا
فأقسم لا تنفكُ نفسي شجيرةً عليك ووجهي حائلَ اللون أسفعا
وقد كنت ألقى مَنْ بكى لمصيبةٍ فيها أنذا قد صرت أبكي وأجزعا
وقد قرعتني الحادثاتُ وريبها بشكلك حتى لم أجدُ في مَقرَعَا
وقد كنت مغبوطاً وقد كنت مصعباً فأصبحت مرحوماً لفقدك أخضعا
وقد كنت لي أنفأ حمياً ففاتني بك القدرُ الجاري فأصبحت أجدعا
فلو أن طوداً من (تهامة) ضافه من الوجد ما قد ضافني لتضعضعا
فيا سيداً قد كان للحي عِصْمَةً ويا جبلاً قد كان للحي مفزعا
درأتُ به جَبْرَ الرزايا ولم أجدُ له خَلْفاً في الغابرين فأفنعنا
وأبيضَ وضاحِ الجبين كأنه سَنَا قمرٍ أوفى مع العشر أربعا
قطيعَ لسانِ الكلب عن نبخ ضيفه مُوطأً أكناف الرِّواق سَمَيْدَعَا
ومُجتنباً للقول في غير حينه حِفَافاً وقوَّالاً إذا قال مصتقعا
يصون ببذلِ المالِ نفساً كريمةً وعرضاً حمى من كل سوء مَسْتَعَا
فتى الخير لم يهجمُ بغدرٍ ولم يُعبِ بعجزٍ ولم يمددْ إلى الدمِ لِصَبْعَا
ولا كان في الناديِ فيهجر قومهُ بأملأ منه في العيون وأروعَا
ولا غاب إلا نافس القومُ بينهم ولا آبَ إلا كان للحي مَقْنَعَا
وما زال حملاً لكل عزيمةٍ - إلى أن قضى من نخبه - مذ ترعرعا
فتى كان لا يدعو إلى الشر نفسه فإن جاءه الشرُّ امتطاه فأوضعا

١ هذا البيت أحد الأبيات الأربعة عشر التي نقلها ابن المعتز من هذه القصيدة في كتابه طبقات الشعراء ، والرواية هناك : « . . . على العشر أربعا » .

ويركب صعب الأمر حتى يردّه
وأمر كحدّ السيف قد خاض عمره
رأته المنايا خيرنا فاختر منه
تقتضيه من دون بيضاء نثلة^٣
على عقب منه ذلولاً مؤقعا^١
بهماته^٢ كيما يضرّ وينفعا
وكنّ بتعجيل الأخبار نزعاً
وعضب إذا ما صاب للقطع أسرعاً

• • •

وأجرد خوار العنان^٤ كأنه
أشقّ^٥ طواه الركض في كل غارة
وأشرس^٦ يستقري الكمامة أجابه
جهيضاً^٧ يذب الطير عنه بكفه
فمن والغ حصداً جلدة ظهره
عقاب^٨ هوت من بين نيقين أتلعاً
وحطّم القنا بالبحر حتى تجزعا
فبواه^٩ في ملتقى الخيل مصرعا
فيحجمن عنه ثم يرجع شرعاً
ومن ناهش^{١٠} أدفى^٨ الجناحين أقرعا

• • •

كأن سعيد الخير لم يهد^٩ غارة^{١٠}
ولم يصبح^{١١} الخيل الحلول بخيليه
كرجل الجراد التفّ ثم ترفعا
فبترك^{١٢} منهم ساحة الدار بلقعا

- ١ الموقع : البعير تكثر آثار الدبر عليه : وهي قروح تحدث من الرحل ونحوه .
٢ كذا ولعله : بهمته .
٣ النثلة : الدرع الواسعة .
٤ فرس خوار العنان : سهل المعطف كثير الجري . والنيق : أرفع موضع في الجبل .
٥ الأشق من الخيل : الذي يشتق في عدوه يميناً وشمالاً ، وقيل البعيد ما بين الفروج والطويل .
٦ الأشرس : الجري في القتال .
٧ الجهييض : الملقى .
٨ أدفى الجناحين : طويل الجناحين . وفي الأصل (أزقى الجناحين) .
٩ هدى الغارة : تقدمها .
١٠ صبح القوم : أتاها وأغار عليهم صباحاً .

وما ذرَّ قرنُ الشمسِ حتى كأنها
 وإن شئتَ أنْ تلقى بكلِّ مجازة
 وإن غشيتَ^٣ حزنًا^٤ سنايكُ خيله
 وتبعثَ يقظانَ الترابِ جيادُه
 تُرى برجالِ الحيِّ خشبًا^١ مُصرِّعا
 لقيتَ له حسرى وسخلًا^٢ موضعا
 تضاعلَ حتى يُصبحَ الحزنُ أجرعا
 ونائمه حتى يهْبُ^٥ فيسطعا

• • •

ولم يسرِ^٥ بالركبِ الخفافِ لحومهم
 فأظهرَ والحربا ينوفُ^٦ بعودِه
 لها وقعة^٧ في كسلِ يومٍ وليلةٍ
 وتستودعُ المعزاء^٨ عند انبعاثها
 كأنَّ على أكوارها حين تنفري
 ترى كل دهماءِ الحواشي مكورة^٩
 على قُلُوصِ^{١٠} ثني قوائمِ ظُلَمًا
 مؤلِّقًا^{١١} قفاه الشمسِ يخبدين^{١٢} رُفعا
 وتلقيمه^{١٣} تجني النجاءَ المملعا^{١٤}
 بناتِ الخوايا^{١٥} والشريحِ المقطعا
 سرايبيلُهُم^{١٦} عنهم أجادل وُقعا
 على كل وجه حال منهم وأخذعا

• • •

- ١ كذا ولعلها (حشداً) .
- ٢ كذا ولعله (مبضعا) أي مقطع .
- ٣ في الأصل : غشيت .
- ٤ في الأصل : جرياً .
- ٥ أي وكأنه لم يسر . . .
- ٦ كذا في الأصل ولم يظهر لنا وجه الصواب .
- ٧ المملع : السير السريع . وفي الأصل : الممليعا .
- ٨ المعزاء : الأرض الصلبة الكثيرة الحصى .
- ٩ الخوايا : جمع حوية وهي ما تحوى أي انقبض واستدار من الامعاء ، وكساء يحشى بهشيم
 النباتات ويجعل حول سنام البعير .

ولم يَهَبَ الكومَ المرابيا^٢ وعبيدها
مُضَمَّنةً أمثالها في بطونها
ترفُّ بأمثال المجادل^٥ لم يدعُ
تصَيَّفَتِ اللَّجُونُ^٨ ثم تَخَيَّرَتْ
إذا شَقَشَقَتْ^{١٢} فيها حسبت هديرها
كأنَّ بها نَحْلًا بنجرانَ يُنْعَا
مُكْحَلَّةً قُبُلًا^٣ المرافق مُزْعَا^٤
رضيخُ النوى والقضبُ^٦ فيهن مضبعا^٧
لها من شماريخ^٩ الفليجة^{١٠} مرْبعا^{١١}
هماهم رعدٍ آخرَ الليل رُجْعَا

ولم يُحْرَمَ^{١٤} البيضَ اللواتي كأنها
مجلَّة خزآ وقزآ يطأنه
تهز إذا تمشي مُتُونًا كأنما
نجوم الثريا مسقط النسر طُلْعَا
بأقدامها والسابري^{١٥} المُضْلَعَا
تهزُّ بهن الرياحُ عيدانَ نُبْعَا^{١٦}

١ أي : وكأنه لم يهب . . .

٢ المرابيا : جمع مري وهي الناقة الكثيرة اللبن .

٣ القبل : جمع أقبل وهو البعيد ما بين أوساط الساقين .

٤ مزع البعير : أسرع . وفي الأصل (نزعا) .

٥ جمع مجدل : وهو القصر .

٦ القضب أغصان البقل ، والرطب . والكلمة في الأصل غير منقوطة .

٧ ضبعت الناقة : مدت ضبعيها في سيرها واهتزت .

٨ اللجون : بلد بالأردن بينه وبين طبرية عشرون ميلا (معجم البلدان) .

٩ شماريخ : رؤوس الجبال .

١٠ الفليجة : تصغير الفلجة (معجم البلدان) والفلجة من أرض دمشق وهي بلدة الشاعر .

١١ المربع : الموضع يقام فيه فصل الربيع .

١٢ شقشق الفحل : هدر .

١٣ أي : وكأنه لم يحرم . . .

١٤ أحرم الشيء : جعله حراماً . وفي الأصل (ولم تحدم) .

١٥ السابري : النسيج الجيد ، نسبة إلى سابور على غير القياس .

١٦ ناع الفصن : مال .

كأنّ البرى^١ والعاج في قصباتها تغمّر^٢ن^٣ ضالاً^٤ أو تعمّر^٥ن خروعا^٦

• • •

ترى الناس أرسلالاً إليه كأنما
فمن صادرٍ قد آب بالريّ حامدٍ
أفات^٧ بلبقاء^٨ على العرض ماله
ولا يستخص^٩ القيدر من دون جاره
جواد^{١٠} إذا ما ألصق المحل بالثرى
كساه الحياء الجود حتى لو انه
ويُلقي رداء^{١١} العصب^{١٢} قبل ابتداله
إذا العرق^{١٣} المرشوح^{١٤} بل رداءه
فيوما^{١٥} تراه بالعبير مضمخاً
ويوما^{١٦} تراه يسحب الوشي غادياً
تضمن أرزاق^{١٧} العفاة لهم معا
ومن وارد^{١٨} شاح^{١٩} بفيه ليكرعا
فأنجح^{٢٠} إذ أكدى البخيل^{٢١} وأوضعا
ليشيع^{٢٢} والجيران^{٢٣} يُمسون^{٢٤} جوعاً
وضاق^{٢٥} لئام^{٢٦} الناس عنه توسعا
يُجرّد^{٢٧} من سرباله ما تمنعا
وقبل^{٢٨} (بلاه^{٢٩}) الحضرمي^{٣٠} المرصعا
جرى^{٣١} المسك^{٣٢} من أردانها^{٣٣} فتضوعاً
ويوما^{٣٤} تراه بالدماء^{٣٥} ملّمعا
ويوما^{٣٦} تراه في الحديد^{٣٧} مُقنعا

١ البرى : جمع برة وهي كل حلقة من سوار وقرط وخالخال .

٢ كذا في الأصل ولم يظهر لنا صوابه .

٣ الخروج كل ثبت ضعيف يتثنى .

٤ هذا البيت والذي يليه من الأبيات الأربعة عشر التي نقلها ابن المعتز من هذه القصيدة في كتابه طبقات الشعراء ، والرواية هناك : « أناف . . . » وليس كذلك .

٥ في طبقات الشعراء : (يمشون) والصواب خلافه .

٦ العصب : ضرب من البرود ؛ وفي الأصل (العضب) وهو تصحيف .

٧ في الأصل (تلاد) ولعل الصواب ما أثبتناه . والحضرمي : النعل .

٨ كذا بالأصل ولعله : (من أردانه) .

إذا نال من أقصى مدى^٢ المجد غاية
 أجلّ عن العورِ المهاجر سمعهُ
 له راحةٌ فيها حياً^٣ لصديقه
 سما طالباً من تلك أسنى وأرفعا
 ووقّره من أن تقال فيسمعا
 وأخرى سقت أعداءه السمّ منقعا^٤

• • •

فما فُجِعَ الأقوامُ من رُزءٍ هالكٍ
 ومَن طاب نفساً عن أخٍ لوداعه
 فواعجباً للأرض كيف تألّبت^٥
 ويا بؤسَ هذا الدهر من ذي تلوثٍ
 هو المتعيسُ النعمانُ قسراً وقبله^٦
 وزيد بن كهلانٍ وعمرو بن عامرٍ
 بأعظمَ ممّا قد رُزئتُ وأفظعا
 فما طيّبت نفساً عن أخي يومَ ودّعا
 عليه ووارت ذلك الفضلَ أجمعا
 وذو فجعات ما أفظأ وأفظعا
 أبا كرب^٧ والأيهمين^٨ وتبّعا^٩
 وحلوان^{١٢} أردى عنوةً والهميسعا^{١٣}

- ١ قال ابن المعتز : « هذا البيت سجدة للشعراء » هو مع البيتين اللذين بعده آخر ما نقله ابن المعتز من الأبيات الأربعة عشر من هذه القصيدة في طبقات الشعراء .
- ٢ في طبقات الشعراء : (عرى المجد) .
- ٣ في طبقات الشعراء : (الحبا) .
- ٤ في طبقات الشعراء : (وأخرى لمن عادى بها السم منقعا) .
- ٥ في الأصل (تألّت) .
- ٦ هو أبو قابوس النعمان بن المنذر اللخمي ملك الحيرة ، ممدوح التابعه الذبياني ، قتله كسرى .
- ٧ أبو كرب أسعد بن مالك الحميري من التبابعة .
- ٨ الأيهم الأول والأيهم بن جبلة ملكان من ملوك غسان في الشام .
- ٩ تبع الحميري : حسان بن أسعد من أعظم تبابعة اليمن ، ثار عليه جماعة من قومه فقتلوه .
- ١٠ زيد بن كهلان : ينتهي إليه نسب عدة من قبائل العرب القحطانية .
- ١١ عمرو بن عامر مزقياء جد بني جفنة ملوك غسان .
- ١٢ هو ابن عمرو بن عامر .
- ١٣ الهميسع بن حمير : ملك بعد أبيه وهو أبو الملوك التبابعة والأفيال والأذواء .

فمن ذا الذي أضحي يُؤمّلُ بعدهم فلاحاً وقد كانوا أعزّ وأمنعاً
وما أحدٌ إلاّ له الموتُ ناصبٌ بموقعه^١ منه حباثلٌ صُرّعاً
وكلُّ أمرىءٍ منها بمنزل قُلُعةٍ^٢ وإن وُلدَ الأولادَ فيها وجَمَعَا

وبعد فالناظر في هذه القصيدة نظرة متدبر ، يرى أنها أشبهه بشعر العصر
الأموي بل بشعر العصر الجاهلي ، ويتبين أن صاحبها شامي من العرب
المحطانية ، فلقد ذكر في أواخرها مراتع إبله في (اللجون) و (الفليجة) ،
وهما بالشام و (الفلجة) بلدة الشاعر ، كما ذكر ملوك اليمن وأقبالها وتبابعها
وأذواءها ، وملوك اللخمين في الحيرة ، وملوك غسان في الشام ، وكل
أولئك من العرب المحطانية ؛ ذكر مصارعهم وانقضاء دولهم وغدر
الدهر بهم على سبيل التأسّي والاعتبار .

ولئن كان لمتعم بن نويرة فضل السبق في قصيدته التي رثى بها أخاه
مالكاً ، فإن للحارثي في قصيدته هذه^٣ التي عارضه بها مزية الاستقصاء
والتنوع في تمثيل حزنه وتصويره .

١ موقعة الطائر : موضع يقع عليه .

٢ منزل قلعة : لا يملك ، ويجلس قلعة : يتلعب عنه الجالس إذا جاء من هو أعز منه ، والندنيا
دار قلعة : أي انقلاع وارتحال .

٣ ملاحظة :

إن الشرح الذي ورد في حواشي القسم الأخير من هذا الكتاب ؛ وأعني البحث المخصص
في دراسة الشاعر عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي ، نقل حرفياً عن مؤلف كتاب الشعراء
الشاميين رحمه الله دون زيادة ولا نقصان .

فهرس الموضوعات

التعريف بالكتاب ٥

١ - عدي بن الرقاع

١٥	حياته
١٩	صفته وأخلاقه
٢٤	إيثار بني أمية له
٢٤	ابن الرقاع والأحوص وابن سريج
٢٦	تعصب جرير على عدي
٢٧	تذبذب عدي
٢٨	عدي والشعراء عند الخليفة سليمان
٢٩	شعره
٤٠	أثر الشام في شعره
٤٣	أشلاء ديوانه

٢ - الوليد بن يزيد

٧٩	حياته
٨٨	صفته وأخلاقه
١٠٢	أدبه وثقافته

١٠٧	مجنونه وخلاعته ورميه بالزندقة .
١٠٩	شعره
١١٥	غزله
١١٩	وصف الخمر
١٢٢	خاتمة

٣ - الطرماح بن عدي

١٢٦	حياته
١٣٢	ثقافته وصفته وأخلاقه
١٣٤	مذهبه
١٣٦	بقية أخباره
١٤٠	شعره
١٤٣	دجاؤه
١٤٥	لغته
١٤٩	ديوان الطرماح
١٥٣	مختارات من شعره

٤ - ابن حيوس

١٥٨	حياته
١٧٧	علمه وأدبه
١٨٠	صفته وأخلاقه
١٨٨	شعره

٢٠٣	لغته
٢٠٧	ديوانه

٥ - ابن الحياض

٢٠٩	حياته
٢١٩	علمه وأدبه
٢٢٢	صفته وأخلاقه
٢٢٥	شعره
٢٣٤	لغته
٢٤٣	ديوانه

٦ - ابن عنين

٢٤٥	حياته
٢٥٧	علمه وأدبه
٢٥٩	صفته وأخلاقه
٢٦٤	شعره
٢٧٣	ديوانه

٧ - عبد الملك بن عبد الرحيم الحارثي

٢٧٦	حياته
٢٨١	شعره
٢٨٦	قصيدته اللامية
٢٨٩	قصيدته العينية

9302 224



Sidney Rheinstein
Class of 1907
Fund for the Advancement
of Social Justice and
International Understanding



